

تأليف

عبد السلام هاشم حافظ

الطبعة الأولى

١٣٨٩ هـ = ١٩٦٩ م

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

محمد محمود الحلبي وشركاه - خلفاء



صورة المؤلف

الكتاب الثامن عشر

الفائز بجائزة وزارة المعارف

الإمام ابن تيمية

« ماذا يقول الواصفون له ؟ وصفاته جلّت على الحصر

هـو حجّـة لله قاهرةٌ هو بيننا أعجوبة الدّهـر

هو آيةٌ فى الخلق ظاهرةٌ أنوارها أربت على الفجر »

جمال الدين بن الزملـكانى

بسم الله الرحمن الرحيم

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَاتَدَّعُونَ . نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ . وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ . وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) .

(قرآن كريم)

مدخـــــل

يتمثل كل صانع للحياة ، شخصية أو عدة شخصيات ، تتميز عنده — كرمز للفكر أو العقيدة ، أو أى لون من ألوان البطولة .

ولقد تمثلت فى مطلع حياتى الأدبية شخصية المغفور له فقيد الأدب واللغة والبيان : الأستاذ مصطفى صادق الرافعى — كرائد أدبى متدين ، فكان عندى هذا الرمز الفكرى ، وقد درسته متزوداً ، ثم عدت لأدرسه باحثاً وكاتباً لترجمة حياته . إذ وضعت عنه مؤلفاً[1] ضمنته أيضاً صور خياله العاطفية السامية التى استلهمها من الأديبة (مى) التى كانت أقدر بنات جنسها على حمل رسالة الأدب والنبوغ فيه .

ثم عندما عكفت على قراءة تراث شيخ الإسلام الإمام أحمد بن تيمية ، وعالجت ألوان علومه الدينية ، تمثلته رائد العلم والدِّين ، الذى أبحث عنه . . ويرمز إلى اتجاهى الدينى . فلا أقل من أن أؤدى نحوه واجب التلمذة والتقدير . إن لم يكن حقًّا من حقوقه على الرواد . . فأعكف مرة أخرى على دراسته كمصنف لتاريخ حياته — بعد أن درسته كطالب معرفة .

ولقد شجعتنى (مسابقة الأعلام) بوزارة المعارف ، على أن أكتب عنه هذا الأثر فى غير إبطاء . .

وعالمنا الجليل الشيخ (ابن تيمية) المتعدد الجوانب فيما تناوله من فنون العلم فى ظلال الدين ، يستحق أن يدرس ويكتب عنه فى كل جانب على حدة .

إنه علم من أعلام القرنين السابع والثامن الهجرى — فى الدين والجهاد والإصلاح .. رجل الكتاب والسنة ، الذى يدعو بهذا النهج القويم ، كما جاء على لسان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم — فى قوله من خطبته فى حجة الوداع : (إنى تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً : كتاب الله وسنة نبيه) .

---

(١) هو كتابنا : (الرافعى ومى) الذى أخرجته وزارة الثقافة بمصر ، فى أواخر سنة ١٣٨٣ هـ .

وعلى هذا الهدى سلك الإمام ابن تيمية ، وقد منحه الله القدرة على حمل الأمانة — عبء حياته . . وكان أجدر بتحمل المسئولية الضخمة : بالقول والفعل . . يبصر الناس بأمور دينهم الحنيف وتوحيد الله تعالى ، وينافح بإخلاص فى الذب عن حياضه ، ويجاهد فى سبيل الدعوة إلى سلامة شرائعه السماوية — دون زيف أو تأويل أو تفلسف على مائدة الرب . . عز مقامه وجلت قدرته .. ليس كمثله شىء . . وهو وحده المتصرف فى كونه . . له ملكوت السموات والأرض .

ولا يقف الإمام ابن تيمية عند حد الدعوة فقط ، بل يستعمل عدته العلمية الناضجة فى جرأة الواثق من معتقده ونفسه ، ليتصدى لكل تيارات الانحراف والزّيغ والضلال ، ويصدها بالبراهين الساطعة . . ولا يخشى أن يصاب بمكروه .

إن له من إيمانه قوة ، ومن تقواه عزيمة ، ومن سمو عقيدته مبدأ ، ومن ذكائه عمق فهم ، ومن سعة علمه حجة ومنهاجاً . .

ونأتى هنا بمثل واحد من مئات الشواهد التى أشاد فيها المؤرخون والعلماء بعظمة الإمام وثروته العلمية التى لاتقدر بثمن .

قال العلامة ابن عبد الهادى فيما أفاض فيه من كتابه (العقود الدّريّة فى مناقب ابن تيمية) : (ولا أعلم أحداً من متقدمى الأمة ولا متأخريها ، جمع مثلما جمع ولا صنف نحو ماصنف ، ولا قريباً من ذلك ، مع أن أكثر تصانيفه إنما أملاها من حفظه ، وكثير منها صنفه فى الحبس ، وليس عنده ما يحتاج إليه من الكتب) .

ونعتقد أن عوامل الزمن والأوضاع المتقلبة ، التى كانت تحيط بالإمام ، قد أدت إلى فقدان بعض كتبه ماطال منها أو قصر .. وإن ماتمكن التاريخ من حفظه ، هو مانطالعه اليوم من مؤلفاته المطبوعة التى تنيف على التسعين كتاباً ورسالة ، ويطالعنا أكثرها فى مجموعات — ليضم الكتاب الواحد عدة مصنفات ، ولم يبق من المخطوطات إلا القلة .

ولئن كانت هى (كتبه الموجودة) كل ما أنتج الإمام . . فإنه قد أوفى بحق علمه الغزير ، وترك لنا بها مانفخر به المكتبة الإسلامية والعربية على مدى العصور . : وقد كأن هذا العالم الفذ ممن قال فيهم الرب جل وعلا : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون) :

وسنعرف كل مايعنينا عن هذه الشخصية العلمية الكبيرة من خلال حياته المثمرة وكفاحه الجبار ، مما تناولناه فى دراستنا الشاملة هذه .

ونرجو أن نكون قد أدينا بها بعض حقه على العلم الذى عاش له حياته كلها ، ونذر نفسه فى سبيله — حتى أنفاسه الأخيرة .

المؤلف

المدينة المنورة { غرة ربيع الثانى سنة ١٣٨٤ هـ
الموافق ٢٠ من أغسطس سنة ١٩٦٤ م

الانطلاقة الأولى

في اليوم العاشر من شهر ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ — الموافقة لسنة ١٢٦٣ م — ولد الإمام تقي الدين أبو العباس ابن تيمية ، واسمه : أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن عبد الله بن الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله — الحراني الحنبلي في بيت العلم والفضل ، ولد . . حيث موطن أجداده الكرام — بمدينة (حران[1]) الواقعة فيما بين النهرين — شمالي العراق — وكانت قاعدة قبيلة بني مضر ، وقد افتتحها العرب بقيادة القائد عياض بن غنم سنة ٦٣٩ هـ . وهي شهيرة برجال العلم والفلسفة ، وكانت في الزمان القديم أحد مراكز الثقافة اليونانية .

ولم يتركها آل تيمية إلا سنة ٦٦٧هـ — عندما زحف التتار عليها ، فرحلوا عنها ، وقصدوا بلاد الشام وأقاموا بدمشق ، وكان حاكمها يومها : الملك الأشرف موسى بن الملك العادل الأيوبي ، بينما أخوه الملك الكامل سلطان على مصر[2] .

هنا في دمشق — حيث استقر المقام بالأسرة المهاجرة — نشأ الصغير ابن تيمية ، وتلقى تعاليمه في رعاية أبويه ، وقد ظهرت عليه مخايل الذكاء وهو صبي .

حفظ القرآن مبكراً . . ثم درس علوم العربية والدين . . هنا تكوّن وتثقف وأتقن فهم أسرار كتاب الله وحديث رسوله عليه الصلاة والسلام ، هنا تهذب وتفقه وخاض في المذاهب الشتى ، وجاهد المنحرفين .

إن ابن تيمية سليل علماء . . وله من الإخوة اثنان — هما : شرف الدين عبد الله ، وزين الدين عبد الرحمن . . وللأول دور طيب في مجال العلم .

أما جده : فشيخ الإسلام مجد الدين عبد السلام بن عبد الله — ولد بحران سنة ٥٩٠هـ ، ودرس على عمه الخطيب فخر الدين ، وعلى غيره من رجالات العلم ، كما سافر إلى خارج وطنه يتزود العلوم المختلفة ، حتى يغدو الإمام المقرئ والنحوي والفقيه المحدث ، وقد قال

---

(١) حتى ذلك العهد كانت (حران) موطنا لفرقة الصابئة المشركة .

(٢) كان الملكان يميلان لمذهب الأشعرية ، وهو مذهب الدولة .

عنه حفيده — الإمام ابن تيمية — فيما يرويه العلامة شمس الدين الذهبى : (كان جدنا عجباً فى حفظ الأحاديث وسردها ، وحفظ مذاهب الناس بلا كلفة) .

وأبوه : شهاب الدين أبو أحمد عبد الحليم بن عبد السلام — ولد أيضاً بحران فى سنة ٦٢٧ هـ . وتلقى العلم على أبيه ومن عاصره . . ثم يصبح له شأنه فى الإفتاء والتدريس على المذهب الحنبلى ، وكان خطيباً للجمعة فى بعض المساجد ، وعُيِّن بعض الوقت شيخاً لدار الحديث البكرية بدمشق ، وبها توفى سنة ٦٨١ هـ .

وهناك عدد وافر فى أسرة ابن تيمية من العلماء الأجلاء . . وهم معروفون فى كتب التاريخ ، ولهم ذكرى حميدة فى مجالات العلم .

ومنهم — أحد أخوى الإمام ، ذلك الذى لم يعمر طويلا : وهو شرف الدين عبد الله بن عبد الحليم . ولد سنة ٦٩٦ هـ وتوفى سنة ٧٢٧ هـ . كان قد برع فى الفرائض والرياضيات والحديث ، وعرف بالورع والتقوى ، وقد درس هو أيضاً على مذهب الإمام ابن حنبل . . وابنته زينب — تثقفت علمياً وحدّثت هى كذلك — وتوفيت سنة ٧٩٩ هـ .

والإمام ابن تيمية يتمتّع بصفاء ذهنى وفكر ثاقب ، وروح مفطورة على حب المعرفة ، حتى ليروى أنه أفتى وابتدأ التدريس وهو فى العشرين من عمره ، وقد اشتهر بالذكاء والحافظة القوية ، كما عرف بالعفاف والتقوى والتقشف فى مأكله وملبسه وزهده حتى فى الزواج .

ومن صفاته الجسمية : طلعة مهيبة مع اعتدال فى القامة وامتلاء خفيف . . وهو نفاذ العينين ، أبيض البشرة ، شديد سواد شعر الرأس واللحية مع قليل من الشيب فى أواخر أيامه ، ويسيل شعر رأسه حتى شحمة أذنيه . . وفى صوته قوة وجهارة ، وفى لسانه جلاء وفصاحة .

ومن أهم مايتصف به الإمام فى فكره . . تحكيم العقل ، استناداً بالدين ، بالحجة القوية والجرأة للحق ، مما سبب له العديد من المشاكل فى أكثر مراحل حياته ، وأثار عليه السلطات الحاكمة ، وتعرض للسجن أكثر من مرة — وهو برىء . . لأنه يأبى إلا أن

يقاوم التحدى المضلِّل ، ولا يتراجع عن شيء من معتقداته لحساب التهاون فى أمر من أمور الدين . . بل كان يواصل جهده العلمى منتصراً لشرائع القرآن والسنة المحمدية . .

كان ذلك هو دأبه طوال سنى حياته التى عاشها ، وهى ٦٧ عاماً . . لم يتزوج ، ولم يشغل نفسه بغير العلم ، الذى تفرغ له بمجموعه ، يؤدى رسالته على أكمل الوجوه . . فكان من المؤمنين العاملين بعلمهم . . وكان من الأعلام الخالدين ، الذين اختص بهم التاريخ الإسلامى ، فدخلوا من أوسع أبوابه . . رضى الله تعالى عنه .

ويذكر المؤرخون عن سبب شهرة الأسرة بلقب (ابن تيمية) — على الأرجح — بأن جدهم ، وهو محمد بن الخضر — جاء إلى أداء نسك الحج بمكة ، وله امرأة حامل ، ومر فى طريقه على درب بلدة (تيماء) المعروفة بشمالىّ المدينة المنورة ، فرأى جارية طفلة قد خرجت من خبائها ، فلما رجع إلى وطنه (حران) وجد امرأته قد وضعت له بنتا ، ماكاد يراها حتى هتف بها : (يا تيمية يا تيمية) .. ومن يومها عرفت الأسرة بهذا اللقب ، الذى اشتهر به الإمام : أحمد — حتى إنه طغى على اسمه .

ولقد كان هو عفًّا بسيطاً فى حياته .. ينفق كل ما يصل إلى يده من مال على ذوى الحاجات ، وقد كان يأتيه مال لايحصى — كما يقول بعض المؤرخين — فلا يبقى منه على شيء ، وما كان ليرد أحداً طلب منه حاجة ، حتى إنه فى مرة لم تكن عنده فضلة مال ، وجاءه طالب رزق ، فما كان منه إلا أن خلع أحد ثوبيه وأعطاه إياه يبيعه ويقضى بثمنه حاجته . وهذا إحساس الإنسان المثالى ، الذى يحب لأخيه مايحب لنفسه . وليس بدعاً أن يصدر ذلك عن مثله .. وأن يكون هذا الرجل التقى المؤمن والعالم المفضال من الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . وقد سعد بما آتاه الله من نفس زكية ورفعة شأن ، وحسبه أن كانت حياته كلها كفاحاً فى سبيل العلم والحق ، ومن أجل رفعة الإسلام والدفاع عن شرائعه الصحيحة الثابتة .

(ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم المفلحون) صدق الله العظيم .

ومن ثم ، كانت انطلاقة إلى أرحب مجال .. إلى نور القداسات .. فكانت حياة إيمان ودعوة وإرشاد .. وكان الطريق إلى الذرى الشامخة .. فى بناء أقوى الصروح وأبقاها لبنى الإنسان ..

فيض النبع القدسى

فى دمشق الشامخة بدعائم العلم ، أكب الإمام ابن تيمية فى سنه المبكرة على طلب المعارف : يدرس التفسير والفقه وكتاب سيبويه ويتقنهم ، كما أتقن علوماً أخرى فيما بعد مما أثار عجب الكثيرين .

هنا تزود الطالب النبيه زاده الكبير ، وتفتحت له ينابيع المعرفة بوجوهها المختلفة .. وأقبل ينهل منها ماتاقت له نفسه الصافية ، وبحث عنه فكره الواسع .. يقطف ثمار العلوم الدينية من أصول ثبتها ، ويأخذ من أعلام الفكر ما يشبع هوايته ، ويدرس من الفنون مايهيئه لاستكمال ثقافته وعلمه ، حتى أحاط بها وبرّز فيها كأحد أبطالها ، وفاق معلميه . وقد تمكن من شق طريقه فيها بنهج قوى عجيب ، لم يسبق إليه ، وانتصر بعقله الواعى الجرىء على كل من ناوأه أو وقف ضده . وقيل عنه بأنه يغترف من بحر ، وغيره من الأئمة يغترفون من السواقى .. فقد شملت دراساته كل علوم عصره ، بل وقد نبغ فى معظمها ، واختص بالبحث فى الأمور الشرعية ، والرد على الملاحدة ، وتنوير الأذهان — بما جاء به دين الإسلام ، وأرشد إليه ، والدعوة إلى ما كان عليه السلف الصالح الذين هداهم الله لاتباع كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، بلا تعديل أو تفريط ..

لقد تشرب ابن تيمية — المبادئ القويمة من القرآن العظيم الذى استظهره وهو فتى ، وتفهم معجزه ومعانيه سنة بعد أخرى .. ومن صحيح الأحاديث النبوية الشريفة التى حفظها بإدراك لأسرارها وتفسيرها ومصادرها .. فكانت جل عنايته بأمور الدين الحنيف وحقائق أهدافه والمعتقدات الإسلامية السليمة من كل عبث أو تدجيل أو تبديل ..

لهذا فقد تفقه فى هذا الدين بما لاطائل بعده ، وجال فيما أراد بعض علماء المذاهب المتناقضة ، إدخاله فى أصوله ، من التمذهب والسفسطة ، ليرد عليهم ويسفه المعتقدات الخاطئة والمنافية لدين الإسلام ، وينير لهم الطريق إلى الحقيقة المجردة ، حيث لا زندقة ولا تشيع ولا تفلسف يدفع إلى الشك أو إلى الانحراف عن الصراط المستقيم .

فابن تيمية وقف كل لحظات حياته على طلب العلم من حيث هو، والتوسع فى أبوابه.. ويشهد له معاصروه بأنه لم ينس شيئاً حفظه من العلوم العديدة التى درسها ، وقيل إنه فاقهم وأصبح قدوتهم الحسنة وقدوة من جاء بعده .. ولقد اتخذ مكان والده ــ أول مادرّس فى تدريس المذهب الحنبلى ــ عند وفاته ــ وأصبح سيد هــذا المذهب وهو حَدَث ..

لقد عاصر ألوان الثقافات ، وتمرس بشتى المذاهب، وإذا به يجد الكثير من الزيغ ومن البدع ومن الحماقات الجاهلية .. فحمل نفسه على أن يجاهد للحق ويدافع عن حياض دين الله الخالد ، ولقد تعرض إلى ما يتعرض له كل مصلح يأتى لتقويم المعوج وتغيير عادات الناس السيئة ، وتجابهه الصيحات والانتقادات من كل صوب مخالف ..

إن ابن تيمية الثابت القدم فيما تفرغ له ، قد فرض مكانته العلمية عن جدارة ، فاتخذت لها فيما بعد ــ دور القيادة والتوعية والنقد والتوجيه .

ولقد عكف أيضاً على دراسة الفلسفة من أصولها منذ فلاسفة اليونان والقدماء . . وكان يقارن بين قطبيها : أفلاطون وأرسطو، كما درس الفلسفة الإسلامية ومناهج أصحابها بدقة وتمحيص .. وكتب فى الرد على منطق اليونان ، كما نقد ابن سينا والفارابى ، واستشهد بأقوال ابن رشد[1] حتى فى رده على أهل الكلام ..

وهذا هو سبيله فى الخوض فى أى مجال يتحدث فيه ، أن يتقن دراسته ويتفهم أسراره ودواعيه .. ثم يتكلم بما يجب وبما ينفع للبقاء ..

ولا يستكثر على ابن تيمية ماقد بلغه من نبوغ واعتداد بأوجه ثقافته وسعة علمه : وله من المكانة والاستعداد ما ذكرنا .. وهو قد نشأ فى بيت له جذور عميقة فى العلم وله فروع عريضة فى نشر هذا العلم والدعوة إلى الحياة الأفضل ، وللتخلص من العادات الدخيلة ..

كان يفسر القرآن الكريم فى الجامع من حفظه صباح كل جمعة ، فلا يتلعثم أو يتوقف

---

(١) هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد ، ولد فى قرطبة سنة ٥٢٠ هـ ، وتوفى سنة ٥٩٥ هـ .

ويقول تلميذه الفقيه اللغوى العلامة ابن الوردى[1] عن ذلك : (وأما التفسير فسلم إليه ، وله فى استحضار الآيات للاستدلال بها قوة عجيبة . ولفرط إمامته فى التفسير وعظمة اطلاعه بيَّن خطأ كثير من أقوال المفسرين . .) إلى أن يقول : (وله معرفة برواة الحديث وطبقاتهم ، كما أنه يحفظ متونه وما يصح منه وما هو دخيل أو ضعيف) .

أصبح لابن تيمية من الشأن فى الفنون العلمية والدينية مالفت إليه الأنظار — خاصة كبار الفضلاء والمفكرين والفقهاء ، وقد كتب عنه المؤرخ العلامة الذهبى[2] يقول : (وفاق الناس فى معرفة الفقه واختلاف المذاهب وفتاوى الصحابة والتابعين ، بحيث إذا أفتى لم يلتزم بمذهب ، بل يقول بما عنده ، ونظر فى العقليات وعرف آراء المتكلمين ورد عليهم ونبه على خطئهم وحذر منهم ، ونصر السنة بأوضح حجج وأبهر البراهين . وأوذى فى ذات الله من المخالفين ، وأخيف فى نشر السنة المحضة ، حتى أعلى الله مناره وجمع قلوب أهل التقوى على محبته والدعاء له وكبت أعداءه ، وهدَى به رجالا من أهل الملل والنحل) .

وهذا كله نستنتجه من كتب الإمام وجهاده العظيم .. فابن تيمية قد أصاب خيراً كبيراً بما وصل إليه من كمال علمى وانتصار روحى ..

وهذى نتيجة حتمية للسعى المخلص إلى النبع الصافى المقدس ، وقد قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « من يرد الله به خيراً يفقّهه فى الدين » .

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى أسماء بعض من أخذ عنهم الإمام ، وقد تجاوز شيوخه المائتين — كما يروى المؤرخون — فأفاد منهم فى دراساته الأولى الكثير ، وفيهم من عاصروه ومن سبقوه ببعض الوقت : مثل — المجد بن عساكر ، المتوفى سنة ٥٧١ هـ . والمؤرخ ابن الأثير (ت ٦٢٠) . والشيخ ابن صلاح (ت ٦٤٣) . والعلامة

---

(١) من تلاميذ الإمام — واسمه زين الدين عمر بن الوردى ، ولد بمعرة النعمان سنة ٦٩٨ هـ . وتوفى بحلب مطعونا — سنة ٧٤٩ هـ .

(٢) هو شمس الدين التركمانى الذهبى ، ولد بدمشق سنة ٦٧٢ هـ وتوفى سنة ٧٤٨ هـ .

عز الدين بن عبد السلام[١] (ت ٦٢٠) . ومحيي الدين النووى (ت ٦٧٦) والقاضى ابن دقيق العيد المتوفى سنة ٧٠٢ هـ ، قاضى مصر ، الذى كتب عن الإمام فى مؤلفاته يثنى عليه ويغبطه على حسن توفيقه ويذكر أفضاله التى أشاد بها الكثيرون .

ومن تلامذة الإمام الكبار ابن قيم الجوزية[٢] — العالم الذى طبقت شهرته الآفاق ، والحافظ المحقق أبى عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادى ، وقد وضع عن الإمام كتابه المشهور (العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية) حيث أرخ له وذكر عديداً من الأحداث التى مرت به .. وجميل بنا أن نستشهد هنا بطرفة بديعة مما جاء فى هذا الكتاب عن حياة الإمام العلمية فى مبدئها ، ومنها نعرف أن الإمام كان يقول الشعر فى مطلع حياته ، ويتفنّن فى بديعه — وهو دون العشرين .

وقد نظم قصيدة فى نحو مائة بيت — فى حل لغز لاسم ، نظمه الشيخ العلامة رشيد الدين أبو حفص عمر بن مسعود الفارقى . قال فى مطلعها :

(ما اسمٌ ثلاثىّ الحروف فثلثه مثلٌ له ، والثلث ضعف جميعِهِ
والثلث فيه جوهرٌ حلّت به الـ أعراض جمعاً ، فاعجبوا لبديعه
وهو المثلث ، جِـذْرُه مثل له وإذا يُرَبَّع بانَ فى تربيعِهِ)

فقال الإمام ابن تيمية فى قصيدته الجوابية الظريفة :

(العلم لفظٌ ذو ثلاثة أحرف وهجاء كلٍّ ، مِثْلَمَا مجموعِهِ
فإذا يكون مركباً من تسعة جذراً لها ، فانظرْ إلى تربيعه

---

(١) يروى عن العلامة عن عز الدين هذا أنه كانت له مهابة كبيرة فى نفوس الحكام ، حتى إنه لما مات ومرت جنازته أمام قصر الملك الظاهر بيبرس ، ورأى أمواج الناس تتدفق حولها قال لبعض خاصته : (اليوم استقر أمرى فى الملك ، لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس : اخرجوا عليه لانتزع الملك منى) .. وهذا من عظمة العلم وفعالية رجاله .

(٢) هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن بكر بن أيوب بن سعد ، الزرعى ، فالدمشقى ، ولد سنة ٦٩١ هـ وتوفى سنة ٧٥١ هـ . لازم الإمام وأخذ عنه ، ومن مؤلفاته الكبار : (زاد المعاد ، أعلام الموقعين عن رب العالمين ، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ، كتاب الروح ، نقد المنقول ، الكلم الطيب وزاد المسافرين) ، وغيرها . وله قصيدة نونية شهيرة ضمنها العقيدة الإسلامية والرد على الملحدين ، وسنورد بعض أبيات منها فى مكان آخر .

ومربعاً ساواه جــذرُ حسابِهِ ومثلثا بحــدودِهِ وضــلوعِهِ
ويكون أثلاثا ، فثلثٌ مثلهُ هو : لامُهُ ، إن خضْت فى توزيعه
والميم فى الجمل الصغير حسابُهُ عشرون ، هذا الثلث ضعف جميعه
والثلث عينٌ ، عين كلٍّ ، ذاتهُ هو جوهرٌ ، والوصف فى موضوعه
إن كانت الأعيان قائمة بها الـ أَعراض جمعاً ، فافطنوا لجموعه
حكمٌ يخص العين حرفاً واحداً من بين جنس الحرف فى تنويعه
هو تسعةٌ فى أصله والعالم الـ علوى منــه تسعةٌ برقيعــه
العرش والـكرسىّ والسبع السـ ماوات الطّباق ، فالإسم جزء رفيعه
من عالم الملـكوت ، أعنى الغيب إذ عنه كــنِّى لعلو شأن صنيعِهِ)

وفى مجال العلم هذا ننتقل إلى باب آخر .. إذْ نظم الإمام قصيدة عامرة أخرى فى ١٢٦ بيتاً رداً على قصيدة احتوت على سؤال فى القدر .. قال الإمام فى مطلع قصيدته :

(سؤالك يا هذا سؤال معاند مخاصم ربّ العرش ، بارى البريَّةِ

وفيها يقول : قصيدته الآتية : (من بحر الطّويل) :

(وأصل ضلال الخلق من كل فرقةٍ هو الخوضُ فى فعل الإله بعلَّةِ
فإنّهمو لم يفهمــوا حكمةً له فصاروا على نوعٍ من الجاهليّةِ
فإن جميع الـكون أوجب فعله مشيئة ربّ الخلق بارى الخليقةِ)

ثم يقول :

(فقَوْلكَ : لِمْ شاءَ ؟ مثْل سؤالِ منْ يقول : فـلِمْ قدكان فى الأزليَّةِ
وذاك سؤال يبطل العقل وجهه وتحريمه ، نَصٌّ ، بكلّ)شريعةِ

إلى أن يقول :

(ولا مخرجٌ للعبد عما به قضَى ولـكنّه مختارُ حُسْنٍ وَسَوْأَةِ
فليس بمجبور عديم الإرادةِ ولـكنّه شاءَ ، بِخَلْق الإرادةِ)

وبنفس هذه الفذلـكة التحليلية التى يستخدمها الإمام فى بحوثه العلمية المختلفة

— كان جولانه فى تفسير معانى القدر ، وما تداخلت مفاهيمه من آراء أو اعتقادات متضاربة ، وصححها كعادته ، وأرشد إلى مايجب اتباعه تمشياً مع إرادة الله ووحى تعاليم ديننا الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

من هذا النبع المطهر ، أخذ الرجل الكبير ينهل ويستعذب الرّىّ المقدس .. ثم يفيض ، بعد أن تمازجت فى صدره الغراس بما تفاعل فى عقله من ثمار السعى والجَهْد المتواصل .. فكان هذا الفيض الأقدس الذى أراح يدفعه الإمام والزعيم الإسلامى ابن تيمية — إلى الوجود .. والتاريخ يتلقاه فى إجلال واحترام عظيمين :

يهدى الله لنوره من يشاء ..

نبضات عصره

عاش الإمام ابن تيمية حياته — ناشئاً ومناضلا — فى عهد دولة المماليك التى كانت تحكم (الديار المصرية والبلاد الشامية والديار البكرية والحجازية واليمنية والفراتية ومايتجدد من الفتوحات غوراً ونجداً) ، كما جاء فى الفرمان الصادر فى ١٣ من جمادى الأولى سنة ٦٥٩ ه من الخليفة الأمير العباسى ، بتقليد السلطنة للظاهر بيبرس ، الذى أصبح ملكاً على كل هذه البلاد — شمالا وجنوباً — وقد أخضعها بسياسته ودهائه البعيد الغور ، وأحيا الخلافة العباسية فى مصر ، بعد أن سحقتها فلول التتار الغازية[1] فى بغداد ، فى أثناء زحفهم على الشرق ليحكموه بالقوة ، وتدميرهم للممالك التى مروا بها فى جنون ووحشية لم يشهد لها التاريخ مثيلا .. إذ كانت سياستهم العشواء : (اقتل . دمّر) لاتقف عند حد ، حيث لاوازع من دين أو ضمير أو حتى إنسانية .. وقد استولوا على بلاد شمالى الجزيرة العربية إلى أن تمركزوا فى الشام وحدود البحر المتوسط ، وهمّوا بغزو مصر : التى كانت قد خرجت منتصرة فى مقاومة جيوش الصليبيين وهزمتها بقيادة الظاهر بيبرس سنة ٦٤٨ ه .

ثم جرت أحداث ، اتحدت بعدها الجيوش الشامية والمصرية فى (موقعة عين جالوت) لقتال التتار سنة ٦٥٨ ه بقيادة كل من البطلين : الظاهر بيبرس وسيف الدين قطز — الحاكم السابق — الذى نادى فى المعركة بأعلى صوته : (وا إسلاماه — ثلاثا — يا ألله انصر عبدك قطز على التتار) يشد من عزم الجند ، وحمل بنفسه معهم ، حتى قيض الله لهم النصر المؤزر ، بهزيمة منكرة لهذا العدو الغازى ، وأجلوهم عن الشام ، ثم تتبعوهم إلى العراق وقضوا على حصونهم ومراكزهم .. ولقد أقام الظاهر بيبرس[1] فيما بعد عندما

(١) التتار : هم فريق من مغول فارس ، وبلادهم تمتد من أطراف الصين إلى أواسط آسيا ، وملكهم (جنكيزخان) الشره للتدمير والدماء . وديانتهم السجود للشمس والإباحية المطلقة فى كل أمور حياتهم الهمجية . . قاد حملتهم المدمرة (هولاكو) للاستيلاء على بلاد العرب . وقد نكسوا — بعد أن عبثوا بمقدراتها زمنا — وأنقذها الله منهم بما هيأه للمسلمين من وحدة الكلمة والصف.

(٢) توفى بدمشق يوم ٢٨ من محرم سنة ٦٧٦ ه بعد أن جاوز الخمسين من عمره ، وممن رثوه الشيخ محي الدين بن عبد الظاهر ، الذى قال قصيدة قوية منها هذا البيت :

(لهفى على الملك الذى كانت به الدنيا تطيب ، فكل قفر منزل)

أصبح سلطانا على مصر سنة ٦٦٠ هـ — أقام نصبا باسم (مشهد النصر) فى نفس الساحة التى دارت بها رحى معركة عين جالوت الفاصلة.

وانتصر الجيش الإسلامى على تجار الحروب والبغى من التتار الذين لم يبق منهم إلا طوائف هنا وهناك ينتشرون على الأخص فى بعض مدن الشام ، وكلما هموا بشرّ لحق بهم العقاب ، وقد فنى منهم الكثير ، حتى أسلم البعض ، وزال البعض الآخر بمرور الأيام .

ولقد كان للإمام ابن تيمية دور فعال فى التحريض على مقاومة فلولهم الباغية وفساد عقائدهم وعبثهم سنة ٧٠٠ هـ . واشترك هو بنفسه فى قتالهم مما سنذكره فى فصل تال من كتابنا .

ومن كلام الإمام فى كتابه (الفرقان) نتبين تلك الحال المتدهورة وأسبابها الأليمة فى ذلك العصر القُلَّب — حيث يقول : (فلما ظهر النفاق والبدع والفجور المخالف لدين الرسول . سلطت عليهم الأعداء ، فخرجت الروم النصارى إلى الشام والجزيرة مرة بعد مرة ، وأخذوا الثغور الشامية شيئاً بعد شيء إلى أن أخذوا بيت المقدس فى أوائل المائة الخامسة ، وبعد هذا بمدة حاصروا دمشق ، وكان أهل الشام بأسوإ حال بين الكفار النصارى والمنافقين الملاحدة) .

هكذا يستنتج الإمام لما أصاب الشرق المسلم ، إذْ لو كان المسلمون مستمسكين بقواهم الروحية وعقائدهم الصحيحة لما استطاع ذلك التسلط الأجنبى الغادر أن يجد لهم سبيلا أو يستهين بمقوّماتهم .

وقد كانت حياة الإمام فيما بين القرنين السابع والثامن الهجرى : القرنين اللذين ازدهر فيهما الفكر العربى ، بل على الأصح ، وُجد فيهما ما كانت المذاهب المتنوعة قد انتهت إليه ، وكانت على امتداد ستة قرون تتطور وتتغاير وتنشأ من بينها مذاهب أخرى ، حتى تأتّى من ورائها صراع طويل متشعب الجوانب ، ولا يهدف إلا إلى أن تتسع شقة الخلاف بين مختلف الأقطاب والبيئات والآراء مما سنعرفه فى مكان آخر .

لقد بلغ العلم فى هذا العصر غايته من الانتشار والتنوع فى ألوان الثقافات والفنون والمعارف ، مع تيسير وسائله لرواده وسالكيه والذيوع العام ، وقد تفتّح عن فيض من الثروات العلمية والفكرية : حيث اجتمعت فيه علوم الدين وعلوم الحياة على أوسع نطاق .. من دراسة القرآن ومعجزه وتفسيره ، إلى السنة النبوية والفقه واللغة والنحو . إلى التاريخ ودراسة الأعلام وطبقاتهم .. إلى الفلسفة وعلمى الهيئة والفلك والهندسة والرياضيات والطب نظرياً وعملياً .. وكانت فى القاهرة ودمشق وحلب مدارس خاصة للطب .

هذا إلى جانب تعدد المذاهب والاتجاهات فى الفكر والعلم والدين - ويعتبر هذا العصر بحق عصر المؤلفات المطولة والموسوعات الجامعة فى معظم تلك العلوم المتنوعة .

غير أنه على الرغم من كثرة المعارف والنشاط العلمى الأصيل لم يكن هناك حظ كبير للأصالة الفكرية والابتكار فى الآراء تتميز به ، إلا نفرٌ قليل ، على رأسهم علامتنا الجليل الشيخ ابن تيمية .

وإن كان لكثرة قيام المدارس المذهبية فى هذا العهد آثارٌ طيبة ومثمرة فى كثير من النواحى ، فقد كان لها أيضاً أَثَرٌ لانغالى إذا قلنا إنه كان سيئاً .. حيث أوجدت — هذه المدارس — العصبيات بين العلماء والفقهاء .. وتخالفت نظرياتهم ، وتشعبت خلافاتهم مما تسبب فى حملاتهم على بعضهم البعض وتسفيه أفكارهم .. لأن بعض تلك المدارس تتخصص فى علم واحد وتأخذ بمذهب معين . فكل فئة منهم ترى أنها تتميز على الأخرى وأنها تنتهج جانب الصواب — لما تضطلع به من علوم مغايرة ، فتنافسها إلى حد الإثارة والتباغض .

ولم يكن فى هذه الحزبيات والخلافات دافع للإصلاح أو ميل إلى إقرار حقيقة نافعة قد تغيب عن آخرين .. ولكنها تعمد عن قصد وعن غير قصد إلى الجدل والتنافس وإلى التظاهر بالتفوق ، كما يحدث عادة بين كل أصحاب المذاهب والمبادئ المناوئة لبعضها البعض .

ولقد مرت قبل هذه الفترة من حياة الإمام ابن تيمية، غير المذاهب الفقهية الشرعية الأربعة . مذاهب متضاربة متشعبة وبوجهات مختلفة فى مفهوم الشرائع . . حدثت فيها الاختلافات الكبيرة : أفكارا ومعتقدات .. وعرفنا ماقام من صراع طويل بين هذه المذاهب : الشيعة والخوارج مع ابن حزم[1] ، وما حدث بين المعتزلة والأشاعرة ، وانقسامات غيرهم ، وبين أهل السنة وأهل الرأى ، وما جرى بين الفلاسفة والمتصوفة وبين علماء الفقه والكلام من أمور ، عالجها أدباء ومفكرون ، وأرخوا لها وأوضحوا دعاواها ومتناقضاتها .. وما زالت فى كل عصر — وإلى يومنا — مثار نقاش وبحث ودراسة من الدارسين ومحبي المعرفة وروادها .. وفيهم المتعصب لرأى معين ، أو المخالف أو المتفق مع من يدرس فى نظرياته وآرائه .

ولا يفوتنا أن نلقى الضوء على بعض قادة الفكر والعلم والمؤلفين فى خلال القرنين السادس والسابع الهجريين — لنرى شواهد عملاقة لما قلنا ، من ذلك العهد الذى عاش فيه الإمام ابن تيمية ، عصر التأليف والموسوعات الأدبية والعلمية والمختلفة الاتجاهات .. فنجد — غير من ورد ذكره فى كتابنا وعرفنا به فى مكانه — من الأعلام :

العلامة الفقيه أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى ، بخراسان ، حيث ولد سنة ٦٤٧ هـ ولكنه مكث فى بغداد عدة سنوات ، ومن مؤلفاته : كتابه الشهير — (الملل والنحل) الذى عرض فيه المذاهب الدينية والفلسفية قبل مجيء الإسلام وبعده ، وقد توفى سنة ٥٤٨ هـ .

العلامة كمال الدين الأنبارى المتوفى عام ٥٧٧ هـ ، ومن كتبه : (نزهة الألبّاء فى طبقات الأدباء ، والإنصاف فى مسائل الخلاف — فى النحو) .

العلامة ابن طفيل — أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد القيسى ، ولد سنة ٥٠٠ هـ وهو صاحب القصة الشهيرة (حى بن يقظان) ، وقد توفى بمراكش سنة ٥٨١ هـ .

---

(١) هو أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم — ولد فى قرطبة سنة ٣٨٤ هـ — كان عالما لغويا ومؤرخا ومفكرا أديبا . من مؤلفاته (طوق الحمامة ، جمهرة أنساب العرب ، التقريب لحدود المنطق) — توفى سنة ٤٥٦ هـ .

العلامة الواعظ المحدث أبو الفرج ابن الجوزى الحنبلى، ولد بالعراق ، ومن مؤلفاته : (زاد المسير فى علم التفسير ، والمنتظم فى تاريخ الأمم ، وجامع الأسانيد والألقاب فى الحديث ومناقب عمر بن الخطاب ، ومناقب عمر بن عبد العزيز ، ومناقب أحمد بن حنبل) ، وكانت وفاته سنة ٥٩٧ هـ .

العلامة فخر الدين أبو عبد الله بن محمد بن عمر الرازى — المعروف بابن خطيب الرىّ ، ولد سنة ٥٤٣ هـ ، ومن كتبه : (المحصول من علم الأصول ، وشرح عيون الحكمة ، ومفاتيح الغيب — تفسير القرآن الكريم فى اثنى عشر جزءاً ، وتأسيس التقديس ، ومباحث الوجود والعدم ، وفضائل الصحابة الراشدين ، وإبطال القياس ، والجامع الكبير فى الطب ، وشرح مصادرات إقليدس ، والقضاء والقدر ، ومناقب الإمام الأعظم الشافعى) ، وقد توفى سنة ٦٠٦ هـ .

العلامة المؤرخ أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى ، ولد سنة ٥٧٤ هـ ، ومن مؤلفاته : (موسوعتى : معجم الأدباء ، ومعجم البلدان) ، وهو من وفيات سنة ٦٢٦ هـ .

العلامة المؤرخ النسابة أبو الحسن على بن محمد عز الدين الجزرى ، ولد سنة ٥٥٥ هـ بالعراق ، ومن مؤلفاته : (أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، والكامل فى التاريخ) ، وقد توفى بالبصرة سنة ٦٢٨ هـ .

العلامة ابن اللباد — موفّق الدين أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف البغدادى ، من مؤلفاته : (الحكمة العلية — فى العلم الإلهى ، ومقالة فى النهاية واللانهاية ، كتاب ديابيطس والأدوية النافعة منه ، والكتاب الجامع الكبير — فى المنطق والعلم الطبيعى والإلهى — فى عشرين مجلداً ، ومقالتان فى المدينة الفاضلة ، وشرح كتاب الفصول لأبقراط ، ومقالة فى الرد على ابن الهيثم فى المكان ، كتاب فى آلات التنفس وأفعالها ، اختصار كتاب الحيوان لأرسطو) ، وقد توفى سنة ٦٢٩ هـ .

العلامة الناقد الأديب ضياء الدين بن الأثير ، من كتبه : (المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر) ، وهو من وفيات عام ٦٣٧ هـ .

العلامة أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم — الشهير بالأعلم البطليوسى — من الأندلس ، نذكر من كتبه : (آداب أهل بطليوس ، وله شروح على الكامل للمبرد ، وكتاب الأمالى للقالى ، والجمل للزجاج) ، وقد توفى سنة ٦٣٧ ﻫ أيضا .

العلامة القاضى الأديب جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف القفطى ، من مواليد مصر سنة ٥٦٨ ﻫ ، ومن مؤلفاته : (إخبار العلماء بأخبار الحكماء) ، وتوفى سنة ٦٤٦ﻫ.

العلامة أبو يحيى زكريا بن محمد القزوينى ، من كتبه : (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، وكتاب عجائب البلدان) ، وقد توفى سنة ٦٧٢ ﻫ .

العلامة موفّق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم — المعروف بابن أبى أصيبعة ، اشتغل بالطب إلى جانب العلم . ومن مؤلفاته : (عيون الأنباء فى طبقات الأطباء) — ترجم فيه لكبار أطباء العالم ، منذ بدأ الطب حتى عصره ، فى المشرق والمغرب ، وأوضح جليل أعمالهم وأسماء كتبهم ، وقد توفى سنة ٦٦٨ ﻫ .

العلامة أبو الحسن علاء الدين على بن أبى الحزم القرشى — المعروف بابن النفيس ، ولد سنة ٦٠٧ ﻫ بالقرب من دمشق ، وبها تثقف ودرس الطب أيضاً ، ثم رحل إلى القاهرة وعمل بها ، فهو فقيه ولغوى وطبيب .. ومن مؤلفاته : (المختار من الأغذية ، وتفسير العلل وأسباب الأمراض ، والكتاب الشامل فى الطب ، وشرح قانون ابن سينا ، وشرح فصول أبقراط) وغيره ، ويروى أن له مجموعة ضخمة من الكتب فقد معظمها ، وقد توفى بمصر سنة ٦٨٦ ﻫ .

العلامة جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم — المعروف بابن المنظور ، له مؤلفات عديدة فى التاريخ والأدب واللغة ، ومنها : (المعجم اللغوى الشهير : لسان العرب) ، وقد توفى سنة ٧١١ ﻫ .

العلامة شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عبد الوهاب — المعروف بالنويرى ، وصاحب كتاب (نهاية الأرب فى فنون العرب) ، وقد توفى سنة ٧٣٢ ﻫ .

العلامة المؤرخ إسماعيل بن على — المعروف بالملك المؤيد أبى الفداء ، ومن مؤلفاته : (المختصر فى أخبار البشر) ، وقد توفى سنة ٧٣٢ ﻫ أيضاً .

أولاء هم بعض أعلام تلك الفترة النابضة بحياة العلم والأدب والفنون المختلفة التى ازدهرت فى عصر إمامنا صاحب الترجمة — رحمة الله عليه ..

ومن غير شك فإنه — أى الإمام ابن تيمية — قد أفاد من هذا الوسط الزاخر بالعلوم الطائلة ومفاهيم المعارف المتنوعة أكثر مما أفاد معاصروه ، لأنه كان قد جنّد نفسه لأكبر مما يضمرون أو يعرفون ، ولشغفه هو بالعلم شغفاً ملك عليه كل حواسه ، فأحب التزود من كل فن .. فإذا هو حقيقة نورانيّة تشع دائماً — وإذا هو عقلية متفتحة وذهن لمّاح وذاكرة واعية يحسد عليها .

وإذا هو أيضاً رمز ذلك العصر وعظمته .. بل هو قمّته العلمية التى يُزهَى بها على من سيأتى فى عصور ، بعده .. وهذا حسبه .



صور من جهاده

كان الإمام ابن تيمية من دعاة الجهاد فى سبيل الله ، والحض على صون وحماية الوطن وإنقاذه من براثن أعدائه وأعداء الدين .. وهو يعتقد فى هذا الجهاد أنه من أعظم مايتقرب به المؤمن إلى الله تعالى .. وهو المعروف بورعه وصلاحه وعمله الدائب بشعائر الدين ولها فى كل زمان ومكان ..

إنه فى اعتقاده الصادق بالجهاد ، إنما ينظر بعمق إلى ماجاء فى حديث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، القائل : (انتدب الله عز وجلّ لمن خرج فى سبيله لايخرجه إلا إيمان بى وتصديق برسلى ، أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة أو أدخله الجنة ، ولولا أن أشق على أمّتى ماقعدتُ خلف سرية ، ولوددت أنى أُقتل فى سبيل الله ثم أحيا ثم أُقتل ثم أحيا ثم أُقتل) .

كانت هناك فى الشام بقايا من التتار مازالت تعبث فى بعض البلاد .. ترهب الناس وتهدد أمنهم ، وكان يحكمها آنذاك الملك (غازان[1]) . . فنرى الإمام ابن تيمية يهب بإيمانه وقوة عزيمته ، ويتحدث إلى الأمة — يذكى الروح الدينية والوطنية فيها ، ويدعوها — وهو يهيب بالحكام والملوك لتلبية داعى الحق والجهاد .

بل إنه لم يكتف بهذا ، فذهب بنفسه سنة ٦٩٩ هـ إلى مقابلة ملك التتار غازان ، — كما يجمع المؤرخون — ومعه وفد من كبار أهل الشام .. وتحدث إليه بشجاعة وكبرياء ، مذكِّراً إياه بما يرتكبه التتار من الإرهاب والأعمال السيئة .. ثم يتوعَّدهم وينذرهم حتى لايعود شرهم إلى الامتداد مرة أخرى .. وعن ذلك كتب القاضى شهاب الدين أبو العباس أحمد بن فضل الله ، وصفاً حيًّا لهذا اللقاء ، بعد أن ترجم للشيخ ابن تيمية فى تاريخ ابن الوردى . قال : (جلس الشيخ إلى السلطان غازان حيث تجم الأسود فى آجامها ، وتسقط القلوب داخل أجسامها ، خوفاً من ذلك السبع المغتال والنمرود المحتال والأجل الذى لايدفع إلا بحيلة محتال ، جلس إليه وأومأ بيده إلى صدره وواجهه ودرأ فى نحره .

---

(١) سلطان المغول — وقد أسلم ، وسمى باسم (محمود) وكان حكمه بين عامى ٦٩٤ — ٧٠٢ هـ.

وطلب منه ذلك الدعاء ، فرفع يديه ودعا عليه دعاء منصف أكثرُهُ عليه ، وغازان يؤمن على دعائه) .. ومعروف أن الحديث كان يدور بينهما بوساطة مترجم لكلام الطرفين .

وفى شوال سنة ٧٠٠ هـ قاد الإمام ابن تيمية بنفسه حملة تأديبية ضد فرق ضالة كانت تنحاز إلى التتار وتقبل بمبادئهم الفاسدة ، وهى بالقرب من جبال الجرد وكروان .. غير أن الجيش المسلم عند مادخل بلادهم ، أقبل رؤساؤهم إلى الأمام نادمين معتذرين ، واستمعوا إليه يعظهم ويبين لهم الطريق السوىّ للمسلمين ، فوعدوه بالرجوع إلى صحة العقيدة والأخذ بالسنّة ، ولم يتركهم حتى استتابهم ، وهو يدعو لهم بالهداية والتوفيق .. فكان هذا انتصاراً للحق وخيراً كبيراً لهم .. ومن عاد فينتقم الله منه .

كما أن الإمام أشار بمقاتلة طائفة (النصيرية) الزائفة والمتمركزة بجبال الدروز جنوبى الشام .. وقد اشترك أيضاً الإمام بنفسه فى الحملة عليها ومحاربتها حتى خضعت للتوبة ، وكانت تتظاهر بالإسلام وتُبطِن الإلحاد .. وقد أصدر الإمام فتوى شرعية بقتال أمثالها من المتشيعين والمارقين عن صراط الحق وشريعة الدين الحنيف .

فى نفس العام ٧٠٠ هـ أيضاً اشتد تزايد خطر فرق التتار على الشام ، وأصاب الناس الفزع منهم وساءت أحوالهم .. وفى هذه الظروف — بل على التحديد فى أوائل جمادى الأولى — نرى الإمام ابن تيمية يتقدم ويدخل على نائب الحاكم بالشام يتذاكر معه فى شأن هؤلاء البغاة من التتار ، ويبث فيه العزيمة على صدهم ، ثم يتوجه إلى الناس والجند يدعوهم إلى توحيد القوى والتماسك والجهاد فى سبيل الله والوطن ، وقد أمضى ليلته تلك بين الجنود ، يعدهم بنصر الله الذى يؤيد جنده وينصر أحزابه المؤمنين المجاهدين .

ولقد ارتأى القوم ونائب الحاكم آنذاك — أن يسير الإمام بشخصه إلى مصر لدعوة حاكمها إلى العون الفعال والسريع لتخليص البلاد من أعدائها ، وإنقاذ إخوانهم فى الدين والوطن من شر التتار المتفاقم .

فسافر الإمام إلى القاهرة ، وتكلم بصراحته المعهودة أمام السلطان .. وكان مما دعاه به قوله : (لو قدر أنكم لستم حكام الشام ولا ملوكه ، واستنصركم أهله وجب عليكم

النصر ، فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه ، وهم رعاياكم وأنتم مسئولون عنهم) ..

والمؤرخ ابن رجب يذكر عن هذه المقابلة ، ويضيف بأن الإمام وهو يستنهض السلطان ويدعوه للجهاد — يذكره بقول الله تعالى : (إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضرُّوه شيئاً) .

وقد أُعجِب القاضى العلامة تقى الدين بن دقيق العيد — بجملة أقوال الإمام الجريئة فى حضرة الملك الشاب ، ثم ربطته به (زَمالة) العلم فيما بعد ، وأصبح من مؤيديه والداعين بدعوته الإصلاحية المضيئة .

وأرسل الملك الناصر محمد بن المنصور قلاوون[1] — بجيش وعتاد لنصرة أهالى الشام الذين أخضعوا التتار ، وقدر لهذه البلاد النصر عليهم ، ولكن كان إلى أجل .. إذ أن هؤلاء العابثين ، لايلبثون إذا ماوجدوا الفرصة — أن ينشطوا ويستعيدوا قواهم وسيرتهم للإغارة والطمع فى فرض السيطرة على أى وجه .

ويحدثنا التاريخ عن موقعة (شقحب) التى جند فيها التتار فلولهم سنة ٧٠٢ هـ وفى شهر رمضان بالذات ، تجاه المقاومة العربية المسلمة من عسكر الشام ومصر الموحَّد . وقد حضر هذه الموقعة الإمام ابن تيمية ، وشارك فى القتال بالسيف مع نفر من أصحابه ومريديه ، وهو يشجع الجنود ويدعو لهم بنصر الله الذى وعد به المجاهدين فى سبيله صفاً لرفع راية الإيمان ، وهزيمة أهل الشرك والضلال .

وعن هذا يروى ابن كثير المؤرخ — بأن سلطان مصر حضر مع الجند فى هذه الموقعة ،

---

(١) يحدثنا التاريخ عن تلك الفترة، فى أوائل سنة ٦٩٣ هـ عندما قتل حاكم مصر الملك الأشرف بن المنصور ، وتولى الحكم أخوه محمد بن المنصور (الملك الناصر) وعمره ١٢ سنة ، نخلعه حاجب دمشق زين الدين كتبغا المنصورى الذى سمى نفسه الملك العادل . وتولى الحكم فى ١١ من محرم سنة ٦٩٤ هـ وهو فى الخمسين من عمره ، وكان يلازم الإمام ابن تيمية فى أكثر مجالسه ، وفى عهده كان نائبه على دمشق الأمير سيف الدين غولو العادلى ، وقد عين فيها سنة ٦٩٦ هـ الشيخ إمام الدين القزوينى قاضيا فرح به الناس ، ومدحه الشعراء وهم يذكرون أحوال البلاد المستقرة ، وقال أحدهم فى مطلع قصيدته :

تبدلت الأيام من بعد عسرها يسرا   فأضحت ثغور الشام تفتر بالبشرى

ولم يمكث الملك العادل طويلا، إذ أعيد الحكم إلى الملك الناصر سنة ٦٩٦ هـ أيضا : وكانت وفاة العادل هذا فى ١٠ من شوال سنة ٧٢١ هـ .

وطلب من الإمام أن يقف معه ، فرد عليه بقوله : (إن السنة أن يقف الرجل تحت راية قومه ، ونحن من جيش الشام لانقف إلا معهم) .

ثم كان انتصاراً فرح به المسلمون ، وراحوا يهنئون الإمام لما أصابوا من فتح ورفعة شأن ، على الفئة الباغية التى اندحرت وانكسرت شوكتها إلى الأبد .

ومن جهاد الإمام فى تصحيح قواعد المجتمع — وهو يسعى لإقرار المثل العليا — نذكر أنه قبل هذا الزمن بنحو ثلاثة أعوام، أى فى ١٧ من رجب سنة ٦٩٩ هـ نفذ الإمام عزمه على القضاء على آلات الشرب المحرم ، فخرج بنفسه مع بعض رفاقه ، يدورون على الحانات ومحالّ الخمور ، يريقونها ويكسرون آنيتها ، بل ويعزرون أصحابها .

وقد اغتبط الناس لهذا الصنيع فى درء المحرمات ومقاومة مصادرها .. غير أن بعض الحاقدين وشانئ الإمام ، تشكوا منه لإقامة الحدود وتعزيره أصحاب الحانات وشاربى الخمر .. ولكنه ينتصر عليهم بالحق ، ويخسرون بتحدياتهم . فالحلال بيِّن والحرام بيِّن .

كذلك نذكر أنه فى يوم من شهر رجب سنة ٧٠٤ هـ قصد الإمام إلى مسجد التاريخ ، يرافقه نفر من أصحابه ومن الحجارين ، حيث أمرهم بإزالة صخرة كانت تزار وتنذَر لها النذور بنهر (قلوط) . وعنها قال ابن كثير : (فقطعها — يعنى الإمام — وأراح الله المسلمين منها ومن الشرك) .

وفى أوائل شهر محرم سنة ٧٠٥ هـ ، نرى الإمام يشارك أيضاً فى الحملة ضد فئات منحرفة تنكّرت لبعض تعاليم الإسلام ، ببلاد الجرد والرفض والتيامنة ، وقد لحق به نائب السلطنة جمال الدين الأفرم فى جنده المسلحين .. فحاربوهم ، حتى أعلنوا الطاعة ، وأنابوا إلى الهدى .

هكذا كان الإمام ابن تيمية كلما رأى باطلا — يسعى ويعمل على إزالته بالوسائل المشروعة ، واتباعاً لما جاء فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه . وذلك أضعف

الإيمان » . ولكن الإمام لايسرّه أن يقف عندحد الإنكار للباطل بقلبه ولسانه فقط . بل يجاهد بيده — كأرفع مثل الإيمان — وهو فى هذا ينفذ قول ربنا عز وجل فى محكم تنزيله : (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون) .

ولقد كانت لمواقف الإمام الدفاعية المشرِّفة عن حياض الدين الإسلامى ، والرد الوافى على أصحاب المعتقدات المتطرفة وأتباع المذاهب المخالفة لحقيقة الشريعة .. ماجعل له من الخصوم كثيرين . سواء من العامة أو من الفقهاء والعلماء على اختلافهم .. لأنه كان ينقض كل ادعاءاتهم المريبة ومخالفتهم أصول الدين ، ويقول بآراء جريئة لم يجرؤ مثله بالتصريح بها .. بل فيهم من اعتبرها تهجما على مقدسات لها من الحرمة — فى نظرهم — مايمنع من التعرض لها — وما هى فى الواقع إلا عادات سيئة وأمور دخيلة ليست من الدين فى شىء ، رانت على أذهان الناس فسيطرت عليها .. حتى إذا ما جاء من يعمل على معاداتها والتخلص منها ، وقفوا ضده ، وهاجوا وماجوا فى سبيله .. ولكن الله يبعث فى كل قرن من الزمان من يصحح للأمة معتقداتها ، ويبصرها بفضائل دينها الخالد وحقائقه النيِّرة بلا خرافات أو انحرافات ..

وابن تيمية رجل الساعة فى زمانه . وقد قيل إن العلماء ورثة الأنبياء . وهو إمام الفقهاء والعلماء ورجال الكلام الذين وقفهم عند حدهم ، بحجج من الكتاب العظيم والسنّة الجليلة .

ولقد كان لجهاده العلمى والعملى أثر بالغ كبير على ميزان ذلك العصر وتهذيبه وتصحيح أوضاع كثيرة من الحياة .

وامتد هذا الأثر إلى العصور التالية ، واعتبر الدارسون وطلبة العلم بما تركه من قيم رفيعة ومنابع علمية أصيلة زاخرة بالمعارف الدينية والفقهية مما يعجز عن مثلها غير الإمام ابن تيمية — رحمه الله — ومن كانوا على نهجه النادر ، وهم جد قليلين .

فى خضم العلم

(مارأيت أحداً أعلم بكتاب الله
وسنة رسوله، ولا أتبع لهما منه)
الحافظ الكبير أبو الحجاج المزى

مؤمن وتقى .. عالم بحّاثة .. ذكى مفكّر .. مجتهد ومصلح . هذا هو الإمام تقى الدين أحمد بن تيمية .. حامى حمى الإسلام ، ورافع لواء الحق فى زمن استشرى فيه الزيغ والتحلل الدّينى .. وطغى فيه العقل الذى افتتن به بعض المفكرين الاسلاميين وغالوا فى قدرته

ويعتبر المعتزلة أول من أشادوا بالعقل ، واتّخذوه الفيصل فى أمر الإيمان والعقيدة ، حتى لقد ألف كبيرهم (داود بن المحبر) كتاباً باسم (العقل) — قال عنه الذّهبى المؤرخ إنه ليته لم يؤلفه — صاحبه : الذى أورد فيه حديثاً موضوعاً عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فى تأييده للعقل تأييداً تامّا مطلقاً. وقال عنه الامام : (واتفق أهل المعرفة بالحديث على أنه ضعيف بل موضوع[1]) .

ولقد حمل الإمام ابن تيمية الأمانة العلمية، مسئولية عليم بالأمور ، مسئولية المكلف بأداء رسالة يعمل لها بإخلاص وإيمان ، ويخوض من أجلها المعارك انتصاراً للدين وإحياء لسيرة السلف الصالح التى انتهجها هو كمبدإ لحياته .

إننا نراه يبدع فى تفسيره للقرآن والحديث ، ويبرز المعانى بعقلية المثقف الروحى الواسع العلم .. كما نراه يهتم بالتأليف وهو حدث ، ويتعمق فى دراساته : دينية كانت أو فلسفية أو فكرية. . حتى ليصبح من ذوى الرأى والقادة الروحيين وزعماء الفقهاء. . ويناقش اختلاف المذاهب والأفكار .. يقف مع الصالح منها ، وينفى السيىء عنها . . يصدر فى أحكامه عن برهان ، ويذيع علمه لينتفع به الناس . بل إنه يقول بآرائه

---

(١) الحديث كما رواه داود المذكور — هو: « أول ماخلق الله العقل ، فقال له : أقبل. فأقبل ، ثم قال : أدبر . فأدبر ، فقال : وعزنى ماخلقت خلقا أكرم على منك ، فبك آخذ ، وبك أعطى ، وبك الثواب والعقاب » .

الحكيمة المستمدة من اجتهاده فى علمه بشرائع الاسلام وسماحته ، ولا يفكر فيمن يهاجمونه أو يتربصون به ، أو يحسب لهم حساباً فى سيره المتواصل .

ومن بين الأسباب التى أوجدت الخصومات بينه وبين بعض معاصريه من العلماء الذين كانوا ينفسون عليه أو ينتقدونه — تحدياته لهم وإصراره على موقفه وما يصرح به . حتى لقد قال المؤرخ ابن رجب فى حديثه عن العلامة عماد الدين الواسطى — ويذكر فضل شيخنا ابن تيمية : (كان هو وجماعة من خواص أصحابه ربما أنكروا من الشيخ — يعنى ابن تيمية — فى بعض الأئمة والأكابر الأعيان ، وفى أهلى التَّخلى والانقطاع ونحو ذلك ، وكان الشيخ رحمه الله لايقصد بذلك إلا الخير والانتصار للحق . وطوائف من أئمة أهل الحديث وحفاظهم وفقهائهم كانوا يحبون الشيخ ويعظمونه ، ولم يكونوا يحبون له التوغل مع أهل الكلام ولا الفلاسفة ، كما هو طريق أئمة أهل الحديث المتقدمين كالشافعى وابن حنبل) .

ولكن الامام ابن تيمية — ونحن نحمد له كل مواقفه — ما كان ليخشى فى الحق لومة لائم . وقد التزم برسالة رجل الدين المسئول ، ليس بالقول فحسب ، بل بالعمل والكفاح . فهو يمجد آثار الصالحين ، ويسفه الملحدين ، ويجاهد من أجل السنة المحمدية .

يحتج بالحق ويفتى بالبراهين .. وما كان ليقف أمامه شىء يمكن أن يهاب منه أو يقسره على التراجع .. حتى السجن وتكرار منعه عن التعليم والإفتاء — ماكانا ليزيداه إلا صلابة وقوة فى الإيمان ، وقد قال هو فى هذا : (المحبوس من حبس قلبه عن ربه ، والمأسور من أسره هواه) . وازداد عزماً وتصميما على أن يقاوم الضلال ، ويواصل كفاحه فى سبيل المبادئ الدينية والشرائع الإلهية كما أنزلت .. يتقيد بها ويذُبّ عن حياضها بكل ماوسعه من جهد وإمكانيات .

يقول ابن رجب مؤرخاً لهذه الفترة من حياة الإمام : (حتى قام عليه خلق من علماء مصر والشام قياماً لامزيد عليه ، وبدّعوه وناظروه وكابروه ، وهو ثابت لايداهن ولا يمارى ، بل يقول الحق المر الذى أداه إليه اجتهاده) .

إن الإمام أملى (الرسالة الحموية) سنة ٦٩٨ هـ فى جلسة واحدة بين فريضتى الظهر والعصر ، رداً على سؤال جاءه من حماة — فى الاسترشاد عما ورد فى صفات الله تعالى .

وقد أثار عليه الرد على هذه المسألة ، الكثير من الجدل والاتهام والخلاف عند بعض علماء الكلام . وهى تتلخص فى تنزيه الربّ جل وعلا ، عن مشابهته للمخلوق ، وفى أن ماوصف به نفسه — عز شأنه — من صفات ذاتية أو عملية فى بعض آيات القرآن الحكيم ، كقوله تعالى : (وجاء ربك والملك صفاً صفا — و— الرحمن على العرش استوى) .. يجب أن نؤمن بها إيماناً مطلقاً ، وبغير تأويل أو تحريف . فإن فى التأويل تعدٍّ على المفهوم الخاص الذى أراده الخالق الأعظم ، ومهما كانت نتيجته فهو فوق طاقة أىّ عقل .

وعندما أخرج الإمام كتابه (العقيدة الواسطية) التى يقول عنها فى مقدمتها : (هذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة : أهل السنة والجماعة) . اغتبط بها الكثيرون من طلاب العلم والتبصرة بأصول الدين .. إلا أنه كان قد حمل عليه بعض المغرضين — فيما بعد ، مما اضطر نائب السلطان بدمشق إلى أن يستدعيه بحضرة جمع من العلماء والقضاة ، يسألونه عن معتقده وديانته بأمر من السلطان ، وذلك سنة ٧٠٥ هـ ، فلم يرد عليهم بأكثر من أن قدم لهم كتابه هذا الذى أفحمتهم مادته ، وجعلتهم يقررون بأن هذه عقيدة سنّيّة سلفية .. وهذا مانجده بيناً فى مقدمة الكتاب أيضاً — يفسر جانباً من الإيمان — حيث يقول الإمام : (ومن الإيمان بالله ، الإيمان بما وصف به نفسه فى كتابه ، وبما وصف به رسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم — من غير تحريف ولا تعطيل ، ولا تكييف ولا تمثيل ، بل نؤمن بأن الله سبحانه ليس كمثله شىء وهو السميع البصير . فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ولا يلحدون فى أسماء الله تعالى وآياته ، ولا يكيّفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه ، لأنه سبحانه لا سمىّ له ولا كفْو له ، ولا ندّ له ، ولا يقاس بخلقه ، سبحانه وتعالى ، فإنه أعلم بنفسه وبغيره . وأصدق قيلا وأحسن حديثاً من خلقه ، ثم رسله صادقون مصدّقون ، بخلاف الذين يقولون عنه مالا يعلمون) .

إن الإمام بذلك يسير على سبيل هدًى ونصح وتعاليم : يوضّح بجلاء مقاصد الدعوة الإسلامية ، ويعمل مخلصاً لتتبع سنن الهدى عن اقتناع وصفاء روحى ؛ وهو بذلك ينظر إلى ماجاء على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم — ويأخذ به ، فى إحدى وصاياه العظيمة للمؤمنين حين قال : « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى ، تمسكوا بها وعضّوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة » .

تلك هى من أسمى مبادئ الإسلام ومرجع تشريعاته ، والخارج عليها أو الداخل فيها بمعتقدات ليست منها ، فأولئك هم الضالون .

ولقد راح خصوم الإمام يكيدون له بعد أن صرح إمامهم ، وبمحضر من نائب السلطان والأمراء — عندما طالبوا بأن يكف الشيخ عنهم وأن يتركهم وشأنهم .. وقال بجرأته المُتَأَصِّلة الجذور فى أعماقه : (هذا لايمكن ، لابد لكل أحد أن يدخل تحت الكتاب والسنة قولا وفعلا ، ومن خرج عنهما وجب الإنكار عليه) .

ولشدّ ماروعوا — هم أنفسهم — عندما فوجئوا بالحكم بأن كل من يخرج عن الكتاب والسنة تضرب عنقه .

لهذا فهم يحملون على الرجل المجاهد بعلمه ويحقدون ، ويستعْدون عليه السلطات العليا ، فنعرف فى نفس العام ٧٠٥ هـ عما وصل إلى حاكم دمشق فى رسالة من حاكم مصر وسلطانها ، بطلب الإمام ابن تيمية — بقصد اختباره ومعرفة ماعنده من اتجاهات .

فيرحل الإمام ، يرافقه أخوه شرف الدين فى سفره . وفى القلعة بالقاهرة ، عقد له اجتماع للتحقيق معه ، بمحضر القضاة والكبراء ، وقد أقيم من يدعى (الشمس بن عدنان) مدعياً على الإمام ، وناقشوه فى آرائه ومعتقداته ، لكنهم لم يجدوا بغيتهم فيما يمسكونه عليه ويحتجون به على سلامة عقيدته وإيمانه القوى ، إلا أن هنالك مؤامرة كانت قد دبرت له للحدّ من نشاطه والإساءة إليه ، وهو الساعى إلى صلاح المجموع وخير الملة والأفكار . فعقدوا له اجتماعاً آخر لمحاكمته بسبب رسالته السابقة عن صفات الله جل وعلا . وقد أحضروا له الشيخ صفى الدين الهندى ، وقالوا عنه إنه أفضل الجماعة وشيخهم فى علم الكلام . وكان من خصوم الإمام فى الاجتماع منافسه : نصر المنبجى

وهو شيخ لبيبرس الجاشنكير(١) الذى حضر الاجتماع أيضاً ومعه ابن مخلوف ، قاضى المالكية . وما جرى فى هذه المحاكمة يعد مهزلة من مهازل الحكم .

فلقد كانوا يقصدون إيذاء الإمام والتّسلط عليه ووقفه عن الجهاد بالعلم الذى نذر نفسه له .. ولهذا ؛ صدر الأمر بإيقافه فى برج مدى عدة أيام ، ثم نقل بعدها ، فى ليلة عيد الفطر هو وأخوه ، إلى سجن القضاة — بحارة الدّيلم — فى الوقت الذى كتبت فيه السلطات بمصر إلى حاكم الشام بضرورة إلزام الناس عدم اتباع عقيدة الإمام .

ولقد أصاب السوء من جراء ذلك ، حتى أصحاب المذهب الحنبلى وكبارهم ، وسجن بعضهم ، وحدثت أمور آذت الكثيرين فى نفوسهم وفى معتقداتهم .

ويبقى الإمام رهين السجن عاماً ونصف العام . ولقد رفض أكثر من مرة أن يفرج عنه لحساب أن يرجع عن جزء من عقيدته ، حتى تصادف أن حضر إلى القاهرة أمير دروز الشام — حسام الدين مهنا بن عيسى(٢) ، فى ربيع الأول سنة ٧٠٧ هـ ، وتكلم فى شأن الامام ، وحصل على الموافقة على الإفراج عنه دون أية شروط قاسية ، فزاره بنفسه فى السجن ليخرج معه مرفوع الهامة ، وليواصل كفاحه غير ماوجل أو هيّاب — فى التحدث إلى الناس ونشر العلم بالمساجد وإرشاد المستنصحين برأيه وغوالى حكمه ، فما كان ليستطيع أن يكتم العلم — كما يقول ..

ولكنه لايلبث أن يعاد إلى التحقيق معه فى شهر شوال من العام نفسه ، بتهمة لفّقها عليه رجال التصوف بحجة ماتكلم به الإمام عن العلامة ابن العربى وبعض الصوفية فى الرد عليهم ، خاصة فى الكتاب الذى ألّفه فى الرد على كتاب ابن العربى الموسوم (فصوص الحكم) ، الذى يقول عنه الإمام بأنه يدعو إلى مذهب أهل الوحدة وأهل الحلول وأهل الاتحاد ، وقد نقده نقداً لاذعاً كشف فيه كل أباطيل القائلين بوحدة الوجود . وكان الشيخ نصر المنبجى من مؤيدى ابن العربى .

---

(١) اغتصب الحكم من الملك الناصر ، مدى سنتين ، حتى شعبان سنة ٧٠٩ هـ . وقد هرب من مصر فى جمع من صحبه ، عند علمه بتهيئة الأمور لعودة الملك الناصر محمد بن المنصور قلاوون . وقد جرى القبض على الجاشنكير هذا فى غزة ، ثم حوكم وقتل فى نفس العام ، وكان فظا غير محمود السيرة .

(٢) كان تقيا محترما عند ملوك الشام ومصر والعراق ، وقيل إنه من سلالة ابن جعفر البرمكى الذى خلفه من العباسة أخت هارون الرشيد ، وقد توفى يوم ١٨ من ذى القعدة سنة ٧٣٥ هـ .

ولهذا كان يستعدى السلطان على الإمام ، حتى لقد خيّروه بين السجن أو الإقامة بدمشق أو الإسكندرية ، بشروط لم يقبلها إلا تحت ضغط أصحابه الذين أرادوا له العودة إلى دمشق .

إلا أنه ما يكاد يحط رحاله بها ، حتى أخرج منها ، ليرجع إلى القاهرة ، حيث أعيدت له المحاكمة ، وخصصت له جلسة أمام القاضى العنيد الذى يقرر له بأن الدولة لاترضى له إلا بالحبس ، وإن كان لاحجة للقضاء عليه ، لعدم ثبوت ماقد يدينه بشىء .

فقال الإمام حسما لهذا التآمر : (أنا أمضى إلى الحبس وأتبع ماتقتضيه المصلحة) .

ولذا أودع الإمام – سجن القضاة المعروف ، لكنه وهو فى وضعه هذا أيضاً ، لم ينقطع عن الإفتاء والرد على مايصله من مسائل وأمور ، تأتيه من مختلف فئات الناس : ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديثه الشريف ؟ : « من سئل عن علم فكتمه ، ألجم يوم القيامة بلجام من نار؟ » .

إن الإمام البطل ليستهين فى سبيل العلم بكل شىء ، وقد كان وهو بالسجن – فى ذروة نشاطه العلمى تحصيلا وإنتاجاً ، وكان أصحابه يترددون عليه وينقلون علومه إلى طلابها ومريديه النابهين .

وتعود السلطات الطاغية للحد من نشاطه مرة ثانية ، فتحيله إلى سجن بالإسكندرية ، فيبقى على طريقته : دارساً لمعجزات القرآن ومؤلفاً فى تفسيره ، وفى وضع مسائله وعلومه الفقهية ، حتى سنة ٧٠٩ﻫ من شهر شوال حين عاد للحكم الملك الناصر محمد بن قلاوون [١] فأمر بالإفراج عنه وإكرامه . وقد احتفل به فى القاهرة احتفالا يليق بمقامه وشأنه الكبيرين .

ويتضح لنا هنا جانب من خلق الإمام الرفيع ، عندما حدثه الملك الناصر فى شأن خصومه والمتسببين فى الإساءة إليه – وكان يهم بقتل بعضهم – ذكرهم الإمام بالخير

---

(١) توفى يوم ٢٧ من ذى الحجة سنة ٧٤١ ﻫ بعد أن حكم للمرة الثالثة ٣١ عاما .

وطلب منه أن يعفو عنهم . وعندها - كما روى ابن كثير[1] - قال أحدهم - وهو القاضى ابن مخلوف المالكى : (مارأينا مثل ابن تيمية ، حرضنا عليه فلم نقدر عليه ، وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا) .

وهكذا استقرت به الأيام زمناً ، يؤدى رسالة العلم كما يجب أن تؤدى ، وهو محط الإجلال والتقدير أينما حل وحيثما ارتحل . وهو يواصل أيضاً - تأليف كتبه التوجيهية والتعليمية فى إرشاد المسلمين ، وتصحيح العقائد والتنبيه على ماداخلها من المنكرات والبدع بوساطة أدعياء الدين ومروّجى المذاهب .

فنرى من كتبه القيمة هذه المؤلفات الدّسمة مثل : الوصية الكبرى ، والوصية فى الدين والدنيا[2] ، والكلام على حقيقة الإسلام والإيمان ، ومعارج الوصول إلى معرفة الأصول ، والمعجزات والكرامات . وغيرها من نَتَاج عقله الواسع وعلمه الكبير . بل من وحى عقيدته الإسلامية الصحيحة المتمسك بها - مما سنأتى لذكره فى غير هذا المكان .. ونحن فى عجب كبير لما خلفه من تراث إسلامى ندر أن يكون له مثيل .

إننا نجد من خلال كتبه القوى الدافعة لكفاحه العلمى والعقلى بأوسع معانيهما ، حيث تناول ألوان العقائد ، وصححها وبين مافيها من أخطاء ونقد كل انحراف ، وأعاد على الملحدين بضاعتهم الزائفة ، وظل طوال حياته الشّهاب الذى يتأجّج بالضياء أمام السالكين . وهكذا تبقى كتبه وما خطت يمناه من بيان - شرح به أمور الدين ، ومن فتاواه التى أداه إليها حسن اجتهاده وفهمه لشريعة السماء التى لا يأتيها الباطل من أية وجهة كانت .

وهكذا أيضا تبقى التعاليم الحقيقية منارة لكل عصر .. وكذلك كانت تعاليم الإمام ابن تيمية - وهى كما أثرت فى ذلك المحيط العلمى القديم ، فإنها ظلت تمتد بآثارها النيرة الفعالة إلى وقتنا الحاضر .. تشمل الجزيرة العربية ، وبلادنا على وجه الخصوص ، لأنها تتبع المذهب الحنبلى ، وقد وجدت فى تعاليم الإمام ابن تيمية وتوجيهاته ومبادئه

---

(١) المؤرخ الفقيه أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير - صاحب (البداية والنهاية) ولد سنة ٧٠١ هـ - وتوفى سنة ٧٧٤ هـ .

(٢) تسمى (الوصية الصغرى) وقد كتبها الإمام بناء على طلب ورده من الشيخ أبى القاسم المغربى .

صدى لما تدعو إليه وتنادى به فى مقاومة البدع والخرافات التى تزحف بين كل عصر وآخر بمتناقضات جديدة ، وفى التزام ماجاء بكتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، والاستنارة بنهج السلف الصالح .

ومن لطيف الإشارة نورد هنا بيتى الشعر اللذين قالهما شاعر إسلامى يجمل فيهما أسماء الأعلام الثلاثة كقادة للعلم — وعلى رأسهم الإمام ابن تيمية — قال :

(ثلاثةٌ ليس لهم رابع فى العلم والتحقيق والنُّسْكِ
وهم إذا شئت ابن تيميه وابن دقيق العيد والسُّبكى[1])

وجميل بنا قبل أن نختم هذا الفصل أن نستأنس بقول أحد خصوم الإمام — ابن تيمية ، على رأى من قال : والفضل ماشهدت به الأعداء .

ذلك هو شيخ الشافعية كمال الدين بن الزملكانى[2] — الذى أوردنا له فى مطلع كتابنا ، أبياته الثلاثة فى فضل الإمام . ونسمعه هنا يقول منصفاً الإمام فى كتابه الذى رد فيه على آرائه الفقهية : (كان إذا سئل — أى ابن تيمية — عن فن من الفنون — ظن الرائى والسامع أنه لايعرف غير ذلك الفن ، وحكم أن أحداً لايعرف مثله . وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا فى سائر مذاهبهم منه مالم يكونوا يعرفون قبل ذلك) .

ألم نقل إن هذا العالم ابن تيمية رجل عصره وحامى حمى الدين فيه .. ؟
إننا لو ذهبنا نستقصى مناقبه وأفضاله لأعيانا البيان ، ولطال بنا المجال ..
فأمثال الإمام ، جدّ قليل .. والمخلصون دائماً على خطر عظيم .

---

(١) هو تقى الدين بن عبد الكافى السبكى — ولد سنة ٦٨٣ هـ وتوفى سنة ٧٥٦ هـ .
(٢) هو كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم بن خلف الأنصارى السماكى الدمشقى الزملكانى — توفى سنة ٦٥١ هـ .

بين المنهج والبحث

يمتاز الإمام ابن تيمية عن معظم معاصريه من رجال الدين والرأى، بأنه سلفى فى سائر العلوم والمناهج الدّينية . وإنه مفكر إسلامى بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، وهو العالم الناقد ، والمجتهد الموفق . لم يؤخذ عليه تهاون ولا تساهل فى أمر من أمور الدين ، ولا ألقى القول مرة على عواهنه أو تحدَّث بغير الصدق والدعوة إلى الحق .

ومن مناهجه فى تفسير القرآن : يرى أن أفضل مراتب هذا التفسير هو أن يفسر القرآن بالقرآن نفسه ، لأنّ ما أجمل فى آية قد فسر وبيّن فى آية أخرى ، وما اختصر فى موضع بسط فى موضع آخر .

وتأتى المرتبة الثانية : بأن يفسر القرآن بما ورد فى الأحاديث النبوية من معانى فى إيضاح آية معينة ، وكان هذا عملا بما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام : « ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه » — أى يعنى السنة .

ثم المرتبة الثالثة فى تفسير القرآن بما جاء فى أقوال الصحابة الذين لهم فهم تام، وهم أعلم بالأمور التى شهدوها من القرآن واختصوا بها ، وأخصّ بالذكر منهم الخلفاء الرّاشدين ، والأئمة المهديين كعبد الله بن عباس وابن مسعود ، وغيرهما ، رضى الله عنهم .

أما المرتبة الرابعة فتأتى لتفسير القرآن بأقوال التابعين من رجالات العلم المصلحين : كحسن البصرى[1] وعطاء بن أبى رباح وسعيد بن جبير[2] . وسواهم من العلماء الموثوق بهم — رضوان الله عليهم .

وعنهم يقول الإمام ابن تيمية : إنهم (إذا اجتمعوا على الشيء — يعنى الرأى — فلا يرتاب فى كونه حجة ، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم ، ويرجع فى ذلك إلى لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب أو أقوال الصحابة) .

---

(١) هو أبو سعيد الحسن بن يسار — ولد بالمدينة المنورة سنة ٢١ هـ ، وتثقف بالحجاز، سافر مع والده إلى البصرة وهو فى نحو العشرين من عمره ، اشترك فى بعض الفتوحات ، وله رسالة فى ذم القدرية ، وهو يعتبر نقطة تحول فى تاريخ علم الكلام ، وقد توفى سنة ١١٠ هـ .

(٢) عطاء وسعيد كلاهما من التابعين — وكنية الثانى أبو عبد الله الأسدى — ولد سنة ٤٥ هـ وتوفى سنة ٩٥ هـ .

ذلك هو القول الفصل ، فى موضوع الإجماع ، كما يمليه العقل المؤمن ، والتفسير العلمى السليم ، فيهدى إلى سبل السلام والأمان من شطحات العقلانيين ، ونقليات المتمذهبين أو المتشيعين .

ولم تتح للإمام الفرصة لتفسير كامل القرآن وإلا لكسبنا من علمه الأكثر — فى هذا المجال — . وما قد بقى من تفسيره لايعدو سوى تفسير بعض قصار السور ، وهو فى جملته جهد كبير وعمل نادر ، إذ أن للإمام طريقة فى التفسير لم يسبق إليها .

ويروى الشيخ أبو عبد الله بن رشيق الذى كان يرافق الإمام كثيرا ويكتب أحاديثه ، بأنه أرسل له عندما كان بالسجن ، يحثه على تفسير جميع سور القرآن ، فرد عليه الإمام بقوله : (إن القرآن فيه ماهو بيِّنٌ بنفسه ، وفيه ماقد بيّنه المفسرون فى غير كتاب ، ولكن بعض الآيات أشكل تفسيرها على جماعة من العلماء ، فربما يطالع الانسان عليها عدة كتب ولا يتبين له تفسيرها ، وربما كتب المصنف الواحد فى آية تفسيراً ، ويفسر غيرها بنظيره ، فقصدت تفسير تلك الآيات بالدليل ، لأنه أهم من غيره ، وإذا تبين معنى آية تبين معانى نظائرها) .

والإمام فى تفسيره للقرآن نراه يطيل كثيراً . إذ يستعرض كل آية — لغة ومعنى ومبنى و ايقصد بها من وجهات متعددة ، ويأتى بالشواهد من الآيات الأخرى أو الحديث الشريف ، فأقوال الموثوق بآرائهم من العلماء .

وعند ما نقرأ تفسيره لسورتى المعوذتين — الذى يزيد على المائتى صفحة — نعرف منهجه العجيب فى طريقة التفسير . ها هو ذا يقول عن مقصده من تفسيره لهاتين السورتين ، فى كتابه نفسه :

(والمقصود : الكلام على هاتين السورتين ، وبيان عظيم منفعتهما وشدة الحاجة بل الضرورة إليهما ، وأنه لايستغنى عنهما أحدٌ قط ، وأن لهما تأثيراً خاصاً فى دفع السحر والعين وسائر الشرور ، وأن حاجة العبد إلى الاستعاذة بهاتين السورتين أعظم من حاجته إلى النفس والطعام والشراب واللباس) .

أرأيت كيف يقول بهذا الإيحاء الذى أراده الله ليجنب عباده السوء بما تصرفه هذه

الآيات الكريمة عنهم وتعوذهم من كل شر ؟ وذلك مصداق لقوله تعالى : (وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين) .

وينهج الإمام فى تفسيره للقرآن والحديث — على وجهين : الأول : أن يستدل بما عنده ، ثم يعتقد ما أداه إليه الدليل النَّصى . والآخر : (صرف اللفظ عن المعنى المدلول عليه المفهوم منه إلى معنى آخر يخالف ذلك) — كما يقول هو نصاً .

وهذا على عكس ماينتهجه فلاسفة ومتصوّفو الإسلام الذين يرون التأويل بالاعتقاد ، ثم بعد ذلك بالاستدلال الذى وفقوا إليه ، وهو خطأ واضح لاشك فيه .

ويرد عليهم الامام ابن تيمية — فيقول من كتابه : (بيان موافقة المعقول لصحيح المنقول) : المنقول لايعارض المعقول الصّريح قط ، وقد تأمّلت ذلك فى عامة ماتنازع الناس فيه ، فوجدت ماخالف النصوص الصحيحة الصريحة ، شبهات فاسدة لايعلم بالعقل بطلانها ، بل يعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشرع . وهذا تأملته فى مسائل الأصول الكبار ، كمسائل التوحيد والصفات ، ومسائل القدر والنبوات والمعاد ، وغير ذلك . ووجدت ما يعلم بصريح العقل لم يخالفه سمعٌ قط بل السمع الذى يقال إنه يخالفه . أما حديث موضوع أو دلالة ضعيفة ، فلا يصح أن يكون دليلا لو تجرد عن معارضة العقل الصريح ، فكيف إذا خالفه صريح المعقول) .

هذا التحليل الدقيق فى بطلان كل مايخالف النص الصحيح من الكتاب والسنة ، إنما يصدر عن عقلية واعية كبيرة ومتصرفة : يتمتع بها شيخنا الإمام ابن تيمية ، الذى لم يعرف الانحراف . ولقد اشتهر عنه أنه لايتعصب ولا يقلد ، كما أنه ضد الجمود والتمذهب .

ولقد أداه اجتهاده وفكره إلى مخالفة مذاهب الفقهاء فى بعض اتجاهاتها ، حتى مذهب الإمام أحمد بن حنبل — الذى هو مذهبه — خالفه فى بعض مناهجه ، وقيل إنه صحح ما رآه جامداً بأنه يحتاج إلى إيضاح .

ولهذا كان انتقاده شاملا قاسياً لأهل الرأى بسبب إسرافهم فى القياس — حيث استعملوه قبل البحث عن النص الشرعى .

والقياس هو مرتبة تأتى بعد الاجماع (إجماع الأمة) . والصحيح منه ، هو المطابق للنص ، لأنه من أصول الفقه . وهو أيضاً الاجتهاد بالرأى — عند من لايعرف النص الذى يوجد عموماً فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . وعن هذا يقول الإمام ابن تيمية فى كتابه (معارج الوصول إلى معرفة الأصول) : فمن رأى شيئاً من الشريعة مخالفاً للقياس ، فإنما هو مخالف للقياس الذى انعقد فى نفسه ، وليس مخالفاً للقياس الصحيح الثابت فى نفس الأمر .

وفى تقديم الإمام لكتابه هذا — نراه يوضح معنى الأصل فى الشرائع الدينية والتمسك به إطلاقاً ، فيقول : (إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بيّن الدين : أصوله وفروعه ، باطنه وظاهره ، علمه وعمله ، فإن هذا الأصل هو أصل أصول العلم والايمان ، وكل من كان أعظم اعتصاماً بهذا الأصل كان أولى بالحق علماً وعملا) .

إلى أن يقول : (وما تسميه الناس الفروع والشرع والفقه ، فهذا قد بيّنه الرسول الكريم أحسن بيان ، فما من شيء مما أمر الله به أو نهى عنه أو حلله أو حرمه إلا بيّن ذلك) .

كذلك هو الإمام فى أبحاثه فى أمور الدين . يحلل ويصدر عن إدراك سليم لما تحتويها ، ويوضح قضايا العقل المتعلقة بها وأثر الاجتهاد وعلاقته بتلك الأمور الشرعية — عن خبرة وعلم عميقين ، ويصحح الآراء بإسنادها إلى الحق الذى لا جدال ولا خلاف فيه ولا تجاوز عنه .

وذلك أيضاً ما أوضحه فى كتابه : (المعجزات والكرامات) عن أصل الاستصحاب فى الفقه — إذ يقول : (هو البقاء على الأصل فيما لم يعلم ثبوته وانتفاؤه بالشرع ، وهو حجة على عدم الاعتقاد بالاتفاق) .

بمعنى أنه إذا سئل المجتهد فى رأى ، ولم يعرف له نصّاً فى القرآن أو الحديث أو أى دليل شرعى بالإباحة أو التحريم ، فله الحكم بالإباحة — لأن كل شيء مباح أصلا إذا لم يَرِدْ فى الشرع مايحرمه .

تلك بعض نماذج من الأصول الفقهية التى عنى بها الإمام ابن تيمية وأولاها منتهى

جهده وتفكيره ، وقال فيها رأيه الثاقب ، فعارض الكثيرين من الفقهاء والعلماء ، وهو يبين لهم الاعتقاد الأصوب ، ويرد عليهم مايستنكره الدين ، واستنباطاته واستنتاجاته كلها من كتاب الله وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام . أساس كل تشريع ، واستناد كل اجتهاد .

أما موقف الإمام من الفلاسفة عموماً ، فكناقد حصيف راح يفند آراءهم ويشجب أخطاءهم ، بل ويعترف بمحاسنهم ، وهو يتفق مع الإمام الغزالى[١] فى أن متقدمى الفلاسفة هم أبعد عن الأمور الالهية ، إذ لم يستضيئوا بنور النبوة ولا شريعة لديهم ، فأقوالهم معظمها فاسدة .

وعندما تكلم الامام عن فلاسفة المسلمين — كالفارابى وابن سينا[٢] ، قال عنهم فى معرض تفسيره لسورة الإخلاص :

(فالمنهج الذى يسلكه هؤلاء الفلاسفة فى بحث هذه الأمور الإلهية منهج عقلى لايرجعون فى العلم بشىء منها إلى ما جاء به الرسول ولا يعرفون من العلوم الكلية ولا العلوم الإلهية إلاّ مايعرفه الفلاسفة المتقدمون مع زيادات تلقوها عن بعض أهل الكلام أو أهل الملة) .

والإمام يرى أن فلاسفة الأشاعرة أفضل من فلاسفة المعتزلة ، وأن هؤلاء أفضل من فلاسفة الشيعة والخوارج الذين يخالفون مناهج السنة من عدة وجوه ، ويذمون بعض الخلفاء ، كما يتشيعون للبعض الآخر بطريقة تخرجهم عن الدين الإسلامى . وهم من وصفهم الإمام بالرافضة ، وحمل عليهم مما سنعرفه فى الفصل التالى من كتابنا هذا .

---

(١) هو أبوحامد محمد بن محمد الغزالى — ولد فى طوس سنة ٤٥٠ هـ ، عين أستاذاً فى المدرسة النظامية ببغداد سنة ٤٨٤ هـ ، وقد بلغ من العلم أن دعوه (حجة الإسلام) — ومن مؤلفاته الشهيرة : (إحياء علوم الدين ، وتهافت الفلاسفة ، وفضائح الباطنية ، والمنقذ من الضلال ، والاقتصاد فى الاعتقاد ، وإلجام العوام عن علم الكلام ، والمستصفى — فى أصول الفقه) ، وكانت وفاته سنة ٥٠٥ هـ .

(٢) الفارابى — هو أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان — ولد فى تركيا سنة ٢٦٠ هـ ، ومن كتبه : (إحصاء العلوم ، وآراء أهل المدينة الفاضلة) . أما ابن سينا — فهو أبو على الحسين بن عبد الله ، ولد بإحدى قرى بخارى سنة ٣٧٠ هـ ، ومن كتبه :(الشفاء — دائرة معارف فلسفية ، والقانون فى الطب ، ورسائل ابن سينا) ، وقد توفى سنة ٤٢٨ هـ فى همذان .

يقول الله سبحانه فى محكم آياته : (ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا) ..

عند هذا نصل إلى مسألة القضاء والقدر التى تكلم فيها بعض المذهبيين والفلاسفة ، وتناولها رجال الدين بالحذر والرد على الافتراءات المضلة التى صدرت عن أولئك المتكلمين .

وقد ناقش الإمام ابن تيمية هذه المسألة الشائكة ، وفسر وأبان المقاصد الربانية فى القدرة العليا وفى القضاء الإلهى الذى له كامل التصرف .

وإن شر الفئات التى كانت تقول بالقدر هى مايسمونهم (بالقدرية) — وهم المنكرون للقضاء والقدر ، ويقرون بقدرة الإنسان على اكتساب أعماله . وأولهم يرجع تاريخه إلى بحر القرن الأول الهجرى — وهو معبد الجهنى الذى كان يقول أيضاً بخلق القرآن ، وقد قتله الحجّاج بن يوسف الثقفى ، سنة ٨٠ هـ ، ثم تتالى الاتباع ، وتضاربت الأفكار ، وكان للخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز [1] دور فى معركة الكلام ، التى قامت فى عهده ، وكتب رسالة جيدة فى ذم القدرية ونقدهم . ولقد قتل معظم من تبعهم فى مختلف العصور ، مثل : غيلان القبطى والجعد بن درهم [2] ، وغيرهما .

فإذا كان زمان الإمام ابن تيمية الذى لايسكت على ضيم يصيب مذاهب الأمة الإسلامية ، أو شرّ ينال العقيدة الصحيحة لديننا الحنيف . نراه يسلك فى الميدان طريق الهجوم والدفاع فى آن . وهنا نسمعه يقول عن أولئك القدريين — وهو يفسر مفهومهم الضال : (ومعلوم أن من أسقط الأمر والنهى الذى بعث الله به رسله ، فهو كافر باتفاق المسلمين واليهود والنصارى ، بل هؤلاء قولهم متناقض لايمكن أحدٌ منهم أن

---

(١) توفى سنة ١٠١ هـ ، بعد أن ولى الخلافة قرابة عامين ونصف ، وكان ورعا مترسما فى عدالته لحكم الخلفاء الراشدين الأربعة — رضوان الله عليهم، وكان فى شبابه أميراً على المدينة المنورة فى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان .

(٢) الجعد — قتله يوم عيد الأضحى — والى الكوفة خالد بن عبد الله القسرى ، بأمر من الخليفة هشام بن عبد الملك .

يعيش به ولا تقوم به مصلحة أحد من الخلق ، ولا يتعاون عليه اثنان ، فإن القدر إن كان حجة فهو حجة لكل أحد ، وإلا فليس حجة لأحد — فإذا قدر أن الرجل ظلمه ظالم أو شتمه شاتم أو أخذ ماله أو أفسد أهله أو غير ذلك ، فمتى لامه أو ذمه أو طلب عقوبته فقد أبطل الاحتجاج بالقدر ، ومن ادعى أنّ العارف إذا شهد الإرادة سقط عنه الأمر — كان هذا الكلام من الكفر الذى لا يرضاه اليهود ولا النصارى ، بل ذلك ممتنع فى العقل ، محال فى الشرع ، فإن الجائع يفرّق بين الخبز والتراب ، والعطشان يفرق بين الماء والسراب ، فيحب مايشبعه ويرويه دون مالا ينفعه ، مع أن الجميع مخلوق لله تعالى) .

إلى أن يقول الإمام فى إتمامه لهذا الإيضاح المركّز :

(ولو جاز لأحد أن يحتج بالقدر على ما يفعله من السيئات ، لم يعاقب ظالمٌ ، ولم يقتل مشركٌ ، ولم يقم حد ، ولم يكفّ أحد عن ظلم ، وهذا من الفساد فى الدين والدنيا — والمعلوم ضرورة فساده بصريح المعقول المطابق لما جاء به الرسول) .

ذلك هو رأى الدّين فى هذه المسألة ، ولا اعتراض أو خروج على ما أراده التشريع ، وأن القضاء والقدر خيره وشره من الله تعالى . لاتبديل لآيات الله ، ولا راد لما أراد — بيده كل شيء وهو العليم القدير .

بقيت أمامنا من القضايا الهامة التى خاض فيها علماء الكلام[1] وبعض أصحاب المذاهب غير الشرعية . وبحثها الإمام ابن تيمية السلفى ، بكثير من العمق والدراسة والتأمل ، ثم شرع فى نقض كل تلك الاعتقادات التى لا تتمشى مع مبادىء الدين ومقاصده .

تلك القضية هى : صفات الله — جل وعلا — والتى لها اتصال مباشر بتوحيده سبحانه ، وبكمال الايمان لمن هدى إلى صراطه المستقيم .

---

(١) يقول العلامة ابن خلدون فى مقدمته معرفا بعلم الكلام بأنه : (علم يتضمن الحجاج « الجدال » عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية ، والرد على المبتدعة المنحرفين فى الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة . وسر هذه العقائد هو التوحيد) . وقد ولد ابن خلدون فى تونس سنة ٧٣٢ هـ — وهو — ولى الدين عبد الرحمن بن محمد ، وقد توفى سنة ٨١٧ هـ .

ومن الأسباب الأولى التي دفعت الإمام ابن تيمية إلى الخوض في هذا المجال الحساس — ذلك السؤال الذى وصله من مدينة حماة بهذا النص : (ماقول السادة أئمة الدين أحسن الله إليهم أجمعين ، فى آيات الصفات — كقوله تعالى : الرحمن على العرش استوى . وقوله . ثم استوى إلى السماء . إلى غير ذلك من الآيات ، وأحاديث الصفات كقوله صلى الله عليه وسلم : إن قلوب بنى آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن . وقوله : يضع الجبار قدمه فى النار . إلى غير ذلك ، وما قالت العلماء فيه ، وليبسطوا القول فى ذلك مأجورين إن شاء الله تعالى) ؟ ؟

ولسنا هنا فى مقام البحث المستفيض فيما ذهبت إليه الفلاسفة والعلماء من مفاهيم وتفسيرات وتأويل لصفات الرب عزّ وجل ، وقد جانبهم التوفيق وأخطأوا القصد ، فقالوا بمعتقدات لاتتّفق بحال مع حقيقة ما وصف به الله سبحانه نفسه فى الأفعال والأقوال ، وما قصد إليه وأراد بيانه .

وإن مايعنينا هنا — لهو الرأى السديد لمذهب السلف الصالح الذى أحياه الامام ابن تيمية ، وبنى عليه مناهجه . وكان قد عرف بالمحنة التى أصابت الإمام أحمد ابن حنبل [١] من جراء تمسكه بصحة معتقده ، وعدم قبوله لقول المتآمرين بخلق القرآن ، وقد ناله أذى كبير ، إلى الحد الذى تعرض فيه للسِّجْن مع كبار الفقهاء ، ونالهم التعذيب من قبل إسحق بن إبراهيم صاحب الشرطة فى بغداد — ليعترفوا بخَلْق القرآن ، فأقر العلماء بهذا الضلال من شدة التعذيب ، إلا الإمام أحمد فإنه أصر على الإنكار ، فزيد فى تعذيبه إلى أن خلعت يده ، ولكنه صبر عليه بقوة إيمانه ، ولم يخضعه إرهاب ولا قسوة ، وكان مثلا عالياً للتمسك بالرأى الحق ، ورفض الباطل فى صلابة وإصرار ، رحمه الله ورضى عنه .

---

(١) ولد ببغداد سنة ١٦٤ هـ ، وتوفى يوم ١٢ من ربيع الأول سنة ٢٤١ هـ — قال عنه معاصره قتيبة بن سعد : إذا رأيت الرجل يحب أحمد بن حنبل فاعلم أنه صاحب سنة) . وقد قال مزاحم الخاقانى مضمنا هذا شعراً :

لقد صار فى الآفاق أحمد محنة — وأمر الورى فيها فليس بمشكل
ترى ذا الهوى جهلا لأحمد مبغضا — وتعرف ذا التقوى يحب ابن حنبل

ويوضح لنا الإمام ابن تيمية أطراف مشكلة الصفات هذه بقوله من تفسيره لسورة الإخلاص : (فإن أكثر آيات الصفات ، اتّفق المسلمون على أنه يعرف معناها ، والبعض الذى تنازع الناس فى معناه — إنما ذمّ السلف منه تأويلات الجهمية ، ونفَوا علم الناس بكيفيته ، كقول الإمام مالك (الاستواء معلوم والكيف مجهول) وكذلك قال سائر أئمة السّنة ، وحينئذ فرق بين المعنى المعلوم وبين الكيف المجهول ، قال فإن سمّى الكيف تأويلا ساغ أن يقال هذا التأويل لايعلمه إلا الله — كما قدمنا أولا — وأما إذا جعل معرفة المعنى وتفسيره تأويلا كما يجعل معرفة سائر آيات القرآن تأويلا وقيل إن النبى صلى الله عليه وسلم وجبريل والصحابة والتابعين ماكانوا يعرفون معنى قوله (الرحمن على العرش استوى) ولا يعرفون معنى قوله (مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى) إلى أمثال هذه الآيات ، بل استأثر الله بعلم معناها كما استأثر بعلم وقت الساعة . وإنما كانوا يقرءون ألفاظا لايفهمون لها معنى كما يقرأ الإنسان كلاماً لايفهم منه شيئاً — فقد كذب على القوم . والنُّقول المتواترة عنهم تدل على نقيض هذا وأنهم كانوا يفهمون هذا كما يفهمون غيره من القرآن ، وإن كان كنه الرب لايحيط به العباد ولا يحصون ثناء عليه) .

ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء فى الفهم والاستنتاج والقدرة على الإحاطة بتشريعاته سبحانه — كما رأينا فى أقوال الإمام هذه .

والله جل شأنه وتعالى قدره (ليس كمثله شىء) له الأسماء الحسنى وصفات الكمال التى وصف بها نفسه ، لاشريك له فيها ، إنه حميد مجيد .

ومن هنا نعرف رأى الإمام الصريح الذى يتضمن أيضاً أن كل ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله ، فهو ثابت من غير تحريف ولا تعطيل ولا تمثيل ولا تكييف ، وأن تنفى عنه مشابهة المخلوقات .

ونلمس الإيضاح التام لمعنى الصفة فى قول الامام : (فالصفة تتبع الموصوف ، فإن كان الموصوف هو الخالق ، فصفاته غير مخلوقة ، وإن كان الموصوف هو العبد فصفاته مخلوقة) .

ثم يقول فى مقام آخر : (فالعقل والنقل متضافران على وجوب اتصافه تعالى بالقدرة

على هذه الأفعال القائمة به والتى يفعلها بمشيئته وقدرته) .

ونصل من هنا إلى فهم واقع مذهب الإمام فى مسألة الاستواء على العرش ، التى حاول مخالفوه أن يزيفوا فيها قولا ينسبونه إليه .

فهو يقول فى كتابه (الرسالة الحموية) مفسراً ذلك :

(فالله مستو على عرشه استواء يليق بجلاله ويختص به ، فكما أنه موصوف بأنه بكل شىء عليم . وعلى كل شىء قدير . وأنه سميع بصير . ونحو ذلك ، ولايجوز أن يثبت للعلم والقدرة خصائص الاعراض التى لعلم المخلوقين وقدرهم ، فكذلك هو سبحانه فوق العرش ، ولا يثبت لفوقيته خصائص فوقية المخلوق على المخلوق ولوازمها) .

هذا شرح بين لايحتاج إلى بحث أو نقاش ، لأنه خلاصة اعتقاد المؤمن بآيات الله وصفاته كما أثبتها لذاته وعظمته فهو لم يكن له كفواً أحد ، وهو القاهر فوق كل شىء ، لايسأل عما يفعل ، وخلقه يُسألون .

ونرى الإمام ابن تيمية يوضح هذى المعانى الخاصة بإلهنا — العلى العظيم — فى صفة النزول ، فيقول فى تفسيره المسهب لسورة الإخلاص :

(فالرب سبحانه إذا وصفه رسوله بأنه ينزل إلى سماء الدنيا كل ليلة ، وأنه يدنو عشية يوم عرفة إلى الحجاج ، وأنه استوى إلى السماء وهى دخان ، فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرْهاً ، لم يلزم من ذلك أن تكون هذه الأفعال من جنس مانشاهده من نزول هذه الأعيان المشاهدة ، حتى يقال ذلك يستلزم تفريغ مكان وشغل آخر . فإن نزول الروح وصعودها لايستلزم ذلك ، فكيف برب العالمين ، وكذلك الملائكة لهم صعود ونزول من هذا الجنس ، فلا يجوز نفى ما أثبته الله ورسوله من الأسماء والصفات ولا يجوز تمثيل ذلك بصفات المخلوقات ..) .

تلك هى زبدة القول الجميل فى قضية الصفات التى أحرز فيها الإمام توفيقاً كبيراً — بوضع النقاط على الحروف . حيث فسرها بوحى من تعاليم الدين الإسلامى ، واستناداً لآراء التابعين المهديين بالسنة المحمدية ، رضوان الله عليهم ، ومن ذلك نستشف دعوة الإصلاح الشاملة التى يقوم الإمام بها ويسخر علمه لها .

ولنسمعه يقول من استنتاجاته العلمية فى كتابه (الفرقان) :

(فإذا ترك الناس بعض ما أنزل الله، وقعت بينهم العداوة والبغضاء ، إذ لم يبق هنا حق جامع يشتركون فيه ، بل تقطعوا أمرهم بينهم زبرا ، كل حزب بما لديهم فرحون ، وهؤلاء كلهم ليس معهم من الحق إلا ماوافقوا فيه الرسول، وهو ماتمسكوا به من شرعه ، مما أخبر به وأمر به ، وأما ما ابتدعوه فكله ضلالة) .

أجل ، فكل من يأتى بما ليس فى كتاب الله الحكيم ولا فى أحاديث رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام ، أو بوحى منهما ، فهو رد عليه ، فاسد نهجه ، باطل اعتقاده ، وقد قال تعالى : (ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لاتبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ، ولا يحزنك قولهم ، إن العزة لله جميعاً هو السميع العليم) ـ صدق الله العظيم .

من أجل التوحيد

الغاية الكبرى التى جاء لها الأنبياء والرسل إلى بنى الأرض ، هى تحقيق الوحدانية لله جل جلاله ، خالق كل شىء لا إله إلا هو نعم المولى ونعم النصير ، والعلماء ورثة الأنبياء — كما قيل — يأتون للدفاع عن هذه الوحدانية التى تفرد بها ربنا المتعال : له ملك السموات والأرض والمستعان على كل أمر .

والإمام ابن تيمية دوره الفعّال — بجهاده العلمى الواسع فى هذا السبيل بالذات . بل إن مواقفه النقدية كلها والتى وقفها ضد مختلف المذاهب الدينية والاتجاهات الفكرية المعارضة ، كانت من أجل التوحيد لله والانتصار له ، كما رأينا فى أكثر مراحل حياة الإمام العلمية .

وقد قال تعالى : (وكان حقًّا علينا نصر المؤمنين) .

والإمام يحدثنا عن الإسلام والإيمان والفارق بينهما فيقول :

(فالمقصود هنا — العموم والخصوص بالنسبة إلى ما فى الباطن والظاهر من الإيمان . وأما العموم بالنسبة إلى الملل ، فتلك (مسألة أخرى) . فلما ذكر الإيمان مع الإسلام ، جعل الإسلام هو الأعمال الظاهرة : الشهادتان ، والصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، وجعل الإيمان ما فى القلب من الايمان بالله ، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وهذا فى الحديث الذى رواه أحمد . عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الإسلام علانية ، والإيمان فى القلب » . وإذا ذكر اسم الإيمان مجرداً ، دخل فيه الإسلام والأعمال الصالحة ، كقوله فى حديث الشعب : « والإيمان بضعٌ وسبعون شعبة ، أعلاها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق » . وكذلك سائر الأحاديث التى يجعل فيها أعمال البر من الإيمان) .

إلى أن يقول الإمام متمماً :

(إذا عرف أن أصل الإيمان فى القلب ، فاسم الإيمان تارة يطلق على ما فى القلب من الأقوال القلبية والأعمال القلبية من التصديق والمحبة والتعظيم ، ونحو ذلك ، وتكون الأقوال الظاهرة والأعمال — لوازمه وموجباته ودلائله ، وتارة على ما فى القلب والبدن جعلا لموجب الإيمان

ومقتضاه داخلا فى مسماه . وبهذا يتبين أن الأعمال الظاهرة تسمى إسلاماً ، وأنها تدخل فى قسمى الإيمان تارة ولا تدخل فيه تارة) اﻫ .

بعد هذا التفسير الموجز ، نعود لنستكمل بحثنا حول التوحيد وأنواعه : وقد كانت رسالات السماء — كما عرفنا — تنزل إلى البشر تباعاً ، وهى تدعو أول ماتدعو إلى توحيد الله تعالى والإيمان المطلق به كخالق مبدع مدبر ، وكصانع مصور متفنن .. وما آمن إلا القليل ، حتى ختم الله كتبه بالقرآن الكريم الذى نزل به الروح الأمين على قلب سيد المرسلين : سيدنا محمد بن عبد الله — عليه أفضل الصلاة والسلام .. ومن آيات هذا الكتاب العظيم الفريد الذى لن يستطيع مخلوق أن يأتى بآية واحدة مثل آياته ولو استعانت أقوام بعضها ببعض — نتبين مطلب الوحدانية لله جل وعلا عبر العصور الأولى المتلاحقة :

وقد قال تعالى مخاطباً النبى موسى عليه السلام — : (إننى أنا الله لاإله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى) . وقال تعالى : (وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) . وقال تعالى : (وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياى فارهبون) . وقال تعالى : (ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه ، وهو على كل شىء وكيل) . وقال تعالى : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لاإله إلا هو سبحانه عما يشركون) . وقال تعالى عن الإسلام : (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) .. وقال تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ، قل إنما يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون ؟) . وقال تعالى : (هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة) . وقال تعالى : (فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين)

وكما رأينا فالآيات عديدة فى وحدانيته تعالى سواء منها ماجاء فى كتابه الكريم ، أو مانراه مفسراً واضحاً فى مخلوقاته ومن كائناته العجيبة التى تنطق بقدرته وعظمة صنعه .. (قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) . صدق الله العظيم .

والتوحيد ينقسم إلى ثلاثة أنواع : (الألوهية ، والربوبية ، والأسماء والصفات) .

فتوحيد الألوهية : هو توحيد الله تعالى بأفعال العباد . كالدعاء والرغبة والرهبة والتوكل والنذر والنحر والرجاء .. وقد حدث فيه نزاع وجدال امتداد من الزمن القديم إلى الحديث. ولكن الله تعالى يقول فى محكم آياته : (ذلك بأن الله هو الحق وأن مايدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير) . ويقول سبحانه : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) .

وتوحيد الربوبية : هو — توحيد بفعل الله تعالى ، وكان قد أقر به الكفار على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم — ولم يدخلهم ذلك فى الاسلام .. وفى ذلك قال تعالى : (قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ، سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون . قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، سيقولون لله ، قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ، سيقولون لله ، قل فأنى تسحرون) .

ويذكر الامام ابن تيمية بأن توحيد الربوبية هو من الحجة على أهل الكلام ، ثم يقول بأن هذا مايروى فى الحديث القدسى : (يا ابن آدم خلقت كل شيء لك وخلقتك لى ، فبحقى عليك أن لا تشتغل بما خلقته لك عما خلقتك له) .

أما توحيد الذات والأسماء والصفات : فهو — الايمان المطلق بما وصف به الله تعالى نفسه قولا وفعلا ، دون تأويل أو تحريف أو مشابهة .. وقد قال جل شأنه : (وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ماكانوا يعملون) . وقال تعالى : (الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى) . وقال تعالى : (يد الله فوق أيديهم) . وقال تعالى : (الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها) . وقال تعالى : (يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) .

ونكتفى بهذه الشواهد الجليلة من آيات القرآن الحكيم فيما قصدنا إليه . والتوحيد لا يكمل إلا بأنواعه الثلاثة .. مبدؤه : تصديق باللسان وإيمان بالقلب وعمل بالجوارح .. وغايته : عدم الاشراك بالله سبحانه وتعالى . كما جاء فيما رواه معاذ بن جبل عن رسول الله

صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : (أتدرى ماحق الله على عباده ؟ قلت الله ورسوله أعلم . قال : حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، أتدرى ماحق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : حقهم أن لايعذبهم) . وقد قال تعالى : (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة) . لأن خلقه فى حاجة دائمة إليه .. يجلب لهم النفع والخير ، ويبعد عنهم الشر والسوء ، ولا أحد سواه — سبحانه — يتصرف تصرفه ، وهو العليم القدير .. وقد قال عز من قائل : (قل أرأيتم ماتدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته) . له الأمر من قبل ومن بعد ، وإليه المصير .

يقول الامام ابن تيمية فى مساق حديثه الطويل عن التوحيد فى أكثر من كتاب من كتبه فى معالجة هذا الموضوع الهام :

(أما بعد .. فإنه لاسعادة للعباد ، ولا نجاة فى المعاد إلا باتباع رسوله . ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم . ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين . فطاعة الله ورسوله قطب السعادة التى عليه تدور ، ومستقر النجاة ، الذى عنه لاتحور ، فإن الله خلق الخلق لعبادته ، كما قال تعالى : (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) . وإنما تعبّدهم بطاعته وطاعة رسوله ، فلا عبادة إلا ماهو واجب أو مستحب فى دين الله ، وما سوى ذلك فضلال عن سبيله . ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » أخرجاه فى الصحيحين . وقال صلى الله عليه وسلم فى حديث العرباض ابن سارية الذى رواه أهل السنن وصححه الترمذى : « إنه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى تمسكوا وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة » . وفى الحديث الصحيح الذى رواه مسلم وغيره أنه كان يقول فى خطبته : « خير الكلام كلام الله وخير الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة » .

إلى أن يقول الإمام :

(فبمحمد صلى الله عليه وسلم تبين الكفر من الإيمان ، والربح من الخسران ، والهدى من الضلال ، والنجاة من الوبال ، والغى من الرشاد ، والزيغ من السداد ، وأهل الجنة من أهل النار ، والمتقون من الفجار ، وإيثار سبيل من أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، من سبيل المغضوب عليهم والضالين) .

ثم يقول الإمام موضحاً شيئاً من معانى الربوبية :

(إن الله تعالى هو الذى يجب أن يكون هو المقصود المدعو المطلوب ، وهو المعين على المطلوب ، وما سواه هو المكروه، وهو المعين على دفع المكروه ، فهو سبحانه الجامع للأمور الأربعة دون ماسواه ، وهذا معنى قوله : (إياك نعبد وإياك نستعين) فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب ، لكن على أكمل الوجوه ، والمستعان هو الذى يستعان به على المطلوب ، فالأول من معنى الألوهية . والثانى من معنى الربوبية ، إذ الإله : هو الذى يؤله فيعبد محبة وإنابة وإجلالا وإكراماً . والرب هو الذى يربى عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه إلى جميع أحواله من العبادة وغيرها ، وكذلك قوله تعالى : (عليه توكلت وإليه أنيب) . وقوله : (فاعبده وتوكل عليه) وقوله : (عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير) وقوله تعالى : (وتوكل على الحى الذى لايموت وسبح بحمده) وقوله تعالى : (عليه توكلت وإليه متاب) وقوله تعالى : (وتبتل إليه تبتيلا رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا) .. فهذه مواضع تنتظم هذين الأصلين الجامعين) اهـ .

كان ذلك عن التوحيد .. وضده الشرك بالله ـــ نعوذ به تعالى ونستهديه إلى صراطه العزيز الحميد ..

والشرك ينقسم إلى ثلاثة أقسام : أكبر ، وأصغر ، وخفى .

فعن الأكبر ـــ يقول الله جل شأنه : (إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيداً) .

وهو على أربعة وجوه : دعاء الله فى الأزمات فقط ، والنية بالإشراك به ، والقصد فى هذا ، وطاعة العباد فى معصية الله والمحبة ـــ كما قال تعالى فى عبادة هؤلاء : (إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى) . وفى حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن من أكبر الكبائر الشرك بالله والإضرار بالناس .

أما الشرك الخفى — فقد جاء ذكره فى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النملة السوداء ، على صفات سوداء ، فى ظلمة الأرض » .

كل أصناف هذا الشرك ، وكل ما أراد الملحدون إدخاله فى نظم الاسلام وتشريعاته إبّان عهد الامام ابن تيمية ، وقف عالمنا الفذ هذا تجاهه ، وحرض على مقاومته ، ودعا بدعوة الحق .. وحقق أهدافاً عظيمة فى كل مواقفه الجريئة المشرفة ، وقد قال فى ذلك .

(والله سبحانه وتعالى قد عاب فى كتابه من يدعو من لايستجيب له دعاءه . فقال تعالى : (ذلكم الله ربكم له الملك ، والذين تدعون من دونه مايملكون من قِطمير ، إن تدعوهم لايسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ، ولا ينبئك مثل خبير) . هذا مع أن الأصنام موجودة ، وكان يكون بها أحياناً شياطين تتراءى لهم وتخاطبهم . ومن خاطب معدوماً كانت حالته أسوأ من حال من خاطب موجوداً ، وإن كان جماداً ، فمن دعا المنتظر الذى لم يخلقه الله كان ضلاله أعظم من ضلال هؤلاء . وإذا قال : أنا أعتقد وجوده ، كان بمنزلة قول أولئك : نحن نعتقد أن هذه لها شفاعة عند الله ، فيعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم ، ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله) . إلى أن يقول الامام فى كشفه عن بعض الفرق التى يجب قتالها لتعود إلى توحيد الله بإخلاص ويقين : (والبدع متنوعة . فالخوارج ، مع أنهم مارقون ، يمرقون من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية ، وقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتالهم ، واتفق الصحابة وعلماء المسلمين على قتالهم ، وصح فيهم الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم من عشرة أوجه رواها مسلم فى صحيحه ، روى البخارى منها ثلاثة ، ليسوا ممن يتعمد الكذب ، بل هم معروفون بالصدق حتى يقال إن حديثهم من أصح الحديث ، لكنهم جهلوا وضلوا فى بدعتهم ، ولم تكن بدعتهم عن زندقة وإلحاد ، بل جهل وضلال فى معرفة معانى الكتاب) .

وفى كثير من تصانيف الامام الهادفة نجد الدفاع الحق عن دين الله وتوحيده تعالى — كما أراد وشاء عز وجل . وقد قال سبحانه : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم

وأموالهم بأن لهم الجنة) كما قال تعالى : (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين) .

وقد قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « والله إنى لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بحدوده » .. وهذا من كمال الايمان وتمام التوحيد ، فما أحرى كل مؤمن أن يقتدى بهدى رسالته صلى الله عليه وسلم ، ومواعظه الكبرى .

من أجل ذلك كله كان الامام ابن تيمية يصر على أن لا يترك دعوته الاصلاحية ، ويبذل كل ماوسعه ليحقق العزة لدين الله ، وإن ناله ماناله من تهجم وعدوان .. ولقد بلغ ما أراد ، وانتصر فى ظل التوحيد ، واكتسب من الفضل عند ربه مايغبطه ويحسده عليه حتى أقرانه ومن كانوا فى مرتبته ، فكان هو أبرزهم وأعظمهم وأكملهم على مدى سنين والأيام .

رده على المذهبيين والملاحدة

العصر الذى عاش فيه الامام ابن تيمية .. عصر الذّروة للنهضة الفكرية والصراع العقلى ، والتآليف الجمّة فى الفنون المتنوعة .. عصر بلغ فيه العقل قمته — كما سبق وعرفنا — بعد أن مهدت له العقليات المتفتحة المختلفة الاتجاهات ؛ قرابة خمسة قرون . . تباينت خلالها آراء المفكرين ، وتنوعت العقائد والشواهد .. وتعددت فيها المذاهب العقلانية والاسلامية والشيعية تعدداً جعل للحيرة الفكرية مجالها الواسع التى تضطرب فيه على هدى ، مرة ، وعلى غير هدى غالباً ..

كانت تسود فى هذا العصر مختلف النظريات والقواعد الايمانيّة والجدلية والفكرية ، تتصارع جنباً إلى جنب ، وتوجه التيارات لصالح كل منها : ولكل طائفة من العلماء مذهب تجنح إليه وتدعو له وتنافس الآخرين به ..

ولقد راعت الامام ابن تيمية هذه الدوامة الطائفية العاتية : يلف فيها رجال العلم وأهل الرأى ، ولكل فئة منهم أناس يتبعونها ويتشيعون لها .. ولكل من هذه الفئات مدرسة مذهبية تنطلق عنها الخطط والآراء والأفكار النابعة من عقيدة رجالها ودعاتها ..

لم يكن الامام ابن تيمية بالانسان العادى الذى يرى كل هذا الخليط الذهنى يتماوج ، ويصدر بمعارفه صواباً أم خطأ .. ويقف دون أن يصنع شيئاً تجاه هذا الطوفان العقائدى الذى يدور فى فلكه الناس على مختلف طبقاتهم ..

إن الامام هنا رجل العلم وبطل الميدان ورائد الاصلاح الدينى .. فلماذا لا يحمل سلاحه ويجرده على المارقين والزائغين عن أسس الشريعة الاسلامية الصحيحة ؟ يقول الله عز من قائل : (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ، إنما يتذكر أولوا الألباب) . ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف العالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين »

وشيخنا الامام ابن تيمية .. من هؤلاء : أولى الألباب : الذين يعلمون ، والعالم الذى لايشق له غبار .. ولابد من أن يعمل بما يعلم ..

إن أمامه من الفرق والمذاهب المتعددة — مايجمل أن نستخلصها هنا بإيجاز كتعريف بها .. وعلى رأس هذه المذاهب :

(الشيعة) وغلاتهم — تشيعوا للخليفة الإمام على بن أبى طالب [١] رضى الله عنه ، واعتقدوا بأن النبى صلى الله عليه وسلم أوصى له بالخلافة ، كركن من الدين ، وهى محصورة فى نسله . وهذى أولى أكاذيبهم ، لأن الواقع لم يقبل بأمثال هذا الكلام الساذج أو الأحمق .. بل إن ماورد حتى فى الأحاديث يدحض أقوالهم .

وقد تفرعت الشيعة إلى عدة فرق ، وأصبح لها رجالها الذين خططوا تشريعات كيفوها بمعتقداتهم المنحرفة ، وكأنما هم يقيمون ديناً جديدا خاصا بهم ، وقد انحرف بهم عن جادّة الشريعة الإسلامية — كما هو ثابت فى كتبهم ونظمهم المهزوزة .

إنّ لهم أموراً عجيبة لايمكن أن يرضى بها ذهن واع ولا قلب مؤمن مفكر — بل من يدينون بالإسلام قولا وفعلا — كما جاء به الرسول الأعظم — عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم وشرّعه للعالمين .

إن عقائدهم المتلوّنة عبارة عن حماقات ومخطّطات ساذجة ابتدعوها ، وما أنزل الله بها من سلطان .. ولقد نشأت فى الأصل كإجراء سياسى — يقاومون به غيرهم رغبة فى التسلط أو السيادة .. ثم أخذت هذه الحماقات تتكرر وتصبح أصولا لدياناتهم العجيبة .. ومن أهمها القول (بالتقية) — أى أن يظهر الشيعى إذا اجتمع بمخالفيه — غير مايبطن . وبها يفسرون أحداث التاريخ ويقررون مايشاءون من مفاهيم لمعانى القرآن الكريم .. فيؤولون بعض آياته لصالح عقيدتهم ، كما صنع كبير الشيعة الذى يجمع بين الرفض والاعتزال : ابن مطهر الحلى [٢] — فى كتابه (منهاج الكرامة فى معرفة الإمامة) ،

---

(١) الخليفة الرابع ، ولد بمكة المكرمة قبل الهجرة بثلاثة وعشرين عاما ؛ واستشهد فى رمضان سنة ٤٠ هـ ؛ بعد أن ولى الخلافة قرابة خمسة أعوام . وقد جمع خطبه القيمة الشاعر المعروف الشريف الرضى فى كتاب باسم (نهج البلاغة) ويعتبر هذا مرجعا جيدا فى بابه وكان الإمام على يستنكر من غلاة الشيعة تأليهم له ؛ وقد حرقهم بالنار — كما يروى الإمام ابن تيمية — وقال فيهم :

(لما رأيت الأمر أمرا منكرا   أججت نارى ودعوت قنبرا)

(٢) هو جمال الدين أبو منصور الحسن بن يوسف — ولد بالنجف سنة ٦٤٨ هـ وتوفى سنة ٧٢٦ هـ ومعظم كتبه تدور حول مذهبه الشيعى ؛ وتقرير مايصلح من المذاهب لتأييده .

الذى نقده الإمام ابن تيمية ، ونقض دعاواه فى الإمامة ، بكتابه الضخم : (منهاج السنة النبوية — فى نقد كلام الشيعة القدرية) ، وأظهر فيه كل الأباطيل التى ادعاها الحلى فى كتابه وقد حاول أن يثبت الإمامة بتأييد القرآن للإمام على بن أبى طالب ، ولنسله ، كما قرر بأن مذهب الإمامية ، أحسن المسائل الأصولية والفروعية ، وأصدق المذاهب وأعظمها تنزيها لله تعالى ولرسله ولأوصيائه .. وقد عرض (الحِلِّى) إلى الحط من مقام أكثر الصحابة الأجلاّء من الخلفاء : من أبى بكر وعمر وعثمان[1] — رضى الله عنهم — إلى السيدة عائشة وخالد بن الوليد ومعاوية .. وسواهم من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

وهكذا يتضح لنا من كتاب الحلى — أن الشيعة يرون فى الامامة أنها أرفع من النبوة ، وأن الأئمة معصومون لحد المغالاة ..

وهؤلاء الشيعة أنفسهم من الامامية — انقسموا إلى فرق عديدة ، من كبارها الموسوية والاسماعيلية[2] التى انقسمت أيضاً إلى فرقتين : إحداهما ادعت بأن إسماعيل بن جعفر[3] لم يمت ، بل إنه أظهر الموت تُقية . والثانية تقول إنه مات ، وإن الامامة من بعده لابنه محمد بن إسماعيل — وتسمى هذه الفرقة (المباركية) .. وهنالك فِرقٌ تتناقض عقائدها كما رأينا — وكلها على ضلال .

ولهذا لم يسكت الإمام ابن تيمية ، وحق له أن لايسكت .. فراح يفند مزاعم (الحلى) ويتتبع كل دعوى زائغة بالرّد المفحم المؤيد بالبرهان من كلام الله — جل شأنه — وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام .. حتى لقد قال عن كتاب الحلى : وهو خليق بأن

---

(١) فى عهد الخليفة عثمان بن عفان — رضى الله عنه ، اتسعت الفتوحات الإسلامية إلى مصر وليبيا والبحر المتوسط وهو الذى جمع القرآن ؛ وأمر بترتيبه وكتابته ؛ وقد قتله الثائرون فى منزله بالمدينة سنة ٣٥ هـ . أما الخليفة عمر بن الخطاب — رضى الله عنه ، فقد قتله سنة ٢٣ هـ أبو لؤلؤة المجوسى ، بتآمر من دولتى الفرس والروم ، اللتين أطاح بهما الفتح الإسلامى فى عهده . وكانت خلافته ١٠ سنوات .

(٢) الإمامية عند الموسوية لموسى الكاظم بن جعفر الصادق ، وعند الإسماعيلية لإسماعيل بن جعفر

(٣) والده : جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين على بن الحسين بن على بن أبى طالب له مؤلفات فى الرد على القدرية والخوارج وعلى الغلاة من الروافض ، ولد بالمدينة سنة ٨١ هـ ، وتوفى سنة ١٤٨ هـ .

يسمى (منهاج الندامة) . إلى أن يقول ــ وهو يعنى الشيعة : (ومن أعظم خبث القلوب أن يكون فى قلب العبد غل لخيار المؤمنين وسادات أولياء الله بعد النبيين ، ولهذا لم يجعل الله تعالى فى الفيء نصيباً لمن بعدهم ، إلا الذين يقولون : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم . ولهذا كان بينهم (أى الشيعة) وبين اليهود من المشابهة فى الغلو والجهل واتباع الهوى) .

ويحدثنا الإمام عن السبب الرئيسى الذى دفعه إلى تأليف كتابه منهاج السنة ــ فيقول فى مقدمته :

(أما بعد ، فإنه قد أحضر إلىّ طائفة من أهل السنة والجماعة ، كتابا صنفه بعض شيوخ الرافضة فى عصرنا ، منفقا لهذه البضاعة ، يدعو به إلى مذهب الرافضة الإمامية ، من أمكنه دعوته من ولاة الأمور وغيرهم أهل الجاهلية ، ممن قلت معرفتهم بالعلم والدين ، ولم يعرفوا أصل دين المسلمين ، وأعانه على ذلك مَنْ عادتُهم إعانة الرافضة من المتظاهرين بالإسلام من أصناف الباطنية الملحدين ، الذين هم فى الباطن من الصابئة الفلاسفة الخارجين عن حقيقة متابعة المرسلين ، الذين لا يوجبون اتباع دين الإسلام ، ولا يحرمون اتباع ماسواه من الأديان ؛ بل يجعلون الملل بمنزلة المذاهب والسياسات التى يسوغ اتّباعها ، وأن النبوّة نوع من السياسة العادلة التى وضعت لمصلحة العامة فى الدنيا) .

ولو رحنا نستقصى ادعاءات الحلى الغريبة فى كتابه ، والردود القوية التى قال بها الإمام ابن تيمية ، لاحتجنا إلى تصنيف كتاب مفرد ــ لا يقل عن كتاب الإمام فى ضخامته . والذى كان يشهد به حتى خصومه .. ومنهم العلامة السبكى ، الذى أيد الإمام فى نقده ، وصادق على معظم أقواله ، بل وراح يعلن إعجابه فى قصيدة ، ولكنه عمد إلى أن يضمنها مآخذه الخاصة على كتاب (منهاج السنة النبوية) بأن نسب الحشو لأقوال الإمام ــ مما ليس يعنينا هنا . قال السبكى فى مطلع قصيدته : (وهى على بحر البسيط) :

(إن الرّوافض قومٌ لا خلاق لهم — من أجهل الناس فى علم وأكذبهِ
وابن المطهر لم تطهر خلائقه — داع إلى الرفض غال فى تعصّبهِ
لقد تقوّل فى الصحب الكرام ولم — يستحى مما افتراه غير منجبهِ

ولابن تيمية رد عليه وفىٌ بمقصد الرّدّ واستيفاء أضربه)

ثم استطرد فى اتهام الإمام بالخلط والحشو — إلى أن يقول :

(لو كان حيا يرى قولى ويسمعه رددت ما قال ردّاً غير مشتبهِ)

وهذا يدلنا على أن السبكى قال ما قال فى غير حياة الإمام — وإلاّ لما صمت الإمام عن الرد عليه .. غير أن تلميذين من تلامذة الإمام ، راحا يردان على السبكى بقصيدتين من نفس الوزن والرَّوى — :

الأول هو أبو عبد الله محمد بن جمال الدين يوسف الشافعى اليمنى — فهو يقول فى قصيدته يعنى السبكى ثم الإمام :

(فاستحسن الرد حتى راح يمدحه بما أزال من الأشكال والشّبهِ
لكنه بعد هذا المدح خالفه وقال أبيات شعر غير منجبهِ)

إلى أن يقول راداً على السبكى :

(يا أيها الرجل الحامى لمذهبهِ ألزمت نفسك أمراً ما أمرت بهِ
تقول فى باغضى صحْب الرسول ومن يرى مسبتهم أصلا لمذهبهِ
والناس فى غنية عن ردّ إفكهمو هذا هو الإفك لكن ماشعرتَ بهِ)

ثم يقول السبكى فى قصيدته موضحاً موقف الإمام من القضايا التى نقده فيها :

(لو كان عندك إنصافٌ ومكرمة وجود معرفة أو ذهن منتبهِ
لكنتَ تقفو وراه قفو مجتهد علماً وديناً وأمراً تفلحنَّ بهِ
لو وفق الله أهل الأرض قاطبة إلى الصواب لساروا خلف مذهبهِ
وما نسبتم إليه عند ذكركمو ترك الزيارة أمرٌ لايقول بهِ
فقد أجابكمو عن ذا بأجوبة أزال فيها صدى الإشكال والشبهِ
وقد تبيّن هذا فى مناسكه لكل ذى فطنة فى القول معربهِ
رميتموه ببهتان يشان به فالله ينصفه مما رماه بهِ)

هذا دفاع صادق عن مقاصد الإمام فيما دعا إليه وهذّبه من معتقدات القوم الضالة ..

ومثل هذا نجده أيضاً فى القصيدة الأخرى التى رد بها العلامة يوسف بن محمد بن مسعود

السرمري[1] — على قصيدة السبكي — وسماها (الحمية الإسلامية فى الانتصار لمذهب ابن تيمية) .. وفيها يقول :

(يا أيها المعتدى قولا ومعتقدا   على ابن تيمية ظلماً ومذهبـه
بيِّنْ لنا بصريح القول معتمد الإنـصاف   والعدل فيه ماتريد بهِ
الغضّ منه ، فهذا لايجوز ، أم التـحقيق للحقّ   ، فاسلك نهج سبسبهِ
شهدت بالفضل فيه ثم جئت بما   ينفيـه ، فعل غوىّ فى تلعُّبهِ)

إلى أن يقول ذاكراً بعض أفضال الإمام :

(هذى تصانيف هذا الشيخ سائرة   بشرق ذا الكون لاتخفى ومغربهِ
صفوٌ بلا كدر طابتْ مواردها   لذيذة كجنى نحـلٍ وأعـذبهِ
دليلها الآى والأخبـار ساقتها   والعلم يعرض فيهـا خيل موكبهِ
لـكن عيون العدا تبدى المحاسن فى   ثوب المسىء ، فأعجب من تقلّبهِ
انظر بعين الرضا تبصر بها عجبا   فأعين السخط عمىٌ عن تعجّبهِ)

والقصيدة فى ١٣٧ بيتاً ، راعى فيها صاحبها أن يجمل بها كل المسائل التى كان الإمام ابن تيمية قد تحدث فيها والفتاوى التى قال بها ، وما تصدى له من قضايا ومذاهب نقدها أشد النقد ، وأبان الحقيقة الشرعية فى كل ما جاء به الدين الحنيف دون اختراع أو تدجيل أو اختلاق فيه بشيء .

من أجل ذلك كان الإمام قاسياً على فرقة الشيعة القدرية ، وبسط القول العدل فى كتابه الجامع (منهاج السنة النبوية) يسفّه آراء الحلى ويكشف البدع التى زخر بها مؤلفه (منهاج الندامة) وافتراءاته على أهل السنة والجماعة .. ولذلك قال الإمام ابن تيمية فى كتابه يوضح مكانة رافضة الشيعة بقوله :

(وفضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلتين : سئلت اليهود : من خير أهل ملتكم ؟ قالوا : أصحاب موسى . وسئلت النصارى : من خير أمتكم ؟ قالوا : حواريو عيسى . وسئلت الرافضة : من شر أهل ملّتكم ؟ قالوا أصحاب محمد .. أمروا — أى

---

(١) من مواليد سنة ٦٩٦ هـ — وقد توفى سنة ٧٧٦ هـ

الرافضة ـــ بالاستغفار لهم ـــ أى الصحابة ـــ فسبّوهم ، والسيف عليهم مسلول إلى يوم القيامة لاتقوم لهم راية ، ولا يثبت لهم قدم ، ولا تجتمع لهم كلمة ولا تجاب لهم دعوة ، دعوتهم مدحوضة ، وكلمتهم مختلفة ، وجمعهم متفرق كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله) .

ويزيدنا الإمام تعريفاً بالرافضة ـــ بعد أن استعرض العديد من حماقاتهم وادعاءاتهم الجاهلية ـــ قال :

(ونحن نبين إن شاء الله تعالى طريق الاستقامة ، فى معرفة هذا الكتاب (منهاج الندامة) بحول الله وقوته . وهذا الرجل ـــ يعنى الحلى ـــ سلك مسلك سلفه شيوخ الرافضة كابن النعمان المفيد ، ومتبعيه : كالكراجكى وأبى القاسم الموسوى والطوسى (١) وأمثالهم : فإن الرافضة فى الأصل ليسوا أهل علم وخبرة بطريق النظر والمناظرة ومعرفة الأدلة وما يدخل فيها من المنع والمعارضة ، كما أنهم من أجهل الناس بمعرفة المنقولات والأحاديث والآثار والتمييز بين صحيحها وضعيفها . وإنما عمدتهم فى المنقولات على تواريخ منقطعة الإسناد ، وكثير منها من وضع المعروفين بالكذب بل وبالإلحاد ، وعلماؤهم يعتمدون على نقل مثل أبى مخنف لوط بن يحيى وهشام بن محمد بن السائب (٢) وأمثالهما من المعروفين بالكذب عند أهل العلم مع أن أمثال هؤلاء هم منْ أجل مَنْ يعتمدون عليهم فى النقل ، إذ كانوا يعتمدون على من هو فى غاية الجهل والافتراء ممن لايذكر فى الكتب ولا يعرفه أهل العلم بالرجال .. وقد اتفق أهل العلم بالنقل والرواية والإسناد على أن الرافضة أكذب الطوائف . والكذب فيهم قديم . ولهذا كان أئمة الإسلام يعلمون امتيازهم بكثرة الكذب) .

ثم يستشهد الإمام بأقوال عدد من العلماء والرواة المؤيدة لأن الرافضة يدينون

---

(١) الطوسى : هو أبو جعفر محمد بن الحسن ـــ شيخ الإمامية ، توفى سنة ٤٦٠ هـ ، وأبو القاسم الموسوى ـــ اسمه : على بن الحسين بن موسى ، توفى سنة ٤٣٦ هـ ـــ والكراجكى ـــ هو أبو الفتح محمد ابن على ، توفى سنة ٤٤٩ هـ ، وكلهم تلاميذ محمد بن محمد بن النعمان المفيد المتوفى سنة ٤١٣ هـ

(٢) أبو مخنف ـــ توفى سنة ١٦٩ هـ ، وابن السائب توفى سنة ٢٠٤ هـ وهما رافضيان ولا يوثق بما ينقلانه قط ـــ كما يقول المؤرخون.

أصولهم على الكذب والافتراء ، إلى أن ينقل قول الجاحظ[1] فى كتابه (الحجج فى النبوة) عنهم :

(ليس على ظهرها رافضىّ إلا وهو يزعم أن ربه مثله ، وأن البدوات تعرض له ، وأنه لايعلم الشيء قبل كونه إلا بعلم يخلقه لنفسه) وقد كان ابن الراوندى وأمثاله من المعروفين بالزندقة والإلحاد صنفوا لهم كتباً أيضاً على أصولهم) .

ويستطرد الإمام فى عرض أقوال هؤلاء الرافضة من غلاة الشيعة ، والتى تكشف أسرار معتقداتهم حتى فى القدر والصفات والأصول الفقهية وأمثالها . وقد أزاغ الله قلوبهم وأعمى أبصارهم ، فتنكبوا عن جادّة الحق ، وعمدوا إلى جاهليتهم يفتون ويشرعون ، ويختلقون الأحكام كما يحلو لهم أن تكون .

فمن أقوالهم عن الإمامة : (إن مسألة الإمامة أهم المطالب فى أحكام الدين ، وأشرف مسائل المسلمين) .

ويرد الامام ابن تيمية على ذلك بأنه : (كذب بإجماع المسلمين سنيهم وشيعيهم ، بل هو كفر . فإن الإيمان بالله ورسوله أهم من مسألة الإمامة ، وهذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام . فالكافر لايصير مؤمناً حتى يشهد بأن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ..) .

وكذلك كان الإمام يمسك بكل مقالة لهم يفنّدها ويعقب عليها بأسطع البراهين ، بعد أن ينقضها ويحمل على بطلانها وانحرافاتهم المضللة .

وإننا لنكتفى بالقدر اليسير الذى ذكرناه[2] للدلالة على ماهم فيه (أى الشيعة القدرية) من إفك وعبث وفساد فى المعتقدات الملحدة فى أكثرها ، وعلى ما جاء فى سفر الإمام ابن تيمية الجليل من إيضاح لزيف هؤلاء الشيعة ، ومن بيان لصحة العقائد التى أوضحها ، وشرح لكل الملابسات التى حاول أولئك المغرضون إلصاقها بمناهج الدّين المقدسة .

---

(١) هو أبو عثمان عمرو بن بحر — من كبار أعلام الأدب العربى الأوائل ، وصاحب (البيان والتبيين) ، ولد بالبصرة سنة ١٥٩ هـ ، وتوفى سنة ٢٥٥ هـ .

(٢) على أننا سننقل فصلا مما رد به الإمام على هؤلاء فى أحد أبواب كتابنا ، التالية .

وقد قال أيضاً الشيخ القصيبى - المعاصر - عن ذلك فى كتابه (الصراع) .

(كان الرجل يعنى ابن تيمية - مهاجما عنيفاً قوياً ، وكانت حياته وكتبه مهاجمة عنيفة متواصلة الحلقات ، وأى شىء كان فى ذلك العصر لايجب الهجوم عليه لإصلاحه ولتنقيته مما أصابه من الأخلاط والأوضار الضارة الفاسدة ؟) .

إلى أن يقول : (وقد زادت العداوات والخصومات به ضراوة واستعارة ما كان عليه من المجاهرة بالحق ومصادقة الحق) .

وكذلك كان هو موقف الإمام فى كل مجال يستلزم أن يقف عنده : مصلحاً أو موجهاً أو ناقداً . فهو لكل منحرف أو مبتدع أو كاذب - بالمرصاد .

ومن فرق الشيعة التى اشتد الإمام فى الرد عليها :

(الباطنية الملحدين) : الذين اعتقدوا أن لكل تنزيل تأويلا ولكل ظاهر من الكتاب باطنا ، وهم فى الباطن من الفلاسفة الصابئة الذين يرون عدم وجوب اتباع الدين الإسلامى ، دون تحريم لاتباع دين غيره . وهنالك فرق كبير بين هؤلاء الصابئة وبين (الصابئة الموحدين) الذين ذكرهم الله فى القرآن الكريم .

(القرامطة) : فرع من الباطنية ، ترجع نسبتهم إلى حمدان بن الأشعث القرمطى[1] .

(الجبرية) : فرقة تنكر الاختيار ، بخلاف القدرية ، فلا يفرقون بين الإنسان والحيوان ، وإن الإنسان عندهم ليس له قدرة على العمل أو تركه بل هو مجبر .

(الجهمية) : يعتقدون بالجبرية ونفى الصفات وفناء الجنة والنار ، ترجع نسبتهم إلى الجهم بن صفوان[2] .

(القدرية) : ينكرون القدر والقضاء ، ويقررون بأن كل إنسان خالق لفعله وله إرادته فى العمل أو تركه .

(المجسمة) : يعتقدون بأن الله جسم من الأجسام ، وكذا تقول خمس فرق من الشيعة .

---

(١) القرمطى - مؤسس الإسماعيليين القرامطة ، وقد توفى حوالى عام ٢٧٧ هـ .

(٢) قتل الجهم سنة ١٢٨ هـ ، وكان قد أخذ أكثر آرائه عن الجعد بن درهم .

(المعتزلة) : اعتقدوا بخلق القرآن ، واتخذوا العقل قياساً ، وانعزلوا برأيهم فى عقائد الدين عن الجماعة . وترجع نسبتهم إلى واصل بن عطاء[١] .

(المرجئة) : يعتقدون بأن المؤمن لايفقد إيمانه بالمعاصى . وهم يرجئون العمل عن الإيمان .

(النصيرية) : من غلاة الشيعة ، يرون ظهور الحق بتأليه الإمام على بن أبى طالب والأئمة — وقد رد عليهم الإمام ابن تيمية أيضاً فى مؤلف خاص بهم دعاه (الرسالة النصيرية) . كما تناولهم فى كتابه منهاج السنة النبوية بالنقد الواجب .

ولقد رد الإمام على غيرهم من أصحاب المذاهب المختلفة التى ذكرناها ، وانتقدهم وفند ضلالاتهم فى كتبه من أمثال : (بغية المرتاد فى الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية ، ونقد تأسيس الجهمية ، وحقيقة مذهب الاتحاديين أو وحدة الوجود وبطلانه بالبراهين النقلية والعقلية ، ونصيحة أهل الإيمان فى الرد على منطق اليونان) وفى كتابيه أيضاً : (نقض المنطق ، والرد على المنطقيين) .

وفى مقدمة الكتاب الأخير هذا يقول الإمام شارحا بداية تأليفه له :

(أما بعد — فإنى كنت دائماً أعلم أن المنطق اليونانى لايحتاج إليه الذكى ، ولا ينتفع به البليد ، ولكن كنت أحسب أن قضاياه صادقة لما رأيت من صدق كثير منها ، ثم تبين لى فيما بعد خطأ طائفة من قضاياه ، وكتبت فى ذلك شيئاً ، ثم لما كنت فى الإسكندرية[٢] اجتمع إلى مَنْ رأيته يعظم المتفلسفة بالتأييد والتهويل ، فذكرت له بعض مايستحقونه من التجهيل والتضليل ، واقتضى ذلك أنى كتبت فى قعدة بين الظهر والعصر من الكلام على المنطق ماعلقته تلك الساعة ، تعقبته بعد ذلك فى مجالس إلى أن تم ، ولم يكن ذلك من همتى ، إنما همتى فيما كتبته عليهم فى (الإلهيات) وتبين لى أن كثيراً مما ذكروه فى أصولهم فى الإلهيات وفى المنطق هو من أصول فساد قولهم فى الإلهيات مثلما ذكروه من تركيب الماهيات ، من الصفات التى سموها ذاتيات ، وما ذكروه من (الحدود والأقيسة

---

(١) ولد واصل بالمدينة سنة ٨٠ هـ ، ثم غادرها إلى البصرة وبها توفى سنة ١٣١ هـ .

(٢) سنة ٧٠٩ هـ — عندما كان رحمه الله — بالسجن هناك .

والبرهانيات) بل فيما ذكروه من الحدود التي تعرف بها (التصورات) بل ماذكروه من صور القياس وموارده اليقينيات . فأراد بعض الناس أن يكتب ماعلقته ، إذ ذلك من الكلام عليهم فى المنطق ، فأذنت فى ذلك ، لأنه يفتح باب المعرفة الحق ، وإن كان مافتح من باب الرد عليهم يحتمل أضعاف ماعلقته تلك الساعة) .

ويوضح الإمام ضلال ما كان عليه أولئك الفلاسفة — فيقول فى كتابه منهاج السنة النبوية) :

(لكن الذى لاريب فيه أن هؤلاء أصحاب التعاليم — كأرسطو وأتباعه — كانوا مشركين يعبدون المخلوقات ولا يعرفون النبوّات ولا المعاد البدنى ، وأن اليهود والنصارى خير منهم فى الإلهيات والنبوات والمعاد . وإذا عرف أن نفس فلسفتهم توجب عليهم أن لايقولوا بقدم شىء من العالم ، علم أنهم مخالفون لصريح المعقول ، كما أنهم مخالفون لصحيح المنقول ، وأنهم فى تبديل القواعد الصحيحة المعقولة ، من جنس اليهود والنصارى فى تبديل ماجاءت به الرسل ..) .

أما كتاب الإمام — الرّدّ الأقوم على مافى كتاب (نصوص الحكم) لابن عربى ، أو لابن العربى[1] ، فقد عنى فيه بإيضاح الكثير من أغلاط بعض الصوفية ومغالاتهم ، ومن دعاوى مذهب أهل الوحدة وأهل الحلول وأهل الاتحاد — ويقول الإمام عنهم فى كتابه هذا — بأن :

(هؤلاء نوعان : نوع يقول بذلك مطلقا ، كما هو مذهب صاحب النصوص ابن العربى أو ابن عربى ، وأمثاله ، مثل ابن سبعين ، وابن الفارض ، والقونوى ، والششترى ، والتلمسانى[2] ، وأمثالهم ممن يقول : إن الوجود واحد . ويقولون : وجود المخلوق هو

---

(١) هو أبو بكر محيي الدين محمد بن على بن محمد الحاتمى الطائى الأندلسى ، ولد بمرسية سنة ٥٦٠ هـ ، وتوفى بدمشق سنة ٦٣٨ هـ .

(٢) التلمسانى — هو عفيف الدين سليمان بن على — من شعراء الصوفية ، توفى سنة ٦٠٩ هـ . والششترى — هو على بن عبد الله ، توفى سنة ٦٦٨ هـ . والقونوى — هو محمد بن إسحاق ، توفى سنة ٦٧٣ هـ . وابن الفارض — هو عمر بن الفارض : الشاعر المعروف ، ولد بالقاهرة سنة ٥٧٦ هـ ، وبها توفى سنة ٦٣٢ هـ . وابن سبعين — هو أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم ، توفى بمكة سنة ٥٦٧ هـ . وكلهم كانوا يعتقدون بوحدة الوجود .

وجود الخالق ، لايثبتون - موجودين خلق أحدهم الآخر . بل يقولون : الخالق هو المخلوق ، والمخلوق هو الخالق) . نعوذ بالله .

فى مؤلفات الإمام النقدية الهادفة ، نلمس العقلية الكبيرة التى يتمتع بها - إلى جانب ثروته العلمية . وقد توسع فى دراساته لتلك المذاهب المتناقضة ليسبر أغوارها ، ويدرك مدى الهوة السحيقة ، التى تردى فيها أصحابها ، وقد جانبوا الحق والهدى . وضل العقل والفلسفة ببعضهم ، وانحرف البعض الآخر مع الجهل والعاطفة ، فاعتقدوا بأمور مغايرة للنهج الذى أقامته الشريعة الإسلامية ، وتمادوا فى التعصب ، حتى أنشأوا لهم طرقا ومبادئ يسيرون على مخططاتها وهديها - أو على الأصح لما فيها من ضلالات وحماقات وأخطاء ..

فهم - وهذا حالهم - قد جانبوا التفسير الصحيح لمبادئ الدين الحنيف ولمعانى آيات الله البيّنات وأحاديث الرسول العظيم الهادى بدين الحق - ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون والمتمذهبون .

بقوة الإيمان والغيرة على المقدسات ، جاهد الإمام ابن تيمية أرباب كل تلك المذاهب العجيبة المخالفة للدين الإسلامى ولما جاء به من مثل عليا . وهاجم عقائدهم المصنوعة بأفكارهم ومفاهيمهم - كمصلح يعمل فى ثقة واقتناع بما يقول . ويوجه ويدعو وينتقد . ونظريته فى كل ذلك (العقل الذى لايخالف الشرع) .

واستناداً إلى نظريته هذه راح أيضاً يقتحم على الفلاسفة مجالاتهم ، وعلى المتصوفة المنحرفين ميدانهم . وهو الدارس الفاهم لكل ماقد صدر عنهم وماكانت عليه أسس مناهجهم وأصولهم وآرائهم . سواء فى الفلسفة أو التصوف . فإن الرجل العلامة محيط بكل علومهم منذ كانت وإلى ما انتهت إليه . ولهذا نجده يرد عن علم ووعى نادرين - يصحح لهم معتقداتهم ، وينفى مالا إسناد له من كتاب الله الكريم أو من سنة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وما لم يكن له هدف إصلاحى للمجتمع الإسلامى بوجه عام .

ذلك كان هو منهج الإمام ابن تيمية القويم دائماً ، وسَنَنه : الذى عالج به كل قضية من قضايا العقل أو الدين . وكأننا به ينظر عميقاً إلى قول الله - عز من قائل :

(ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً) .

ويالها من رفقة فى النعيم المقيم الذى يأمل فيه كل عالم مصلح ـ وهو ينفذ تعاليم ربه النذير البشير كما أوحى بها وأنزلها وأرادها لهدى خلقه وإسعادهم فى الأولى والآخرة . ومن خرج عليها أو عارض بعضها أو استحدث أمراً فيها فقد خسر خسراناً مبيناً .

ولم يقف الإمام ابن تيمية ـ عند حد نقد تلك المذاهب وحدها وحسب ، بل لقد تعداها إلى الزائغين من النصارى والمسيحيين ، بعد أن درس الكتب السماوية الأولى مثل : الزبور والتوراة والإنجيل دراسة مفكر نابغة . ثم نراه يضع كتاباً خاصاً فى (الرد على النصارى) ويؤلف كتاباً آخر عن (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) . يخطئهم فى تصرفاتهم ، ويحاججهم من كتبهم نفسها ، ويشرح المقاصد التى أرادها الله فى هذه الكتب من الحكم والإرشادات بعد توحيده تعالى ، كما بَيَّن لهم التحريف والمسائل الكفرية التى أدخلوها على كتبهم بحيث أصبحت مشوّهة فى معظمها . ومن هنا كانت أخطاء اللاحقين منهم زائدة لعدم معرفة الحقيقة . وليس لهم ماينبهم إلى ماهم فيه من ضلال وانحراف يؤديان بهم إلى الكفر الصريح ـ وهم فى إصرارهم لايعترفون بغير ما انحرفوا إليه .

فكيف يقبل لهم قول أو يؤخذ لهم برأى ؟ وهم يخالفون ماقد أنزل أصلا من رسالات مقدسة على أنبياء الهدى ـ صلوات الله عليهم . وقد قال تعالى : (إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) .

وكما لارهبانية فى الإسلام . كذلك لاعقائد ولا شرائع لغيره . ولا سيطرة للعقل عليه . لاتَمَذْهب أو تعصّب . ولا ميل مع الهوى يتنكب من جادة الحق ولا عن السبيل السوّى (فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما أنا عليكم بوكيل) صدق الله العظيم .

لقد كان الإمام ابن تيمية مثلا يحتذى فى الأمانة العلمية والإخلاص لله ولدينه . ولذا لم يكن يرضيه أن يسكت على أى تهاون أو اعتداء أو انحراف تتعرض له مقوّمات هذا الدين وتشريعاته السماوية العظمى .

لهذا جاهد جهاد المستميت ، وقابل كل إيذاء بصلابة نادرة ، فأدى رسالته كرائد إسلامى له خطره ، ورجل دين يرضى لرضاء الله ويغضب لغضبه ، وكان من حق الحق عليه أن انتصر وكسب المعركة من كل جوانبها .



ضوء على السياسة الشرعية

لم يترك الإمام ابن تيمية — جانباً من جوانب الدين الحنيف ، والحياة الإسلامية — بوجه عام ، لم يتحدث فيه ويقول فيه برأى ، أو يصدر عنه حكما يفيد منه الناس ؛ سواء فى أمور عباداتهم أو معاشهم أو قضاياهم الاجتماعية العامة أو السياسية الحاكمة .

وقد طالعنا بكتابه (السياسة الشرعية) يتناول فيه شئون الدولة الناجحة ، ومايجب أن يكون عليها من الولاة والمسئولين الأمناء لحقوق الرعية ، ومطلب العدالة لها ، وقيام الحكم فيهم بالحسنى والإصلاح والتيسير عليهم . وفى الحديث الشريف : « كلكم راع وكلّ مسئول عن رعيته » .

وقال الإمام ابن تيمية عن ذلك فى كتابه :

(وقد دلت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن الولاية أمانة يجب أداؤها ، فى مواضع مثل ماتقدم ، ومثل قوله لأبى ذر الغفارى — رضى الله عنه — : « إنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة ، إلا من أخذها بحقها ، وأدى الذى عليه فيها » . رواه مسلم .

ذلك أن العدل بين الناس والسعى لخيرهم وإبعاد الضر عنهم من أسس الحكم الصالح الذى يستهدف عزتهم ورفعة الوطن وكرامة حياة المجموع . والحاكم مسئول أول فى تولية أمرائه وقضاته . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من ولى من أمر المسلمين شيئاً ، فولى رجلا وهو يجد من هو أصلح منه ، فقد خان الله ورسوله » .

وبهذا كان يدعو الإمام — وهو يفسر العناصر السليمة التى يتكون منها كيان الدولة الصالحة لتعمل بإخلاص فى مختلف المجالات الحياتية ، وتدافع عن نفسها وعمن ترعاهم ولنسمعه يقول من كتابه ذاك أيضاً :

(القوة فى كل ولاية بحسبها ، فالقوة فى إمارة الحرب ترجع إلى شجاعة القلب ، وإلى الخبرة بالحروب والمخادعة فيها ، فإن الحرب خدعة ، وإلى القدرة على أنواع القتال ونحو ذلك ، كما قال تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) وقال النبى

صلى الله عليه وسلم : « ارموا واركبوا ، وإن ترموا أحبّ إلىّ من أن تركبوا ، ومن تعلم الرمى ثم نسيه فليس منا » — والقوة فى الحكم بين الناس ترجع إلى العلم بالعدل الذى دل عليه الكتاب والسنة وإلى القدرة على تنفيذ الأحكام) .

لهذا الدليل الإيمانى ترجع كل أمور حياتنا . لأنه دستورنا السماوى الذى كمل وشرف على كل ماصنع الإنسان من نظم ودساتير . بل إنه يعتبر دستوراً جامعاً للإنسانية جمعاء ، صالحاً لكل مصر وعصر . ويقرر الإمام أن للولاية ركنين : هما : القوة والأمانة : لقوله تعالى : (إن خير من استأجرت القوى الأمين) . ومن ثم فهو يرى أن رفعة شأن الدين فى الدولة لاتأتى إلا من صلاحية الولاية والحكم النزيه ، وهذا مانجده واضحاً فى قوله :

(ويجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين ، بل لاقيام للدين إلا بها ، فإن بنى آدم لاتتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض ، ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس ، حتى قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمّروا أحدهم » . فأوجب النبى صلى الله عليه وسلم تأمير الواحد فى الاجتماع القليل العارض فى السفر ، وتنبيهاً بذلك على سائر أنواع الاجتماع ، ولأن الله أوجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والعدل ، وإقامة الحج ، والجمع والأعياد ، ونصر المظلوم وإقامة الحدود ، وهذا لايتم إلا بالقوة والإمارة) .

إلى أن يقول الإمام :

(فالواجب فى كل ولاية الأصلح بحسبها ، فإذا تعين رجلان أحدهما أعظم مكانة والآخر أعظم قوة ، قدم أنفعهما لتلك الولاية) .

ونعرف بعد ذلك تفضيل ولاية القوى الشجاع فى الحروب — وإن كان فاجرا — لأن فجوره على نفسه ، وقوته للمسلمين . كذلك يفضل الورع التقى الضعيف فى القضاء لمعرفته بالأحكام وإحجامه عن الانزلاق إلى هوى أو إغراء أحد المتقاضيَين بالرِّشوة أو سواهما .

وفى هذا أيضاً إصلاح للمجتمع الذى كان الإمام يوليه جل اهتمامه . وهو يشتد فى الدعوة إلى إقامة ميزان العدالة بين الأمة ، والمساواة بين أفرادها « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

ونتأكد من هذا فى مطلع كتابه القانونى [الحسبة فى الإسلام] إذْ يقول :

(إن الناس لم يتنازعوا فى أن عاقبة الظلم وخيمة ، وعاقبة العدل كريمة . ولهذا يروى : إن الله ينصر الدولة العادلة — وإن كانت كافرة ، ولا ينصر الدولة الظالمة ، وإن كانت مؤمنة) .

هذه حقيقة مسلّم بها . فالعدل مطلب كبير لأمان الدولة وبقائها . ولقد أوضح الإمام النظم الصحيحة التى يلزم أن تتوافر فيها ، كما كان شغوفاً لأن يرى المجتمع المثالى ، وقد غدا حقيقة واقعة فى جنبات البيئة الإسلامية التى لها فضل كبير على سائر المجتمعات الأخرى .

فهو يرشد ويحث على تنقية هذا المجتمع من شوائب تلك المهازل والبدع التى دخل بها إليه دعاة السوء والهدّامون . وقد كتب الإمام فى هذا التوجيه أكثر من مؤلف — مثل كتابيه : [الوصية الكبرى والصغرى] وكتابه النقدى المسمى [زيارة القبور] الذى يقول فيه :

(. . الذى بعث الله به رسله وأنزل به كتبه ، هو عبادة الله وحده لا شريك له ، واستعانته والتوكل عليه ، ودعاؤه لجلب المنافع ودفع المضار ، كما قال تعالى :

(تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ، إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدّين . ألا لله الدين الخالص ، والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون) .

إلى أن يقول الإمام فى معنى الاستنجاد بغير الله بأنه :

(شرك صحيح يجب أن يستتاب صاحبه ، فإن تاب وإلا قتل ، وإن قال أنا أسأله لكونه أقرب إلى الله منى ليشفع لى فى هذه الأمور ، لأنى أتوسل إلى الله به كما يتوسل إلى السلطان بخواصه وأعوانه ، فهذا من أفعال المشركين والنصارى) .

وهذا بلا شك مالا يقره عاقل . فالله المحيط بكل شئ . (مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) . وهو القائل أيضاً : (ادعونى أستجب لكم) دونما واسطة أو زلفى — بله الاستنجاد بغيره — سبحانه . (إليه يرجع الأمر كله — يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور) . وفى الحديث القدسى « يقول عز وجل : أنا عند ظن عبدى بى » .

فهل يعقل أن يتقرب المؤمن إلى ربه برجاء مخلوق مثله يحتاج هو أيضاً إلى رضاه ومغفرته ؟؟ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم — وهو من هو فى مكانته وقدره — كان يقول : « والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » . هذا رسولنا الأمجد الشافع المشفع (يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) — والذى تعرض عليه أعمال أمته كل يوم . كان يدعو ربه ويستغفره ويتوب إليه — وهو يرجو رحمته ويخاف عذابه . ثم لايملك أكثر من أن يدعو للمؤمنين ربهم — فإن شاء أجاب وإن شاء منع . (له دعوة الحق) ، وبيده تصاريف أقدارهم . (ومن يضلل الله فلن تجد له ولياً مرشداً) .

وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام فى حديثه الشريف : « من أحسن فى الإسلام لم يؤاخذ بما عمل فى الجاهلية ، ومن أساء فى الإسلام يؤاخذ بالأول والآخر» . وهذا كلام عام بقصد أن الإساءة تكون من أى الجوانب — سواء بالرأى أو الاعتقاد أو بالعمل أو بأى شكل من أشكال تصرفات الإنسان دينية كانت أم دنيوية .

ولدرء أمثال تلك الإساءات إلى مفاهيم الإسلام وتشريعاته — كان الإمام ابن تيمية يجند علمه وقواه ، ويسخر قلمه بدعوة خالصة لله ولخير خلقه ، فنجده يتحدث فى كتابه [جوامع الكلم الطيب فى الأدعية والأذكار] ويثبت مايصح أن يدعو به المسلمون إلههم وما يتلونه من أذكار حميدة فى تمجيد الرب وعظمته وقدرته فى مخلوقاته ، وطلب عفوه وإحسانه ومكرماته منه — القادر الوهاب . كما أن كتابه [قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة] يوضح بجلاء مايجب على المسلم اتباعه أو تركه فى هذا الشأن — على ضوء الشريعة السمحاء ، ولما يرضاه الله ورسوله لهم ، ولا يخالف الدين فى شىء .

هذا، وإننا لواجدون فى كل كتاب من مؤلفات الإمام بحثاً خاصاً بفن من فنون العلم: تنبيهاً وتوجيهاً — سواء فى الأمور الفقهية، أو تفسير الحقائق الشرعية، أو الحض على إصلاح شئون الدولة والراعى والرعية، والوطن الذى لايتكامل إلا بهم، والحث على جلب النفع لهم، واستدراك مايوجب نعم الله وعفوه، ويدفع غضبه ونقمته — (اعدلوا هو أقرب للتقوى) .

ومن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، ويرد عليهم أقصاهم، وهم يدٌ على من سواهم » . وقوله فى مقام آخر : « الشريعة أقوالى، والطريقة أفعالى، والحقيقة أحوالى، ومعرفة الله رأس مالى » .

وعلى هذا الهدى يتحتم على المسلمين أن يسلكوا وأن تقوم حياتهم لتصلح أحوالهم، وتشتد قواهم، ويرتفعون بمستواهم العلمى والعملى .

ولذلك كانت جهود الإمام ابن تيمية لاتقتصر على جانب دون آخر، فى كل ماله علاقة بحياة الانسان الخاصة والعامة . الدينية والدنيوية . كما رأينا فى أبحاثه ونقده وأفكاره، وكما سنرى فيما يلى من فصول الكتاب .



آراؤه وفتاواه

من أولى ميزات الإمام ابن تيمية العلمية — أنه فقيه ومجتهد ، وعالم متمكن ؛ من فلسفته البلاغية إلى تعمقه فى كل العلوم التى درسها وألّف فيها .

فهو يصدر عن تفهُّم وإدراك سليمين لكل ماعالجه وناقشه وأدلى فيه بدلوه، وما قاله لاحتياجات الحياة وفقاً لسماحة الدين ، ولما أخرجه لنا من أحكام وفضائل .

يقول النبى عليه الصلاة والسلام : « إن الدين يسر ، ولن يشادّ الدين أحدٌ إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا[1] وبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشىء من الدلجَة » .

ولقد انفرد الإمام بآراء قيمة وفتاوى فقهية جريئة ومحمودة — للتيسير على المؤمنين فى أمور دينهم وشئون دنياهم . وله فى اجتهاداته هذه سند قوىّ من الشرع الذى يستمد منه هديه ، ويتفكر فيه عقله الكبير .

وبصيغة أخرى : فهو يرد الأحكام الشرعية إلى أصولها الأصلية بعد إدراك عللها . فلا حرج عليه فيما أصدر من فتاوى ، وهو لم يخرج فى شىء عن تعاليم كتاب الله تعالى وسنة رسوله عليه أفضل الصلاة والسلام .

ولقد كانت فتاوى الإمام هذى من الأسباب الرئيسية التى عرّضته إلى ما أصابه من تهجم أهل عصره من رجالات الدولة والعلماء والعامة ، حتى لقد تعرض للإيذاء بالسجن أكثر من مرة ليرجع عن شىء من أقواله ومعتقداته ، إلا أنه كان صلب الإرادة ، ثابت العقيدة ، قوى الإيمان والحجة ، فما كان ليرهبه شىء فى سبيل الحق . وهو يرى أن السجن أحب إليه مما يريد أخصامه أو الحكام ، فى أن يترك الفتوى ودعوته الواجبة للعلم وجهاده المتواصل فى سبيله ، فإيمانه أكبر من أن يقبل المساومة .

وحسبه أن يستذكر دائماً قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا » .

---

(١) يعنى : توسطوا واعملوا مايقارب الأكمل إن لم تقدروا عليه .

وهو عالمٌ قد أسلم له العلم مقاده ، وبصره الله بالحكمة وأنوار هداه : فحمل الأمانة ، وأدى أعباء رسالته العلمية أكمل أداء .

وقد وضع الإمام مؤلفات تتضمن آراءه ومناظراته وأجوبته على الأسئلة التى كانت توجه إليه من كل صوب : من طلبة العلم والحقيقة . ومن كتبه تلك : [الفرق المبين بين الطلاق واليقين ، ومسألة الحلف بالطلاق ، ومسألة العلوّ ، ورسالة العرش] . وسواها مما يزخر به تراثه الخالد الذى سنقتبس منه مختارات فى فصل خاص من هذا الكتاب .

ونورد هنا جملة من هذه المسائل الجليلة — من فتوى ورأى — وهى تعتبر من أهم المسائل التى تكلم فيها ، وتنحصر فى تسعة عشر مسألة :

* جواز قصر الصلاة فى كل سفر — طويلا أم قصيراً — كرأى بعض الصحابة .

* تارك الصلاة عمداً لايشرع له قضاؤها ، بل عليه التوبة والإكثار من النوافل رجاء غفران الله له .

* لايشترط الطهارة فى سجود تلاوة القرآن . وهذا مأخوذ عن رأى لابن عمر ابن الخطاب واختيار البخارى[1] .

* يباح للمرأة التى حاضت قبل طواف الإفاضة — إذا كان انتظارها للطهارة مما يضر بها للسفر ، فإنها تطوف ، ولا كفارة عليها . وهذا من قول لأبى حنيفة[2] وغيره .

* جواز المتمتع فى الحج — يكفيه سعى واحد بين الصفا والمروة ، كما فى حق القارن والمفرد . وهذا مأخوذ عن رأى للصحابى عبد الله بن عباس — المتوفى سنة ٦٨ هـ — رضى الله عنه .

---

(١) هو — محمد بن إسماعيل الجعفى البخارى — ولد سنة ١٩٤ هـ ، وتوفى سنة ٢٥٦ هـ ، قال أحد الشعراء قصيدة عامرة فى صحيحه الذى جمع فيه أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال الشاعر فى مطلع قصيدته : (صحيح البخارى لو أنصفوه لما خط إلا بماء الذهب)

(٢) الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت التيمى ، توفى سنة ١٥٠ هـ .

* جواز التيمم ، مع وجود الماء لمن خاف فوات الجمعة والعيد ، أو وقت صلاة أخرى من الصلوات المفروضة — إذا استعمل الماء .

* من أكل فى رمضان معتقداً أنه بليل ، فتبين أنه نهار — فلا قضاء عليه . وهذا استناداً إلى ماورد عن الخليفة عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — وتبعه بعض الفقهاء .

* المرأة البكر لاتستبرأ وإن كانت كبيرة . وهذا يتفق مع رأى ابن عمر واختيار البخارى .

* استبراء المختلعة بحيضة واحدة ، والموطوءة بشبهة ، والمطلقة آخر ثلاث تطليقات .

* للمرأة أن تتيمم وتصلى ، إذا لم يمكنها الاغتسال فى البيت ، أو شق عليها الذهاب إلى الحمام وتكراره .

* لاحدّ لأقل الحيض ولا لأكثره ، ولا لأقل الطهر بين الحيضتين . ولا بسن الإياس من الحيض ، لأن كل هذا يرجع إلى ماتعرفه كل امرأة عن نفسها .

* إباحة وطء الوثنيات بملك اليمين ، كمثل إماء أهل الكتاب .

* الشيء المائع لاينجس بوقوع النجاسة فيه إلا أن يتغير — قليلا كان أو كثيراً .

* جواز المسح على الخفين دون اشتراط أن يكونا ساترين لكل القدمين : كأن يكون بهما خرق أو فتق بسيط . وهو من رأى للإمام ابن حنبل .

* جواز توريث المسلم من الكافر الذمى — فهو من أهل الكتاب .

* لايثبت بالرضاع تحريم المصاهرة ، فلا يحرم على الرجل نكاح أم زوجته وابنتها من الرضاع ، كما لايحرم نكاح أبى زوجها وأبى أمه من الرضاع ، لأن النص فى الحديث الشريف أنه يحرم بالرضاع مايحرم بالنسب وليس بالمصاهرة .

* الطلاق الثلاث بلفظ واحد — لايقع إلا واحدة ، وبهذا كان العمل فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وصاحبيه — رضى الله عنهما . كما يروى الإمام ابن تيمية .

* عدم وقوع الطلاق بالحلف إذا حنث ، وليس على الحالف حينئذ إلا كفارة اليمين المذكورة فى القرآن الكريم .

* جواز بيع مايتخذ من الفضة للتحلى وغيره — كالقرط والخاتم ونحوهما بالفضة متفاضلا ، وجعل الزيادة فى الثمن مقابل الصنعة .

هذه المسائل — كما قلنا — من أهم آراء وفتاوى الإمام ابن تيمية الفقهية التى أذاعها ، وأخذ الناس بها ، ووقف هو دونها . وله من علمه وتفقهه وسعة معرفته — مصدر لأقوى الحجج . ولهذا لم يغال العلامة الذهبى حين قال عنه فى معجمه : (وفاق الناس فى معرفة الفقه ، واختلاف المذاهب ، وفتاوى الصحابة والتابعين بحيث إذا أفتى لم يلتزم بمذهب ، بل ربما يقوم دليله عنده) .

ودليله دائماً حاضرٌ فى ذهنه اليقظ . متمثل أمامه كأسطر من نور ، لإحاطته الواسعة ودراساته الشاملة المركزة ، سواء لشرائع الدين وبما كان عليه إجماع الأمة ، أو العلوم الفلسفية والمذاهب والأديان . فتكاد لا تغيب عنه شاردة ولا واردة . وقد روى عنه أنه كان إذا تصفح بضع صفحات من كتاب ، فهم فحواه ، ورد عليه أو ألف فى موضوعه بما هو أوفى وأشمل وأوضح .

وذلك مانتبينه من تصانيفه العديدة . إذ أنه ماتحدث فى موضوع أو مسألة من العلوم المختلفة ، إلا محصها واستوعب ثغراتها ، وأوفاها حقها من جميع وجوهها بحثاً ودراسة وتقييما . بل وأدلى برأى يحمد له ويؤخذ به من بعده . وكذلك هم العظماء .

أقباس مشهودة

حياة صناع التاريخ : قبس من أنوار الحقيقة الأزلية ، ينتشر على الأرض — يخصبها ويهذبها ، ينشر فيها أصابع الحياة تتخلل جوانبها ، ويلقى عليها معانى سامية تزدهر وتبقى : تعمر فى الكون الدنيوى ، للوجود الخالد . وصاحب الإيمان ، أو حامل علم التوحيد — يحظى مع هذا — بنعيم الخلود الثانى ، وقد وفاه ربه حسابه ، وآتاه مقام المصلحين الصالحين .

قال تعالى : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) .

كذلك كانت حياة الإمام ابن تيمية : قبسٌ أضاء — معرفة وعلما وفهماً لأعظم أمر جاءت من أجله الخليقة . فالرب سبحانه يقول : (وماخلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون) . وعبادته — عز شأنه — كما قد علّمنا إياها فى كتابه الحكيم الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وفى أقوال خاتم رسله وأنبيائه محمد عليه أفضل الصلاة والسلام . وذلك هما الكتاب والسنة . منهما التشريع والأصول والمبادىء الدينية الصحيحة لمن سلك سبيل الحق . ومنهما اكتسب الإمام ابن تيمية خبراته العلمية ، واتخذ عنهما أسانيده وحججه على كل من خالف شريعة من شرائع الدين الحنيف .

وكان بتبحره فى العلوم المتعددة التى هضمها — تبصرة كبرى فى مجالاته التى طرقها وأبدع فيها : مؤلفاً ومصلحاً ومرشداً ، أو ناقداً وموجهاً وناصحاً ، بل وحتى مجاهداً أو مجتهداً .

وعلى ذكر الاجتهاد الذى فسره كل عالم برأيه ، نستذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يقول : « لاتزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لايضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك » .

وقد أجاب الإمام ابن تيمية على سؤال حول من تفقه على مذهب من المذاهب الأربعة ، ثم وجد حديثاً صحيحاً لم يجد له ناسخاً ولا معارضاً — وفى مذهبه مايخالفه . أيعمل بالمذهب أم يخالفه ويأخذ بالحديث ؟

والجواب بالنص — يقول الإمام :

(الحمد لله رب العالمين ، قد أثبت فى الكتاب والسنة والإجماع أن الله تعالى افترض على العباد طاعته وطاعة رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى كان صدّيق الأمة[1] وأفضلها بعد نبيها عليه الصلاة والسلام — ورضى الله عنه يقول : أطيعونى ما أطعت الله تعالى، فإذا عصيت الله عز وجل فلا طاعة لى عليكم . واتفق كلهم أن ليس أحدٌ معصوماً فى كل ما أمر الله تعالى به ونهى عنه إلا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولهذا قال غير واحد من الأئمة : كل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وهؤلاء الأئمة الأربعة — رحمهم الله أجمعين — قد نهوا الناس عن تقليدهم فى كل مايقولونه ، وذلك هو الواجب . قال الإمام أبو حنيفة : هذا رأيى، وهذا أحسن مارأيت ، فمن جاء برأى خير منه قبلناه) .

ولهذا اجتمع أفضل أصحابه أبو يوسف بإمام دار الهجرة مالك بن أنس[2] وسأله عن مسألة الصاع وصدقة الخضروات ، ومسألة الأجناس ، فأخبر مالك — رحمه الله تعالى — بما دلت عليه السنة فى ذلك ، فقال : (رجعت لقولك يا أبا عبد الله ، ولو رأى صاحبى مارأيت لرجع كما رجعت) . ومالك — رحمه الله تعالى — كان يقول : إنما أنا بشر أصيب وأخطئ ، فاعرضوا قولى على الكتاب والسنة ، أو كلام هذا معناه . والشافعى[3] — رحمه الله تعالى — كان يقول : (إذا صح الحديث بخلاف قولى فاضربوا بقولى عرض الحائط ، وإذا رأيت الحجة موضوعة على طريق فهى قولى) . وفى مختصر المزنى[4] — لما اختصره — ذكر أنه اختصر من مذهب الشافعى لمن أراد معرفة مذهبه . قال : مع إعلامه نهيه عن تقليده أو تقليد غيره من العلماء . والإمام أحمد — رحمه الله تعالى — كان يقول :

---

(١) يقصد أبا بكر الصديق — عبد الله بن أبى قحافة ، صاحب رسول الله فى الغار ، وفى عهده بدأت الفتوحات الإسلامية تمتد إلى الشام والعراق ، وتوفى سنة ١٣ هـ عن ٦٣ عاما .

(٢) الإمام مالك بن أنس أبو عبد الله المدنى — صاحب الموطأ — توفى سنة ١٧٩ هـ .

(٣) الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس الشافعى — توفى سنة ٢٠٤ هـ .

(٤) المزنى — هو إسماعيل بن يحيى بن عمر — المصرى الشافعى ، توفى سنة ٢٦٤ هـ ، ومن كتبه فى الفقه : (الجامع الكبير ، والجامع الصغير ، وكتاب الوثائق) .

«من ضيق علم الرجل أن يقلد دينه الرجال . وقد قال : لاتقلد دينك الرجال فإنهم لم يسلموا من أن يغلطوا) . وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : «من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين » . ولازم ذلك أن من لم يفقهه الله عز وجل فى الدين لم يرد به خيراً . فيكون التفقه فى الدين فرضاً ، والتفقه فى الدين : معرفة الأحكام الشرعية بأدلتها السمعية ، فمن لم يعرف ذلك لم يكن متفقهاً فى الدين ، لكن من الناس من قد يعجز عنها فيلزمه ما يقدر عليه . وقد كان قادراً على الاستدلال ، فقيل : يحرم عليه التقليد مطلقاً . وقيل يجوز عند الحاجة ، كما إذا ضاق الوقت عن الاستدلال ، وهذا القول أعدل الأقوال إن شاء الله تعالى) .

ويستطرد الإمام فى حديثه هذا إلى أن يصل إلى رأيه فى الاجتهاد ، فيقول :

(والاجتهاد ليس هو أمر لايقبل التجزؤ والانقسام ، بل يكون الرجل مجتهداً فى فن أو باب أو مسألة دون فن وباب ومسألة ، وكلٌّ فاجتهاده بحسب وسعه ، فمن نظر فى مسألة قد تنازع العلماء فيها ، فرأى مع أحد القولين نصوصاً بعد نظر مثله فهو بين أمرين : إما أن يتبع قول الأخير لمجرد كونه الإمام الذى اشتغل على مذهبه ، ومثل هذا ليس بحجة شرعية ، بل مجرد عادة تعارضها عادة غيره ، واشتغاله بمذهب إمام آخر . إما أن يتبع القول الذى ترجح فى نظره بالنصوص الدالة عليه ، فحينئذ موافقته لإمام يقاوم به ذلك الإمام ، وتبقى النصوص النبوية سالمة من حقه عن المعارض بالعمل ، فهذا هو الذى يصلح . وإنما تنزلنا هذا التنزل لأنه قد يقال : إن نظر هذا قاصر ، وليس اجتهاده تاماً فى هذه المسألة لضعف آلة الاجتهاد فى حقه ، أما إذا قدر على الاجتهاد التام الذى يعتقد معه أن القول الآخر ليس معه ما يدفع النص ، فهذا يجب عليه اتباع النصوص ، وإن لم يفعل كان متبعاً للظن وما تهوى الأنفس ، وكان أكبر العصاة لله تعالى ورسوله . بخلاف من يكون القول الآخر حجة راجحة على هذا النص ، ويقول : أنا لا أعلمها ، فهذا يقال له : قد قال تعالى : (فاتقوا الله ما استطعتم) والذى نستطيعه من العلم والفقه فى هذه المسألة قد دل على أن هذا القول هو الراجح ، فعليك أن تتبع ذلك . ثم إن تبين لك فيما بعد أن للنص معارضاً راجحاً كان حكمك فى ذلك حكم المجتهد المستقل إذا تغير اجتهاده .

وانتقال الإنسان من قول إلى قول لأجل ماتبين من الحق فهو محمود عليه ، بخلاف إقراره بقول لاحجة معه عليه ، وترك قول الذى وضحت حجته ، والانتقال من قول إلى قول بمجرد عادة واتباع هوى ، فهذا مذموم . وإذا كان المقلد قد سمع حديثاً وتركه لاسيما إذا كان قد رواه أيضاً عدلٌ ، فمثل هذا إذا وجد لايكون عذراً فى ترك النص . وقد بينا فيما كتبناه فى الدفع عن الأئمة الأعلام نحو عشرين عذراً فى ترك العمل ببعض الأحاديث ، وبينا أنهم معذورون فى الترك . فمن ترك الحديث لاعتقاده لم يصح ، أو رواية مجهول ونحو ذلك ويكون غيره قد علم صحته وثقة روايته ، فقد زال عذر ذلك فى حق هذا . ومن ترك الحديث لاعتقاده أن ظاهر القرآن يخالفه ، أو القياس أو عمل لبعض الأمصار قد تبين لآخر أن ظاهر القرآن لايخالفه ، وأن نص الحديث الصحيح مقدم على الظواهر ومقدم على القياس والعمل ، لم يكن عذر ذلك الرجل عذراً بحقه ، فإن ظهور المدارك الشرعية للأذهان وحقها منها أمر لاينضبط طرفاه لاسيما إذا كان التارك للحديث معتقداً أنه قد ترك العمل به المهاجرون والأنصار أهل المدينة النبوية وغيرها الذين يقال لهم : لايتركون الحديث إلا لاعتقادهم أنه منسوخ أو معارض براجح) .

إلى أن يقول الإمام :

(وقد كان بعض الناس يناظر ابن عباس فى المتعة ، فقال له : قال أبو بكر قال عمر ، فقال ابن عباس : يوشك أن ينزل عليكم حجارة من السماء ، أقول : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتقولون : قال أبو بكر قال عمر لما سئل عنها فأمر بها ، فعارضوه بقول عمر ، فبين أن عمر لم يرد مايقولونه ، فألحوا عليه ، فقال : رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أحق أن يتبع أم عمر ؟ مع علم الناس أن أبا بكر وعمر أعلم من ابن عمر وابن عباس — رضى الله عنهما — .

ولو فتح هذا الباب لوجب أن يعرض عن أمر الله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويبقى كل إمام فى أتباعه بمنزلة النبى فى أمته . وهذا تبديل للدين ، وشبيه بما عاب الله تعالى به النصارى فى قوله : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح

ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) والله سبحانه أعلم اه .

فى هذا المقام أيضاً لايفوتنا أن نستجلى جواباً آخرلموضوع ثان عالجه الإمام ابن تيمية بحكمته المعهودة — كما رأينا — وقال فيه برأى حاسم كعادته : ذلك هو موضوع التوسل وما نحا نحوه ، وقد خاض فيه الكثيرون وضل بعضهم النهج القويم بالمغالاة فى فهم المسألة على نحو يخالف الدين . ونحن نقتضب من أقوال الإمام مايفسر لنا لب الموضوع — وهى من كتابه [الاستغاثة] فى رده على ابن السبكى — قال :

(وأما قول القائل : إن المتوسل إنما هو سائل الله تعالى ، راج له ، عالم أن النفع والضر بيده لاشريك له ، وإنما توسل إليه بمن يحبه الله تعالى لشرف منزلته عنده ليكون أقرب إلى الإجابة وحصول المراد ، كطلب الدعاء من الرجل الصالح فيقال : توسل العبد إلى الله تعالى بما يحب . لفظ مجمل ، فإن أريد بما يحب الله تعالى أن يتوسل به إليه فهذا حق ، والله تعالى يحب أن يتوسل إليه بالإيمان والعمل الصالح والصلاة والسلام على نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم ومحبته وطاعته وموالاته . فهذه ونحوها هى من الأمور التى يحب الله تعالى أن يتوسل بها إليه) .

إلى أن يقول الإمام بعد حديث طويل :

(ومن هذا الباب حديث الأعمى — فإنه أتى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : ادع الله تعالى أن يعافينى . فقال : إن شئت دعوت ، وإن شئت صبرت فهو خير لك) قال : ادع الله تعالى . فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء : (اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك نبى الرحمة . يا محمد ، إنى أتوجه بك إلى ربى فى حاجتى هذه لتقضى . اللهم فشفعه فىّ) فهذا أمره أن يطلب من الله تعالى أن يشفع فيه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم . وإنما يكون طلباً لتشفيعه فيه إذا تشفع فيه فدعا الله تعالى له ، وكذلك فى أول الحديث أنه طلب من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يدعو له . فدل الحديث على أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم شفع له ودعا له ، وأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أمره هو أن يدعو الله سبحانه ، وأن يسأله قبول شفاعة النبى صلى الله تعالى عليه

وسلم فيه ، فهذا نظير توسلهم به فى الاستسقاء حيث طلبوا منه أن يدعو الله عز وجل لهم . وهم دعوا الله تعالى أيضاً . وقوله : يامحمد إنى أتوجه بك إلى ربى فى حاجتى هذه لتقضى ، خطاب لحاضر فى قلبه ، كما نقول فى صلاتنا : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته . وكما يستحضر الإنسان من يحبه أو يبغضه فى قلبه ويخاطبه . وهذا كثير . فهذا كله يبين أن معنى التوسل به والتوجه به وبالعباس وغيرهما فى كلامهم هو التوسل والتوجه بالدعاء . وهذا مشروع بالاتفاق لاريب فيه) اهـ .

هذا كلام موزون لاغبار عليه يحاج به الإمام كل من عارض الحقيقة النيرة فى هذا الشأن ، وهنا نستمع إلى حديث ابن عباس فى هذا المعنى . قال رضى الله عنه : « بينما أنا رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال : ياغلام احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، جف القلم بما هو كائن ، ولو جهد العباد أن ينفعوك بشئ لم يقضه الله تعالى لك لم يقدروا عليه ، فإن استطعت أن تعمل لله تعالى بالصدق فى اليقين فاعمل ، فإن لم تستطع فالصبر على ماتكره خيراً كثيراً ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا »[1] .

هذا ، وإن النموذجين اللذين أتينا بهما من أبحاث الإمام ابن تيمية — ليعطيانا صورة للطريقة التى يناقش بها الإمام كل مسألة أو قضية ، ويعالجها من مجموعة زواياها بأسلوب قوى ، وهو يستشهد بأقوال الثقات ، ولا يعتمد إلا على ما تأكد من صحته واتصاله اتصالا وثيقاً بكتاب الله تعالى وسنة رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام .

وإتماماً للفائدة فى هذا الفصل نقتبس نموذجاً آخر من باب آخر — لأقوال الإمام من إحدى مناظراته التى كانت تقام له من خلال محاكماته فى اتهامات مغرضة ، ويدافع هو عن نفسه بتأييد من الحق وبما يلجم خصومه ويكشف أمامهم البرهان ينطق ، ولكنهم كانوا من القوم الجاهلين .

كانت هذه المناظرة فى مصر — فى أول مانزل بها الإمام ، عندما استدعاه الحكام ليعرفوا عقيدته ، ويكيدوا له كيداً . وكانت بالذات يوم الجمعة الموافق ٢٧ رمضان

---

(١) لعل هذا الحديث مروى بالمعنى ، أوهى رواية أخرى .

سنة ٧٠٥ هـ قبل اعتقاله بالجب فى القلعة المعروفة ، وقد طلب منه أن يعتقد بنفى — ما نحل إليه — من القول بالجهة عن الله والتحيز بأن كلام الله حرف وصوت قائم به ، وأنه سبحانه لايشار إليه بالأصابع ، وأن لايتعرض الإمام لأحاديث الصفات وغيره .

وقد أجاب الإمام قائلا : (أما قول القائل يطلب منه أن يعتقد نفى الجهة عن الله والتحيز ، فليس فى كلامى إثبات هذا اللفظ ، لأن إطلاق هذ اللفظ نفيا بدعة ، وأنا لم أقل إلا ماجاء به الكتاب والسنة واتفق عليه الأمة . فإن أراد قائل هذا القول أنه ليس فوق السماوات رب ، ولا فوق العرش إله ، وأن محمداً لم يعرج به إلى ربه ، وما فوق العالم إلا العدم المحض ، فهذا باطل مخالف لإجماع سلف الأمة . وإن أراد بذلك أن الله لاتحيط به مخلوقاته ، ولا يكون فى جوف الموجودات . فهذا مذكور مصرح به فى كلامى ، فإنى قائله فما الفائدة فى تجديده ؟ وأما قول القائل : لايقول إن كلام الله حرف وصوت قائم به ، بل هو معنى قائم بذاته . فليس فى كلامى هذا أيضاً ولا قلته قط ، بل قول القائل : إن القرآن حرف وصوت قائم به بدعة ، وقوله معنى قائم بذاته : بدعة ، لم يقل أحد من السلف ، لا هذا ولا هذا ، وأنا ليس فى كلامى شىء من البدع ، بل فى كلامى ما أجمع عليه السلف أن القرآن كلام الله غير مخلوق . وأما قول القائل : لايشار إليه بالأصابع إشارة حسية ، فليس هذا اللفظ فى كلامى ، بل فى كلامى إنكار ما ابتدعه المبتدعون من الألفاظ النافية ، مثل قوله أن لايشار إليه ، فإن هذا النفى أيضاً بدعة . فإن أراد القائل أنه لايشار إليه من أن الله ليس محصوراً فى المخلوقات ، وغير ذلك من المعانى الصحيحة فهذا حق ، وإن أراد أن من دعا الله لايرفع إليه يديه ، فهذا خلاف ماتواترت به السنن عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ومافطر الله عليه عباده من رفع الأيدى إلى الله فى الدعاء : وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله يستحى من عبده إذا رفع يديه أن يردهما صفراً » اهـ[1].

---

(١) كان الإمام قد كتب (مناظرة العقيدة الواسطية) هذه ، ثم اختصرها ، وسوف نورد نص هذا المختصر للمناظرة — فى فصل (نفحات من تراثه) للفائدة الكبيرة منه .

أرأيت كيف يدلى الإمام بالإجابات على وجوهها الصحيحة إلى أن يصل لحد الإقناع بما وفقه الله إليه ؟ وما كان ليخشى أحداً فيقول قولا يقصد به رضاه ، ولكن مناظريه لم يكونوا يرغبون إلا فى الحجر عليه وفى تكبيل فمه ، فيسجن إرضاء لهم ليس أكثر

ونقلّب فى بعض كتب الإمام لنختار بحثاً له طابع مغاير لما سمعنا ، فنجد له من النصوص القيمة موضوعاً اشترك بالقول فيه برأيه حول الاختلاف حول نظرية الحسن والقبح — بين ملاءمتهما للطبع ومنافرتهما له ، وبين صفتى الكمال والنقص . فقال علماء غيره بنظرياتهم التى لاتعنينا هنا ، وإنما يعنينا ماتحدث به الإمام نفسه فى هذا المجال — ضمن ردوده على الشيعة القدرية .

ولنسمعه يقول وهو يعرض كعادته — أقوال الآخرين :

(ونشأ من هذا الاختلاف نزاع بين المعتزلة وغيرهم ومن وافقهم فى مسألة التحسين والتقبيح العقلى ، فأثبت ذلك المعتزلة والكرامية وغيرهم ومن وافقهم من أصحاب أبى حنيفة ومالك والشافعى وأحمد ، وأهل الحديث وغيرهم — رضى الله تعالى عنهم . ونفى ذلك الأشعرية ومن وافقهم من أصحاب مالك والشافعى وأحمد وغيرهم . واتفق الفريقان على أن الحسن والقبح إذا فسر بكون الفعل نافعاً للفاعل ملائماً له ، وكونه ضارا للفاعل منافراً له أنه تُمكن معرفته بالعقل كما يعرف بالشرع ، وظن مَنْ ظن مِنْ هؤلاء أن الحسن والقبح المعلوم بالشرع خارج عن هذا وليس كذلك ، بل جميع الأفعال التى أوجبها الله تعالى وندب إليها هى نافعة لفاعليها ومصلحة لهم ، وجميع الأفعال التى نهى الله عنها هى ضارة لفاعليها ومفسدة فى حقهم . والحمد والثواب المترتب على طاعة الشارع نافع للفاعل ومصلحة له . والذم والعقاب المترتب على معصيته ضار للفاعل مفسدة له . والمعتزلة أثبتت الحسن فى أفعال الله تعالى لا بمعنى حكم يعود إليه من أفعاله تعالى) اه .

هذه النبذ القصيرة من وجهة نظر العلم فى أمور الدين — على لسان قطبه الكبير (ابن تيمية) تزيدنا دليلا على ما عرفناه من تعاليمه المتكاملة وأبحاثه الشاملة لكل أمر تختلف حوله الآراء وتتناقض فيه أفكار العلماء المسلمين وغير المسلمين ، فإذا بالإمام يفوقهم فهماً وترجح كفة رأيه .

وهذا أيضاً ما استنتجناه من الدراسة التى وضعت قبل نحو قرن من الزمان ، بقلم الفقيه السيد نعمان خير الدين المشهير بابن الألوسى البغدادى[١] ، ودعا دراسته هذه (جلاء العينين — فى محاكمة الأحمدين) — وهو يعنى كلا من : أحمد بن تيمية ، وأحمد ابن حجر الهيتمى[٢] الذى اشتهر بعدائه للإمام ابن تيمية وهجومه بالافتراء عليه ، وتأليفه ضده ، بقصد التشهير بفتاواه ومعتقداته .

ولكن ابن الألوسى ، دافع عن الإمام بأمانة ، ورد كل مانسبه ابن حجر إليه ، وقال : (كان ينبغى من ابن حجر أن يعزو هذا الكلام إلى الكتاب الذى نقله منه ونسبه إلى ابن تيمية ، ثم انظر بعين التدبر والإنصاف إليه على تقدير صحته بهذه العبارة ، فهل يقتضى هذا — التهور العظيم والطعن الوخيم ؟) .

ثم يقول ابن الألوسى عن الإمام: (اعلم أولا أن عقيدة الشيخ — ابن تيمية الموافقة للكتاب والسنة ، وأقوال سلف الأمة ، مستفيضة مفصلة فى تصنيفاته ، وحبه وتعظيمه للصحابة الكرام لاسيما الشيخين — طافحة به عباراته ، وذلك أظهر من الشمس فى رابعة النهار ، خصوصاً لمن تتبعها فى تأليفاته) .

هذا ، ولقد اختار ابن الألوسى القصيدة البديعة التى ضمنها الإمام ابن تيمية آراءه واتجاهه الدينى ، كاستشهاد على ماتحدث به عنه وعن فضله ، وأورد المثل القائل : (وعن البحر اكتفاء بالوشل) . قال الإمام — من بحر الكامل :

(ياسائلى عن مذهبى وعقيدتى   رُزق الهدى من للهداية يسألُ
إسمع كلام محقق فى قوله   لاينثنى عنه ولا يتبدّل
حب الصحابة كلهم لى مذهب   ومودة القربى بها أتوسل
ولكلهمْ قدرٌ وفضلٌ ساطع   لكنما الصديق منهم أفضل
وأقول فى القرآن ماجاءت به   آياته فهو القديم المنزل
وجميع آيات الصفات وأمرها   حقاً كما نقل الطراز الأول

---

(١) ولد ببغداد سنة ١٢٥٢ هـ ، وبها ولى القضاء ، وتوفى سنة ١٣١٧ هـ .
(٢) هو شهاب الدين أحمد بن على بن محمد بن حجر الشافعى ، ولد بمصر سنة ٧٧٣ هـ .

وأرد عهدتها إلى نقالها وأصونها عن كل ما يتخيل
قبح لمن نبذ القران وراءه وإذا استدل يقول قال الأخطل (١)
والمؤمنون يرون حقا ربهم وإلى السماء بغير كيف ينزل
وأقر بالميزان والحوض الذى أرجو بأنى منه رياً أنهل
وكذا الصراط يمد فوق جهنم فموحدٌ ناج وآخر مهمل
والنار يصلاها الشقى بحكمة وكذا التقى إلى الجنان سيدخل
ولكل حى عاقل فى قبره عملٌ يقارنه هناك ويسأل
هذا اعتقاد الشافعى ومالك وأبى حنيفة ثم أحمد ينقل
فإذا اتبعت سبيلهم فموفق وإن ابتدعت فما عليك معوّل)

هكذا أجمل الإمام عقيدته العظيمة فى صياغة حية وفى صفو من القول العذب . نبراسا يحتذى . ولقد أحسن ابن الألوسى فى نقلها إلى كتابه ، ليتخذ منها صورة مصغرة لما أراد تعريفه عن اتجاهات الإمام ومعتقداته ، وهو يسلك أسلم الطرق .

كما وقد أحسن فى ردوده على ادعاءات ابن حجر المزيفة على الإمام ، وهو يعقب على كل مسألة بأقوال مشاهير العلماء ممن كان على رأى الإمام أو من خالفه أو من كان موقفه بين بين . ثم يحمد للإمام وجهات نظره الجليلة وحسن اجتهاده ، ويعجب لتوفيقه فيما قد وصل إليه من أحكام وحلول ، وينقل عنه مختارات من أقواله وتعاليمه . ومنها قول الإمام بصدد كرامات الأولياء :

(ومن أصول أهل السنة التصديق بكرامات الأولياء ، وما يجرى الله تعالى على أيديهم من خوارق العادات ، ومن أنواع العلوم والمكاشفات، وأنواع القدرة والتأثيرات، كالمأثور عن سلف الأمم فى سورة الكهف وغيره وهم صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين وسائر قرون الأمة ، وهى موجودة إلى يوم القيامة) .

---

(١) أورد ابن الألوسى فى الهامش بأن المراد هو قول الأخطل الشاعر :
إن الكلام لفى الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

وما دمنا بصدد الاختيار ، فلا بأس من أن نستطلع إجابة من النوادر العلمية للإمام ، على سؤال وجه إليه عن السيد الخضر عليه السلام : هل هو نبي وهل حي للآن ؟ وإنه لو كان حياً فما القول فيما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : « لو كان حياً لزارنى » وهل هو صحيح أم لا ؟

وقبل أن نستمع إلى جواب الإمام فى هذا ، نشير إلى أنه سئل أيضاً فى مكان آخر : هل الخضر لايزال حيًّا ؟ فقال قولا مختصراً معناه أن السيد الخضر لابد وأنه قضى ، وذكر الحديث الشريف : « أرأيتكم ليلتكم هذه . الخ » ...

وهذه إجابته على السؤال الأول بتلخيص :

اختلف العلماء فى نبوة الخضر ، والقائل بأنه نبى — لم يقل إنه سلب النبوة ، بل يقول هو كإلياس نبىء ، ولكنه لم يوح إليه فى هذه الأوقات ، وترك الوحى إليه فى مدة معينة ليس نفياً لحقيقة النبوة ، كما لو فتر الوحى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى أثناء مدة رسالته . وأكثر العلماء على أنه لم يكن نبياً ، مع أن نبوة من قبلنا يقرب كثير منها من الكرامة والكمال فى الأمة ، ولا أصل لحديث (لو كان حياً لزارنى) ولا إسناد له . وأن الخضر — حى . والمروى فى مسند الشافعى وغيره : أنه اجتمع بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم . ومن قال بأنه لم يجتمع بالنبى صلى الله عليه وسلم فقد قال ما لاعلم له به ، فإنه من العلم الذى لايحاط فيه . ومن احتج على وفاته بقول النبى صلى الله عليه وسلم : « أرأيتكم ليلتكم هذه فإنه على رأس مائة سنة لايبقى على وجه الأرض ممن هو عليها اليوم أحد » فلا حجة فيه ، فإنه يمكن أن يكون الخضر إذ ذاك على وجه الأرض .

ذلك كلام سليم — غير أن الزمن لم يطل أبداً بمخلوق إلى البقاء الدائم فى الحياة ، وقد قال تعالى : (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) . وهذه الآية تؤيد أن الخضر مهما عاش من سنين فهو لابد قد لقى وجه ربه — سبحانه الذى له البقاء وحده : (كل شىء هالك إلا وجهه — كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) . صدق الله العظيم .

ويحدثنا الإمام ابن تيمية فى رسالته عن العرش ــ هل هو كرىّ أم لا ؟ حديثاً عجباً ، تطمئن إليه النفوس المؤمنة ، فنراه يقول : (والأخبار تدل على أن العرش مباين لغيره من المخلوقات ، وأنه قبل السماوات والأرض ، فقد ثبت فى صحيح البخارى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال : «كان الله ولم يكن شئ غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شئ وخلق السماوات والأرض ، وأن له قوائم » كما فى حديث أبى سعيد : « فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش » وقد استدل من قال : إنه مقبب بما رواه أبو داود من قوله عليه الصلاة والسلام : « وأن الله تعالى على عرشه ، وأنّ عرشه على سماواته ، وسماواته فوق أرضه هكذا ــ وقال بأصابعه ــ مثل القبة » وهذا يدل على أنه فلك من الأفلاك ، ولا مستدير مثل ذلك . ولكن لفظ القبة يستلزم استدارة من العلو لا من جميع الجوانب إلا بدليل منفصل ، ولفظ الفلك يستدل به على الاستدارة مطلقاً كما قال ابن عباس فى (وكل فى فلك) فى فلكه مثل فلكة المغزل . وأما لفظ القبة فإنه لايتعرض لهذا المعنى لا بنفى ولا إثبات ، لكن يدل على الاستدارة من العلو . واعلم أن العرش سواء كان هذا الفلك التاسع أو جسما محيطاً به ، أو كان فوقه من جهة وجه الأرض محيط به ، أو قيل فيه غير ذلك ــ فيجب أن يعلم أن العالم العلوى والسفلى بالنسبة إلى الخالق تعالى فى غاية الصغر ، كما قال تعالى : (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) .

وفى الصحيحين عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « يقبض الله تبارك وتعالى الأرض يوم القيامة ويطوى السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض » اه .

تلك هى أشتات نيرة وأقباس زاهية نامية . بل رشفات حلوة من ذلك البحر الخِضَمّ المتلاطم الذى خلفه عميد العلماء وإمامهم فى عصره ــ الشيخ ابن تيمية ــ من هذا التراث النادر فى علوم الدين والفقه والحياة .

وليس كثيراً أن نسمع العلامة عماد الدين الواسطى [1] يقول عن الإمام ــ بعد أن

---

(١) هو أبو إسحاق إبراهيم بن على بن أحمد بن فضل ــ الدمشقى الحنبلى ، توفى يوم الجمعة ٢٤ جمادى الثانية سنة ٧٦٢ هـ ــ عن ٩٠ عاما .

يثنى طويلا عليه : (فو الله ، ثم والله لم ير تحت أديم السماء مثل شيخكم ابن تيمية : علما وعملا وحالا وخلقاً واتباعاً وكرماً وحلماً ، وقياماً فى حق الله تعالى عند انتهاك حرماته . أصدق الناس عقداً ، وأصلحهم علماً وعزماً ، وأنفذهم وأعلاهم فى انتصار الحق وقيامه همة ، وأسخاهم كفاً ، وأكملهم اتباعاً لنبيه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم . مارأينا فى عصرنا هذا من تستجلى النبوة المحمدية وسننها من أقواله وأفعاله إلا هذا الرجل ، يشهد القلب الصحيح أن هذا هو الاتباع حقيقة) .

كذلك ، ومن العرفان بمكانة الإمام — نذكر هذه الأبيات التى مدحه بها — معاصره — العلامة أبو حيان المفسر [١] وأنشدها له ، كما يروى الذهبى :

(لما أتانا تقى الدين لاح لنا … داع إلى الله فردٌ ماله وزر
على محياه من سيما الألى صحبوا … خير البرية نورٌ دونه القمر
حبرٌ تسربل منه دهره حبرا … بحرٌ تقاذف من أمواجه الدرر
قام ابن تيمية فى نصر شرعتنا … مقام سيد تيم إذ مضت مضر
وأظهر الحق إذ آثاره اندثرت … وأخمد الشر إذ طارت له شرر
يامن يحدث عن علم الكتاب أصخ … هذا الإمام الذى قد كان ينتظر)

ونذكر بالمناسبة ، أنه جرت بين الإمام ابن تيمية وبين أبى حيان المفسر هذا — مناقشة حول زعامة النحو لسيبويه [٢] ، فأوضح الإمام بأن سيبويه قد أخطأ فى كتابه فى ثمانين موضعا [٣] (لاتفهمها أنت) قالها لأبى حيان — فحدثت بينهما مشادة كلامية كانت سبباً فى انقطاع الصلة بينهما ، ثم راح أبو حيان يحمل على الإمام ويذكره بالسوء فى كتبه ، ومن هذا نفهم كيف ينحدر النقد الشخصى بالإنسان حتى بين كبار العلماء .

غير أن كل اعتراض وتهجم أتيا من هذا الجانب أو من غيره ، لم يكونا أبداً لينالا من

---

(١) المفسر — يقال له البربرى ، مؤرخ أندلسى ، ولد بغرناطة سنة ٦٥٤ هـ ، وتوفى سنة ٧٤٤ هـ
(٢) النحوى الشهير — أبو بشر عمرو بن عثمان — توفى سنة ١٧٤ هـ .
(٣) وهذا دليل قوى على ضلاعة الإمام ابن تيمية فى فن النحو الذى نفى عنه إمارة سيبويه ، وبين مأخذه عليه عن علم ودراية . وهكذا يثبت الإمام تفوقه فى كل علم درسه ووعاه .

شخصية عظيمة كالإمام ابن تيمية بشىء أو ينتقصا من قدره الرفيع ومكانته العلمية الكبيرة . وقد كان يقول — وهذا مبدؤه — :

(فالعلم المشروع والنسك المشروع مأخوذ عن أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأما ماجاء عمن بعدهم فلا ينبغى أن يُجعل أصلاً ، وإن كان صاحبه معذورا ، بل مأجوراً لاجتهاد أو تقليد . فمن بَنى الكلام فى العلم : الأصول والفروع على الكتاب والسنة والآثار المأثورة عن السابقين فقد أصاب طريق النبوّة ، وكذلك من بنى الإرادة والعبادة والعمل والسماع المتعلق بأصول الأعمال وفروعها من الأحوال القلبية والأعمال البدنية على الإيمان والسنة والهدى الذى كان عليه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه فقد أصاب طريق النبوة ، وهذه طريق أئمة الهدى) .

وهى الطريق التى سلكها الإمام ابن تيمية بتوفيق من الله وتأييد منه لعبده الذى تمسك بشرائع دينه وجاهد فى سبيله حتى أتاه الحق .

التكامل العلمى

« ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً »
(قرآن كريم)

قليل جداً من الزعماء والقادة والمفكرين أن نجد شخصية متكاملة فى أعمالها وتهذيبها ـ بل من النادر أن يجود عصر بهذه الشخصية التى يصح أن نطلق عليها صفة (السوبرمان) بالمفهوم العام ، خاصة فى أعلام الدول اللا مسلمة ، بل وحتى فى رجالات الإسلام وحملة العلم الذين على أيديهم يزدهر الدين وتتعمق مفاهيمه القدسية .

وعالمنا الكبير الإمام الشيخ أحمد بن تيمية — هو هذه الشخصية الفذة العظيمة التى نبحث عنها ، والتى اكتملت لها كل صفات رجل الإسلام الكامل ، بل وزعيمه بلا منازع . ولقد مر بنا من تاريخه العلمى ماعرفنا من هذا البطل الذى حمل لواء الإيمان والإصلاح ، وكافح ماكافح من أجل رسالة علوية عملها بأمانة تدعو للدهشة ، وبإصرار للحق ماعهد عند غيره من الأعلام .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « لاحمى إلا لله ولرسوله » . الحمى الذى لايطال إليه بشر ، ولا يقصده معتد ، ولا يقرب إليه بسوء ، الحمى الذى يصان ويُحتمى ويدافع عنه بالنفس وبالنفيس . حمى الله سبحانه وتعالى وحمى رسوله عليه الصلاة والسلام — بما جاءنا به الدين الحنيف فى محكم التنزيل وفى الأحاديث الشريفة الصحيحة . والعالم التقى الموفق هو الذى يتثقف ويهضم مختلف العلوم ، وعقيدته بالإسلام وبأخلاق الإسلام أقوى من أية إرادة ، لأنها إرادة من إرادة الحق والإيمان . من إرادة الرب العلى العظيم .

وحدّث ولا حرج ، إذا اخترت العالم الأكبر الإمام ابن تيمية من بين شلة كبار العلماء والفقهاء والدارسين — بل ورجال التاريخ من غير تحديد — ليكون هو أكملهم علماً وأعظمهم شأناً فى أكثر من ناحية . فهذا العلامة — قطب الرحى — بين كل من كان قبله أو من جاء بعده من أكابر العلم والفكر الفضلاء . بمعنى أنه هو العالم الفرد الذى لاقبل له ولا بعد — دون مغالاة .

رجل أنار الله بصيرته بنور من عنده ، وهيأه للدراسة العلمية الشاملة ، والفهم لأوامره ونواهيه ، ومنحه من الذكاء والعقل ما استطاع أن يهضم كل المعارف الدينية والفقهية والفلسفية والاتجاهات الكلامية والصوفية والمذهبية على اختلافها ، ويستظهرها ، ثم ينشر الطيّب منها ويزيل خبائثها ، ويضيف إليها من خبراته والأنوار التى التمسها فى علمه الواسع .

وبذلك كان مجموع إنتاجه المتنوع الهادف ، هو بحق التكامل العلمى الذى بلغه بمداركه الكبرى ومثله العليا ، وبقواه الروحية والذهنية والنفسية . وبعقليته الصافية وقلبه الواعى الأطهر .

وبالرغم من كل ماوصل إليه وحققه من رفعة وكمال علمى وشخصى — فإن بعض العلماء من معاصريه أو مخالفى السلف الصالح ، حقدوا عليه حسداً من جهة ، ومكابرة من جهة أخرى ، على أنه فى مكانة علمية حتى غطت عليهم . أو تمسكهم بآراء وتقاليد ليست من الدين فى شئ . بل وحسدهم كان من النوع السيئ المذموم .

وهذا يذكرنا بما جاء فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى قال : « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها » .

والإمام ابن تيمية نعم بهذه الحكمة وتملاها معايشة اختلطت بدمه ومشاعره . فقضى بها وجاهد كزعيم إسلامى مثالى . وأنتج منها الكثير فى فنون المعرفة والعلوم الدينية التى تهم كل مسلم وباحث عن الحقيقة الصافية — كما أرادها ربنا الأعلى الذى وسع كل شئ ، سبحانه القائل — يعنى كلامه الحق فى محكم كتابه : (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لايؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى) . وقال تعالى مخاطباً نبيه الكريم (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شئ) .

هذا القانون السماوى الأعظم الذى تفهّم أسراره ووعى حقائقه الإمام ابن تيمية . هذى الشخصية الإسلامية المتكاملة ، والعلم الأوحد الذى عرف قدر نفسه بتحصيله ووعيه ، وبفهمه وفكره ، وبحميد أخلاقه العالية ، وبممارسته لهذا العلم الذى تفتحت

له مغاليقه ، فنهل ما طاب له ، وأخذ منه ماجعله فى المقدمة . يستفتى ويؤخذ عنه . يجاهد لدين الله فى ثقة ورضاء ، ويجهر بالحق فى عزة وقوة . فكان بحق أعلم أهل زمانه ، بل وأكمل رجاله من حملة الأمانة العلمية المقدسة لكل ما قد رأينا من جهوده العظيمة فى القيام بمسئولية الرجل الإسلامى المناضل ، وما قد عرفنا من أعماله التاريخية المجيدة التى قل أن ينتج مثلها عالم أو مفكر أو نابغة . وإنها لمفخرة كبرى لذلك العصر الذى عاش فيه الإمام ابن تيمية — يزهو بها على ماتلاه من عصور .

ولعل الكمال الذى وصل إليه الإمام كان نتيجة حتمية لعنايته القصوى التى كان قد أولاها لكتاب الله تعالى وسنة رسوله — عليه الصلاة والسلام — واعتماده عليهما فيما تحدث به وناقش وانتقد ، واجتهد ونصح وأرشد . بل هو الواقع الذى يقرر بأنهما كانا هما السند الأول والمرجع لكل مناهج الإمام ودفاعه وموجات إصلاحاته المتعددة .

قال المؤرخ الذهبى عن الإمام وقدرته النادرة فى التفسير — : (برع فى تفسير القرآن وغاص فى دقيق معانيه بطبع سيال وخاطر إلى مواقع الإشكال ميال ، واستنبط منه أشياء لم يسبق إليها) .

وما دمنا بهذا الصدد فإننا نستمع للإمام يشرح من تلك المعانى الدقيقة فى كتابه [الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح] وهو يفسر معنى قوله تعالى : (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) .

قال الإمام عن ذلك بأن الله سبحانه : (يريد بحسب مقتضى العدل قومه الذين آتاهم بلغتهم لاغيرهم ممن لم يأتهم بما جاء به ، فيقال لهم من فسر مراد متكلم ، أى متكلم كان بما يعلم الناس أنه خلاف مراد ، فهو كذب مفتر عليه ، وأن المتكلم من آحاد العامة ، ولو كان المتكلم من المستنبئين الكذابين ، فإن من عرف كذبه إذا تكلم وعرف مراده به لم يجز أن الكذب عليه ، فيقال : أراد كذا وكذا فإن الكذب حرام قبيح على كل أحد سواء كان صادقا أو كاذباً ، فكيف بمن يفسر الله ورسوله بما يعلم كل من خبر حاله علماً ضرورياً أنه لم يرد ذلك بل يعلم علماً ضرورياً أنه أراد العموم ؟

فإن قوله تعالى : (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً) صيغة عامة وصيغة من الشرطية من أبلغ صيغ العموم كقوله تعالى : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) ، ثم إن سياق الكلام يدل على أنه أراد أهل الكتاب وغيرهم . فإن هذا فى سورة آل عمران فى أثناء مخاطبته لأهل الكتاب ومناظرته للنصارى ، فإنها نزلت لمّا قدم على النبى صلى الله عليه وسلم وفدُ نجران النصارى ، وروى أنهم كانوا ستين راكباً ، وفيهم السيد ، والأيهم والعاقب[1] . وقصتهم مشهورة معروفة كما تقدم ذكرها) .

إلى أن يقول الإمام فى ذلك :

(قال ابن عباس وغيره من السلف : مابعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حىّ ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه . والآى تدل على ماقالوا ، فإن قوله تعالى : (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين) يتناول جميع النبيين (لما أتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه) — سورة آل عمران : ٨١ — وهذه اللام الأولى تسمى : اللام الموطئة للقسم . واللام الثانية تسمى : لام جواب القسم ، والكلام إذا اجتمع فيه شرط وقَسم، وقُدّم القسم سَدَّ جوابُ القسم مسَدَّ جواب الشرط ، والقسم كقوله تعالى : (لئن أخرجوا لايخرجون معهم ولئن قوتلوا لاينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لاينصرون) . فدل ذلك على أن من أدرك محمداً من الأنبياء وأتباعهم وإن كان معه كتاب وحكمة فعليه أن يؤمن بمحمد وينصره) اهـ .

كذلك يتحدث الإمام بهذه الطلاقة الوضاءة ، وفى نفس كتابه هذا عن معجزات القرآن الكريم ، فيبدع وهو يقول :

(القرآن كلام الله وفيه الدعوة والحجة ، فله به اختصاص على غيره ، كما ثبت عنه فى الصحيح أنه (أى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم) قال : « ما من نبى من الأنبياء إلا وقد أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله

---

(١) الأيهم . الرجل البر ، ويقال أيضاً للمصاب فى عقله . والعاقب : من تأتى مرتبته بعد السيد .

إلىّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة[١] » . والقرآن يظهر كونه آية وبرهاناً له ، من وجوه ، جملة وتفصيلا . أما الجملة ، فإنه قد علمت الخاصة والعامة من عامة الأمم ، علما متواتراً أنه هو الذى أتى بهذا القرآن ، وتواترت بذلك الأخبار ، أعظم من تواترها بخبر كل أحد من الأنبياء والملوك والفلاسفة وغيرهم . والقرآن نفسه ، فيه تحدى الأمم بالمعارضة ، والمتحدى هو أن يحدوهم (أى يدعوهم ويبعثهم) إلى أن يعارضوه . فيقال فيه : حدانى على هذا الأمر (أى بعثنى عليه) ومنه سمى حادى العيس ، لأنه يحداه يبعثها على السير . وقد يريد بعض الناس بالتحدى دعوى النبوة ، ولكن أصله الأول ، قال تعالى فى سورة الطور : (أم يقولون تقوله بل لايؤمنون فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين) ، فهنا قال (فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين) فى أنه تقوّله ، فإذا كان محمد قادراً على أن يتقوله كما يقدر الإنسان على أن يتكلم بما يتكلم به من نظم ونثر ، كان هذا ممكناً للناس ، الذين هم من جنسه فأمكن أن يأتوا بمثله) اهـ .

ولكنهم لن يؤتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا — كما أخبر الله تعالى .

ومن كتاب الإمام هذا أيضاً نتعرف على إيضاح مسألة من المسائل المتعلقة بدعاوى المسيحيين ، وقد ادعى (الجهمى) — كبير غلاة الشيعة على أن قوله تعالى : (إنما المسيح عيسى ابن مريم وكلمته ألقاها إلى مريم) يدل على خلق القرآن . ويرد الإمام فى تفسيره لهذه الآية الكريمة — فيقول :

(إنّ الله منعكم الفهم فى القرآن ، عيسى عليه السلام تجرى عليه ألفاظ لاتجرى على القرآن ، لأنّ عيسى يجرى عليه نسمة ومولود وطفل وصبى وغلام يأكل ويشرب وهو يخاطب بالأمر والنهى ، يجرى عليه الوعد والوعيد ، وهو من ذرية نوح ومن ذرية إبراهيم ، ولا يحلّ لنا أن نقول فى القرآن مانقوله فى عيسى : هل سمعتم الله يقول فى القرآن ماقال

---

(١) العلامة جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ ، يفسر هذا الحديث فى فصل (إعجاز القرآن) من كتابه : [الإتقان فى علوم القرآن] فيقول : (قيل إن معناه إن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم ، فلم يشاهدها إلا من حضرها ، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة كما أن المعجزات الواضحة الماضية كانت حسية تشاهد بالأبصار ، ومعجزة القرآن تشاهد بالبصيرة فيكون من يتبعه لأجلها أكثر) . هذا ولغير السيوطى تفسيرات مشابهة ليس هنا محل عرضها .

فى عيسى ؟ ولكن المعنىّ فى قوله جل ثناؤه : (إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) ، فالكلمة التى ألقاها إلى مريم حين قال له : كن فكان بكن ، وليس عيسى هو الكن ، ولكن بالكن كان . فالكن من الله قوله : وليس الكن مخلوقاً ، وكذبت النصارى والجهمية على الله فى أمر عيسى ، وذلك أن الجهمية قالوا : عيسى روح الله وكلمته ، لأن الكلمة مخلوقة . قالت النصارى : روح الله من ذات الله ، وكلمة الله من ذات الله ، كما يقال : هذه الخرقة من هذا الثوب . وقلنا نحن : إن عيسى بالكلمة كان ، وليس عيسى هو الكلمة . قال أحمد بن حنبل : وأما قوله جلّ ثناؤه : (وروح منه) يقول من أمره كان الروح فيه كقوله : (وسخر لكم مافى السموات وما فى الأرض جميعاً منه) —سورة الجاثية : ١٣— . يقول من أمره، وتفسير روح الله إنما معناها أنها روح بكلمة الله خلقها الله . وقال الشعبى فى قوله تعالى : (وكلمته ألقاها إلى مريم) الكلمة حين قال له : كن فكان عيسى بكن وليس عيسى هو الكن ، ولكن بالكن كان . وقال ليث عن مجاهد : (روح منه) رسول منه . يريد مجاهد قوله تعالى : (فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً . قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ، قال إنما أنا رسول ربك) . والمعنى أن عيسى خلق من هذه الروح — وهو جبريل روح القدس — سمى روحا وحا كما كما سمى كلمة ، لأنه خلق بالكلمة ، والنصارى يقولون فى أمانتهم : تجسد من مريم ومن روح القدس ، لأنه جاء كذلك فى الكتب المتقدمة لكن ظنوا أن روح القدس هو صفة الله وجعلوها حياته وقدرته وهو رب ، وهذا غلط منهم ، فإن لم يسم أحد من الأنبياء حياة الله ولا قدرته ولا شيئا من صفاته روح القدس ، بل روح القدس فى غير موضع من كلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يراد بها ماينزل الله على قلوب الأنبياء ، كالوحى ، والهدى ، والتأييد ، ويراد بها الملك ، وهكذا فى تفسير ابن السائب عن أبى صالح عن ابن عباس : أن عيسى ابن مريم استقبل رهطاً من اليهود ، فلما رأوه قالوا : قد جاء الساحر ابن الساحرة ، والفاعل ابن الفاعلة ، فقذفوه وأمه ، فلما سمع عيسى ذلك قال : « اللهم أنت ربى ، وأنا من روحك خرجت ، وبكلمتك خلقتنى ، ولم آتهم من تلقاء نفسى » — وذكر تمام الحديث اه .

وهكذا نجد دائماً الحكمة تتكلم على لسان الإمام ابن تيمية فيما ينقله من آراء السلف الكرام أو مايفسره من معانى عظيمة القدر جليلة النفع . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القرآن : « كتاب الله فيه خبر ما قبلكم ونبأ مابعدكم وحكم ما بينكم . هو الفصل ليس بالهزل ، هو الذى لاتزيغ به الأهواء ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا يخلق من كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، هو الذى مَنْ تركه مِنْ جبّار قصمه ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله . هو حبل الله المتين والذكر الحكيم والصراط المستقيم » .

كيف لا ! وخالقنا القدير المتصرف أراد لنا فى كتابه الحكيم تشريعاً كاملا لمعاشنا وحياتنا الدينية والدنيوية ، وبغيره لن تقوم لأحد قائمة .

ولهذا كان الإمام ابن تيمية يعتصم به فى كل أموره ، ويهتدى بهديه ، وهو يقول فى تقديمه لكتابه المسمى [قاعدة نافعة فى وجوب الاعتصام بالرسالة] :

(والرسالة ضرورية للعباد ، لابد لهم منها ، وحاجتهم إلى كل شئ ، والرسالة روح العالم ونوره وحياته ، فأى صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور ؟ والدنيا مظلمة ملعونة إلا ماطلعت عليه شمس الرسالة ، وكذلك العبد مالم تشرق فى قلبه شمس الرسالة وينا له من حياتها وروحها فهو ظلمة ، وهو من الأموات ، قال الله تعالى : (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ؟) ، فهذا وصف المؤمن كان ميتا فى ظلمة الجهل فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان وجعل له نوراً يمشى به فى الناس ، وأما الكافر فميت القلب فى الظلمات . وسمى الله رسالته روحاً ، والروح إذا عدم فقدت الحياة ، قال الله تعالى : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ؟ ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا) . فذكر هنا الأصلين ، وهما : الروح ، والنور . فالروح الحياة ، والنور النور) اه .

إننا لانبعد إذا قلنا — بل استنتجنا مما طالعناه من أبحاث وتعاليم الإمام ابن تيمية — بأن ثقافته الدينية الشاملة وعلمه المتشعب النواحى ، وإيمانه القوى بالدين الحنيف ، كل هذا أعلى شخصيته الإسلامية النادرة ، وجمّلها وأضفى عليها جلال الكمال وعزة

النفس المطمئنة إلى ربها الآمر الناهى ، وقدنوّلها مرادها وسما بها على كل لون من ألوان المادة سواء منها مايتعلق بالذات أو مايكون من مصادر خارجية .

ولقد عرفنا فى كل موضع من أحاديث الإمام مبلغ سموه ومعالجته لمختلف الأمور على ضوء الإسلام وتشريعاته العليا ، ولانملّ من أن نتزود من هذا الفيض الممتع للروح : فنتعرف هنا على شرح الإمام لمفهوم العلوم الشرعية والعقلية ضمن إجابته لبعض السائلين — حيث يقول : (قول الناس : العلوم الشرعية والعقلية قد يكون بينهما عموم وخصوص وقد يكون أحدهما قسيم الآخر . ويكون الصواب فى مواضع أن يقال : السمعية والعقلية ، وذلك أن قولنا : العلوم الشرعية قد يراد به ما أمر به الشارع ، وقد يراد ماشرع أن يعلم ، وقد يراد به ماعلمه الشارع . فالأول : هو العلم المشروع — كما يقال : العمل المشروع هو الواجب أو المستحب ، وربما دخل فيه المباح بالشرع . والثانى : هو العلم المستفاد من الشارع ، وهو ماعلمه الرسول لأمته بما بعث به من الإيمان والقرآن والكتاب والحكمة ، وهو مادل عليه الكتاب والسنة أو الإجماع ، أو توابع ذلك . فالأول إضافة له بحسب حكمه فى الشرع ، والثانى إضافة إلى طريقه ودليله . فقولنا فى الأول : علم شرعىَ كما يقال : عمل شرعى ، والثانى ؛ كما يقال : علم عقلى وسمعى ، الأول نظر فيه من جهة طريقه ودليله ، وصحة فساده ، ومطابقته ومخالفته ، وهو من جهة خطاب الأخبار . ثم كل من القسمين على قسمين : فإنه إذا عرف أن الشرعى : إما أن يكون ما أخبر به ، وإما أن يكون ما أمر به . فما أخبر به : إما أن يبين له دليلا عقلياً أو لايذكر . وما أمر به : إما أن يكون مقصوداً للشارع ، أو لازماً لمقصود الشارع ، وهو مالا يتم مقصوده الواجب أو المستحب إلا به . فهذه أربعة أقسام) اه .

ومن أبحاث الإمام الفردية كونه يقرر بأن دين الإسلام بعث به من قبل — ببعثة السّيد المسيح وسائر الرسل — عليهم صلوات الله — وقد قال فى كتابه [منهاج السنة النبوية] عن ذلك :

(وقد أخبر الله تعالى عن نوح وإبراهيم وعيسى ابن مريم وغيرهم من الرسل والمؤمنين إلى زمن الحواريين أن دينهم كان الإسلام . قال تعالى عن نوح عليه السلام : (إن كان

كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لايكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلىّ ولا تنظرون . فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرىَ إلا على الله وأُمرت أن أكون من المسلمين) — سورة يونس ٧١، ٧٢ — . وقال تعالى عن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام : (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ، إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لربّ العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنىّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) — سورة البقرة ١٣٠ ، ١٣٢ — . وقال تعالى عن موسى عليه الصلاة والسلام : (ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) — سورة يونس ٨٤ — . وقال تعالى : (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا) — سورة المائدة ٤٤ — . وقال تعالى عن بلقيس : (رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) — سورة النمل ٤٤ — . وقال تعالى عن الحواريين : (وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون) — سورة المائدة ١١١ — : ولما كان المسيح صلوات الله عليه قد بعث بما بعث به المرسلون قبله من عبادة الله وحده لاشريك له ، وأحل لهم بعض ماحرم عليهم فى التوراة ، وبقى أتباعه على ملته مدة — قيل أقل من مائة سنة — ثم ظهرت فيهم البدع بسبب معاداتهم لليهود ، صاروا يقصدون خلافهم ، فغلوا فى المسيح ، وأحلوا أشياء حرمها وأباحوا الخنزير وغير ذلك ، وابتدعوا شركاء بسبب شرك الأمم ، فإن أولئك المشركين من اليونان والروم وغيرهم كانوا يسجدون للشمس والقمر والأوثان ، فنقلتهم النصارى عن عبادة الأصنام المجسَّدة التى لها ظل إلى عبادة التماثيل المصورة فى الكنائس ، وابتدعوا الصلاة إلى المشرق فصلوا إلى حيث تظهر الشمس والقمر والكواكب ، فاعتاضوا بالصلاة إليها والسجود إليها عن الصلاة لها والسجود لها . والمقصود أن النصارى بعد تبديل دينهم كان ناموسهم ودينهم خيراً من دين أولئك اليونان أتباع الفلاسفة ، فلهذا كان الفلاسفة الذين رأوا دين الإسلام يقولون : إن ناموس محمد صلى الله عليه وسلم أفضل من جميع النواميس ، ورأوا أنه أفضل من ناموس النصارى والمجوس وغيرهم ،

فلم يطعنوا فى دين محمد صلى الله عليه وسلم كما طعن أولئك المظهرون للزندقة من الفلاسفة ، ورأوا أن مايقوله أولئك المتكلمون فيه مايخالف صريح المعقول فطعنوا بذلك عليهم وصاروا يقولون : من أنصف ولم يتعصب ولم يتبع الهوى لايقول مايقوله هؤلاء فى المبدإ والمعاد) اهـ .

وفى هذا النطاق ، ونحن نستشفّ معالم من فنون القول للإمام ابن تيمية ، نستدل ونفيد من علومه المتنوعة المتكاملة . وإذا أردنا بحثاً صادقاً حول مسألة قدم العالم التى ناقشها كثير من العلماء ، نجد فى كلام الإمام الاتجاه الإيمانى النابع من نور معارفه فى كل مايصدر من رأى ومن أحكام . ومن نقاشه حول هذا الموضوع — يقول فى بعض المواضع من كتابه :

(فإنه يعلم بصريح المعقول أن فاعل العالم إذا قيل إنه علة تامة أزلية ، والعلة التامة تستلزم معلولها ، لزم أن لايتخلف عنه فى القدم شىء من المعلول ، فلا يحدث عنه شىءٌ لابواسطة ولا بغير واسطة ، ويمتنع أن يصير علة لمفعول بعد مفعول من غير أن يقوم به مايصير علة للثانى ، فيمتنع من تماثل أحواله أن تختلف مفعولاته ويحدث منها شىء . وهذا مما لاينازع فيه عاقل تصوّره تصوراً جيداً ، وحذاقهم يعترفون بهذا ، كما ذكره ابن رشد وأبو عبد الله الرازى وغيرهما ، من أن صدور المتغيرات المختلفة عن الواحد البسيط مما تنكره العقول . وكذلك إذا سمى موجباً بالذات . وكذلك إذا قيل مؤثر تام التأثير فى الأزل ، أو مرجح تام الترجيح فى الأزل ، أو نحو ذلك . وكذلك إذا قيل : هو قادر مختار يستلزم وجود مراده فى الأزل ، فإنه إذا استلزم وجود مراده فى الأزل ، لزم أن لايحدث شىءٌ من مراده ، فلا يحدث فى العالم شىء ، إذ لايحدث شىء إلا بإرادته ، فلو كانت إرادته أزلية مستلزمة لوجود مرادها معها فى الأزل ، لزم أن لايكون شىءٌ من المرادات حادثاً ، فلا يكون فى العالم حادث ، وهو خلاف المشاهدة ؛ فهم لايقولون ولا يقول عاقل إنه علة تامة أزلية لجميع معلولاتها ، ولا موجب أزلى لجميع العالم حتى أشخاصه . ولا يقول أحد إن جميع مراده مقارن له فى الأزل ؛ بل يقولون : إن أصول العالم كالأفلاك والعناصر هى الأزلية القديمة بأعيانها ، وإن الحركات والمولدات

قديمة النوع ، أو يقولون : إن مواد هذا العالم كالجواهر المفردة أو الهيولى أو غير ذلك هى قديمة أزلية بأعيانها ، وهذا باطل كله . إذ كان قدم شىء من ذلك يستلزم أن يكون فاعله مستلزماً له فى الأزل ، سواء سمى موجباً له بذاته فى الأزل ، أو علة تامة قديمة مستلزمة لمعلولها ، أو قيل : إنه فاعل بإرادته الأزلية المستلزمة للمفعول المراد فى الأزل ، وإذا قيل : هو علة تامة لأصول العالم دون حوادثه ، أو مريد بإرادة أزلية مستلزمة لاقتران مرادها بها فى الأزل ، لكن تلك الإرادة الأزلية المقارنة لمرادها إنما تعلقت بأصول العالم دون حوادثه ، قيل لهم : هذا باطل من وجوه : منها : أن مقارنة المفعول المعين لفاعله — لاسيما مقارنته له أزلا وأبداً — ممتنع فى صريح العقول ، بل وفى بداهة العقول بعد التصوّر التام . وإذا قالوا : العلوم الضرورية لايجتمع على جحدها طائفة من العقلاء الذين لايجوز عليهم التواطؤ على الكذب . قيل لهم : لاجرم هذا القول لم يتفق عليه طائفة من العقلاء من غير تواطؤ ، بل جماهير العقلاء من الأولين والآخرين ينكرونه غاية الإنكار ، وإنما طائفة واحدة بعضهم عن بعض ، على سبيل مواطأة بعضهم لبعض ، وتلقى بعضهم عن بعض ، ومع المواطأة على تعمد الكذب ، وعلى الأمور المشتبهة كالمذاهب الباطلة التى يعلم فسادها بالضرورة ، وقد توارثها طائفة تلقاها بعضهم عن بعض ، بخلاف الأقوال التى يقرّ بها الناس من غير مواطأة ، فتلك لايكون منها ما يعلم فساده ببداهة العقل ، ولهذا كان فى عامة أقوال الكفار وأهل البدع — من المشركين والنصارى والرافضة والجهمية وغيرهم — مايعلم فساده بضرورة العقل ، ولكن قاله طائفة تلقاه بعضهم عن بعض) .

إلى أن يقول الإمام فى بحثه المطوّل الدقيق هذا :

(والعالم إن كان شىءٌ منه قديماً أزلياً لا حادث فيه ، ثم حدث فيه حادث ، فقد غيره من الحال القديمة الأزلية الواجبة بنفسها أو بغيرها إلى حال أخرى تخالفها .

وهذا مع أنه ممتنع ، فإذا كان هذا بدون سبب حادث كان ممتنعاً من هذا الوجه ومن هذا الوجه . وأيضاً فالعالم لايتصور انفكاكه عن مقارنة الحوادث ، فإن الأجسام لاتخلو عن مقارنة الحوادث : الحركة وغيرها . والعالم ليس فيه إلا ماهو قائم بنفسه

أو بغيره بلا نزاع بين العقلاء ، وتلك الأعيان لاتخلو عن مقارنة الحوادث ، فإنها لو خلت عنها ثم قارنتها للزم حدوث الحوادث بلا سبب ، وهذا باطل . وإن لم يكن هذا باطلا جاز حدوث الحوادث بلا سبب ، فبطل القول بقدم العالم . ثم كثير من النظار يقول : ليس فى العالم إلا جسم وعرض . وهؤلاء منهم من يفسر الجسم بما يشار إليه ، ويمنع كون كل جسم مركباً من الجواهر الفردة أو من المادة والصورة ، فلا يلزمهم من الاشكال مايتوجه على غيرهم . وإن قدر أن فيه مايخرج عن ذلك كما يذكره من يثبت العقول والنفوس ، ويقول إنها ليست أجساماً ، فالنفوس لاتفارق الأجسام ، بل هى دائماً مقارنة للحوادث ، والعقول علة لذلك مستلزمة لمعلولها لايتقدم عليها بالزمان ، فيمتنع أن يكون فى العالم مايسبق الحوادث ، فيمتنع أن يكون شىء منه قديماً أزلياً سابقاً للحوادث ، وحينئذ فالمبدع لشىء منه يمتنع أن يبدعه بدون إبداع لوازمه ، ولوازمه يمتنع وجودها فى الأزل ، فيمتنع وجود شىء فى الأزل) .

ويستطرد الإمام فى عرض الأقوال المغايرة ويعقبها بالرد — حتى يقول :

(وكل من تدبر هذه الأمور تبين له أنه سبحانه خالق كل شىء من الأعيان وصفاتها وأفعالها بأفعاله الاختيارية القائمة بنفسه ، كما دلت على ذلك نصوص الأنبياء واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها ووافقهم على ذلك أساطين الفلاسفة القدماء ، وهذا مما يبين حدوث كل ماسواه وأنه ليس علة أزلية لمعلول قديم ، مع أنه دائم الفاعلية ، ولا يلزم من دوام كونه فاعلا أن يكون معه مفعول معين قديم ، بل هذا من أبطل الباطل . وهؤلاء المتفلسفة القائلون بقدم العالم عن موجب بذاته هو علة تامة أزلية له ، يسلمون أنه ليس علة تامة فى الأزل لكل حادث ، فإن هذا لايقوله من يتصور مايقول ، فإن العلة التامة هى التى تستلزم معلولها وتستعقبه ، فإذا كان المعلول حادثاً بعد أن لم يكن ، لم يكن المستلزم له أزلياً ، لما فى ذلك من تأخر المعلول وتراخيه زماناً لانهاية له عن العلة التامة الأزلية ، فإن كل حادث يوجد فى العالم متأخر عن الأزل تأخراً لانهاية له ، فلو كانت علته التامة ثابتة فى الأزل لكان المعلول متأخراً عن العلة التامة تأخراً لانهاية له ، والعلة التامة لايكون بينها وبين معلولها فصل أصلا ، بل النزاع هل يكون معها فى الزمان أو يكون

عقبها فى الزمان ، ويكون معها كالجزء الثانى من الزمان مع الذى قبله : هذا مما يتكلم فيه الناس ، وإن كانوا متفقين على أنه متأخر عنها تأخراً عقلياً وأنه لاينفصل عنها . وهل يتصل بها اتصالا زمانياً أو يقترن بها اقتراناً زمانياً ؟ هذا محل نظر الناس . والمقصود هنا أن كل مايحدث العالم فلا تكون علته التامة المستلزمة تامة قبله بحيث يكون بينهما انفصال ، فكيف تتقدم عليه تقدماً لا نهاية له ؟ لكون غاية مايقولون : إنه علة تامة أزلية لما كان قديماً من العالم كالأفلاك ، وأما مايحدث فيه ، فإنما يصير علة تامة له عند حدوثه . ويقولون : إن حدوث الأول شرط فى حدوث الثانى ، كالماشى الذى يقطع أرضاً بعد أرض ، وكحركة الشمس التى تقطع بها مسافة بعد مسافة ؛ فالمتحرك لايقطع المسافة الثانية حتى يقطع الأولى ، فقطع الأولى بحركته شرط فى قطع الثانية بحركته ، والعلة التامة لقطع الثانية إنما وجدت بعد الأولى) اه .

بهذا التحليل العميق يتحدث الإمام ابن تيمية فى أعقد المسائل حتى يخلص إلى أقوى النتائج وأنسب الحلول على هدى من الفهم الصحيح للدين عند الله تعالى ولنظامه السكونى العجيب — كما شاء فى قدرته سبحانه وهدى إليه أولى الألباب البررة المصلحين الذين لاخوف عليهم ولا هم يحزنون .

ولنأخذ لوناً آخر من حديث الإمام فى كتابه (الحسبة فى الإسلام) عندما تكلم عن الثواب والعقاب وأوضح منها ماينير السبيل فى تعامل الناس فيما بينهم . قال الإمام فى هذا :

(الثواب والعقاب يكونان من جنس العمل فى قدر الله وفى شرعه ، فإن هذا من العدل الذى تقوم به السماء والأرض ، كما قال تعالى : (إن تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفواً قديراً) ، وقال : (وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم) . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « من لا يَرحم لا يُرحم » . وقال : « إن الله وتر يحب الوتر » . وقال : « إن الله جميل يحب الجمال » ، وقال : « إن الله طيِّب لايقبل إلا طيِّباً » ، وقال : « إن الله نظيف يحب النظافة » . ولهذا قطع يد السارق ، وشرع قطع يد المحارب ورجله ، وشرع القصاص فى الدماء والأموال والأبشار ، فإذا أمكن أن تكون

العقوبة من جنس المعصية كان ذلك هو المشروع بحسب الإمكان ، مثل ماروى عن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه فى شاهد الزور أنه أمر بإركابه دابة مقلوبة وتسويد وجهه . وهذا قد ذكره فى تعزير شاهد الزور طائفة من العلماء من أصحاب أحمد وغيرهم .

ولهذا قال الله تعالى : (ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا) . وقال تعالى : (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً ؟ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) . وفى الحديث : « يحشر الجبارون والمتكبرون على صورة الذّرّ يطؤهم الناس بأرجلهم » . فإنهم لما ذَلُّوا عباد الله أذلهم الله لعباده ، كما أن من تواضع لله رفعه ، فجعل العباد متواضعين له) اه .

كذلك هم الذين اعتصموا بحبل الله القوى (يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) . يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اجعل العلم مالك ، والأدب حليتك » .

كذلك لم يكن أىّ أذى لحق بعالمنا الإمام ابن تيمية ليسىء إلى ذاته أو يحد من خطواته أو ينال من جزء من عقيدته الإيمانية الكاملة . بل بالعكس ، فما كان يزداد إلا تمسكاً بدينه وبما توحى به تعاليمه السامية ، حتى لقد تعددت الجبهات التى افتتحت أمامه — يصد هجمات المغيرين ، وينقض افتراءات الزائغين ، ويحض على اتباع شريعة الإسلام شريعة البقاء الأصلح . ولا يقبل بأى مخرج عن كتاب الله تعالى وسنة رسوله الأعظم — عليه الصلاة والسلام — من كل أولئك الذين خاضوا فى شئون الفلسفة والمذاهب الدينية والعقلية والشيعية .

إننا لنستذكره اليوم — نعنى الإمام ابن تيمية — ليرى ماقد تطورت إليه أحوال المذهبيين والملحدين ، وما قد جدّ من مذاهب حديثة يستنكرها الدين ، ولكنها تعشش فى أوكارها وتمتد بزيغها إلى أكثر من مكان وفى حماية بعض الدول التى هانت فيها كرامة الدين الحنيف ولم يعد يعنيها إلا بقاءها وأمورها الدنيوية .

ونحن نعرف مثلا قبل أكثر من قرن من الزمان ، كيف نشأت (البهائية) فى إيران بوجود داعيتها المدعو (ميرزا على محمد الشيرازى) المولود سنة ١٢٥٢ هـ . وهو يعتقد بالإمامية ، وأن الإمام الثانى عشر قد غيب فى (سرَّ من رأى) وأنه ينتظر حضوره ، ثم ادعى هذا الأفاك — أنه المهدى المنتظر ، وأن الله قد حل فيه هو ، ولقد قاومته الدولة حتى اضطرت إلى قتله وهو بعد فى الثلاثين من عمره . وكان من مريديه — من يدعى (بهاء الله) الذى نُفى من فارس ، فاتخذ له مقرا فى أدرنة ، ولهذا يسمى مذهبهم (البهائية) أو (البابية) — كما سماها ميرزا السابق . ولقد انتشر هذا المذهب إلى البلاد الأمريكية ، وتمركز فى شيكاغو . وباسم الإسلام يذيع مقرراته الضالة وتشريعاته الإلحادية على الناس ، فيغرر بهم وهم فى غيهم يترددون تماماً كما كان يفعل مذهب (القديانية) الذى نشأ بالهند فى أوائل هذا القرن ، وترجع نسبته إلى ميرزا غلام أحمد القديانى الذى توفى سنة ١٣١٠هـ ، وكان قد ادعى أيضاً أنه المهدى المنتظر ، وأنه رسول من عند الله . وتلتف حول هذا المذهب وغيره فئات عميت أفئدتهم عن الحق ، ولا من داع يدعو إلى مقاومتهم ، وتصحيح أخطائهم .

فلو كان بيننا اليوم شخصية كالإمام ابن تيمية — لدعى بالسيف إلى محاربة كل هذه الفئات الضالة طريق الهدى والنور ، حتى تنمحى عن الوجود الإسلامى ، تلك الدعاوى المغرضة والبدع الفاسدة والمذاهب اللا شرعية .

إن الإمام يقول فى ختام كتابه [السياسة الشرعية] عن مسئولية القيِّم على أمر البلاد — بالحرف :

(فالواجب على المسلم أن يجتهد فى ذلك بحسب وسعه ، ومصالح المسلمين وأقام فيها ، مايمكنه من الواجبات واجتناب مايمكنه من المحرمات لم يؤاخذ بما يعجز عنه ، فإن تولية الأبرار خير للأمة من تولية الفجار . ومن كان عاجزاً عن إقامة الدين بالسلطان والجهاد ، ففعل مايقدر عليه ، من النصيحة بقلبه ، والدعاء للأمة ومحبة الخير ، وفعل ما يقدر عليه من الخير لم يكلف ما يعجز عنه ، فإن قوام الدين بالكتاب الهادى والحديد الناصر ، كما ذكره الله تعالى . فعلى كل أحد الاجتهاد فى اتفاق القرآن والحديد لله تعالى ،

ولطلب ماعنده ، مستعيناً بالله فى ذلك ، ثم الدنيا تخدم الدين ، كما قال معاذ بن جبل رضى الله عنه : [يا ابن آدم أنت محتاج إلى نصيبك من الدنيا ، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج ، فإن بدأت بنصيبك من الآخرة مر بنصيبك من الدنيا ، فانتظمها انتظاماً ، وإن بدأت بنصيبك من الدنيا فاتلك نصيبك من الآخرة ، وأنت من الدنيا على خطر] . ودليل ذلك ما رواه الترمذى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أصبح والآخرة أكبر همّه جمع الله له شمله ، وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدنيا وهى راغمة ؛ ومن أصبح والدنيا أكبر همه فرق الله ضيعته ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له » . وأصل ذلك فى قوله تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) اه .

ونقف هنا بعد أن اقتطفنا من ثمار العلم الشهية التى اكتملت نضجاً ونفعاً للقلوب وللنفوس وللأفكار الباحثة عن زاد المعرفة المتكامل — فيما استعرضناه من بعض نتاج الإمام ابن تيمية الذى تفخر وتعتز به المكتبة الإسلامية كعمل خالد لايجيده إلا الراسخون فى العلم ، وإلا شخصية متكاملة كشخصية الإمام فى خلقها وطبعها وإيمانها وعلومها واتجاهاتها المصلحة حيث انطلقت تسبر أغوار الواقع — لتسمو بهذا الواقع وتحقق أرفع مثل الفضيلة والنبل والعواطف الإنسانية إلى جانب السير الحثيث نحو تنوير الأذهان وبث شرائع الدين كما أنزلها الله تعالى وبينها لنا فى كتابه المقدس وفى كلام رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم . والعاقبة للمتقين .

ذلك هو القصد والغاية . ومن كان هذا هدفه فقد تحقق له مراده وفاز بالمكانة العليا — كهذه الشخصية الإسلامية لعالمنا المتكامل الإمام ابن تيمية ، الذى دخل التاريخ من كل أبوابه الواسعة ، ويكفيه أنه مثل فريد بين كافة العلماء والفقهاء ، ألا وإن كل عصر يتمنى أن يوجد فيه مثله — رضى الله عنه .

صراع العلماء

الإمام ابن تيمية : عالم إسلامى كبير ، وشخصية فذة قوية . هذا لا شكّ فيه — وإنما الذى يدعو إلى الشك هو مصدر تلك التصرفات الغريبة من السلطات الحاكمة التى كانت تتسلط على رجال الدين المصلحين . فكيف أثمر ذلك المصدر ونال مانال من إمام العلم وقطبه ؟ وكيف استجابت هذه السلطات إلى دعاوى المغرضين فيه ؟ ؟

إننا لنعجب من تلك العقليات المظلمة التى وقفت فى جبهة معاكسة لتيار الخير وفضل العلم ومقوّماته الرفيعة .

إنها تتخذ من المادية قوتها ، ومن تحكمها سندها ، ولا تجد من حرج فى مخالفة شريعة السماء ، واضطهاد الأبرياء وحماة الدين .

وذلك ماكان يحدث لشيخ الإسلام : علامة الدين والعبقرى المهذب : الإمام أحمد ابن تيمية . فلقد عاد من القاهرة إلى دمشق سنة ٧١٣ هـ يواصل نضاله العلمى . يعظ الناس ، ويفسر لهم أمور دينهم من القرآن والحديث ، ويجيب على مسائلهم واستشاراتهم كطبيب يجدون عنده الدواء . يستفتونه فيفتيهم بما فتح الله عليه من عظيم الاجتهاد والتوفيق فى العلوم الدينية والفقهية . ولم يكن ليزعجه شئ حتى ولا حقد خصومه ولا مناوأتهم له .

ولكن الأيام لم تكن لتصفو للإمام — وهو منها على حذر — سوى أعوام قلائل . فإنه فى سنة ٧١٨ هـ — تحدث فيما تحدث ، بشأن الحلف بالطلاق ، واعتبره معاصروه أمراً خطيراً ، إذ أن هذه المسألة الفقهية لم تثر إلا فى زمنه . إذ أنه أفتى بأن الطلاق الثلاث مرة واحدة لايقع إلا واحدة رجعية ، وبعدم وقوع الطلاق بالحلف به إذا حنث ، وأن على الحالف أداء كفارة اليمين فقط — كما وردت فى القرآن الكريم .

آنذاك ثار القوم عليه ، وأقيمت عليه الدعاوى — حتى اضطر الحاكم إلى إصدار أمر بمنع الإمام — من الفتوى بعدم وقوع الطلاق — وإلى المناداة بهذا فى الأسواق العامة ليعرفه الناس ويحذروا من الوقوع فى شره — كما اعتقدوا . ولكن الإمام القوى الإرادة والإيمان كان يقول : (لايسعنى كتمان العلم) . فلا يتوقف عن نشره حيثما كان .

إنه يجاهر برأيه ويجيب على من يستفتيه ، مما قدسبب له أن يتعرض للسجن فى دمشق قرابة نصف عام ، أفرج عنه بعدها ليعقد له اجتماع من قبل الحاكم ، حيث تلى فيه الأمر الملكى بمنعه رسمياً من الإفتاء مع التأكيد عليه فى هذا المنع الساذج .

ولم يعجب خصومه هذا الإجراء التعسفى — وهم لايفتأون يشاكلونه — فأثاروا عليه مسألة أخرى فى موضوع (شد الرحال) والرأى الذى كان قد قال به الإمام فى ذلك : من أن السفرإلى أضرحةالأولياء غير مشروع ، بل وفيه معصية — اتباعا لما جاء فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل « لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدى هذا » — يعنى المسجد النبوى الشريف . وقوله الآخر عليه الصلاة والسلام : « لاتتخذوا قبرى عيداً ، وصلوا علىّ أينما كنتم فإن صلاتكم تبلغنى » .

وأقوال الإمام ابن تيمية فى هذا الموضوع — صريحة تتمشى مع روح الدين ، ولما كانت مطولة ، ومن غير الممكن اختصارها ، فإننا نجتزئ ببعض منها على سبيل الاستشهاد، وقد قال الإمام فى كتابه [الجواب الباهر فى زوار المقابر] ضمن أحد فصوله : (وإذا كانت زيارة قبور المؤمنين مشروعة فزيارة قبور الأنبياء والصالحين أولى : لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم له خاصية ليست لغيره من الأنبياء والصالحين ، وهو إنما أمرنا أن نصلى عليه وأن نسلم عليه فى كل صلاة ، وشرع ذلك فى الصلاة ، وعند الأذان ، وسائر الأدعية ، وأن نصلى ونسلم عليه عند دخول المسجد — مسجده وغير مسجده — وعند الخروج منه ، فكل من دخل مسجده فلا بد أن يصلى فيه ويسلم عليه فى الصلاة . والسفر إلى مسجده مشروع ، لكن العلماء فرقوا بينه وبين غيره ، حتى كره مالك رحمه الله أن يقال : زرت قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، لأن المقصود الشرعى فى زيارة القبور السلام عليهم والدعاء لهم ، وذلك السلام والدعاء قد حصل على أكمل الوجوه فى الصلاة فى مسجده وغير مسجده وعند سماع الأذان وعند كل دعاء . فتشرع الصلاة عليه عند كل دعاء ، فإنه (أولى بالمؤمنين من أنفسهم) . ولهذا يسلم المصلى عليه فى الصلاة قبل أن يسلم على نفسه وعلى سائر عباد الله الصالحين ، فيقول : « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » . ويصلى عليه فيدعو له قبل أن يدعو

لنفسه ، وأما غيره فليس عنده مسجد فيستحب السفر إليه كما يستحب السفر إلى مسجده ، وإنما يشرع أن يزار قبره كما شرعت زيارة القبور . وأما هو صلى الله عليه وسلم فيشرع السفر إلى مسجده وينهى عما يوهم أنه سفر إلى غير المساجد الثلاثة . ويجب الفرق بين الزيارة الشرعية التى سنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبين الزيارة البدعية التى لم يشرعها بل نهى عنها ، مثل اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد ، والصلاة إلى القبر ، واتخاذه وثناً) .

ثم يقول الإمام فى مكان آخر من كتابه [الرد على الإخنائى — واستحباب زيارة خير البرية الزيارة الشرعية] — بعد أن ذكر حديث شد الرحال قال :

(وهذا الحديث اتفق الأئمة على صحته والعمل به ، فلو نذر الرجل أن يصلى بمسجد أو مشهد أو يعتكف فيه ويسافر إليه غير المساجد الثلاثة لم يجب عليه ذلك باتفاق الأئمة ، ولو نذر أن يسافر إلى المسجد الحرام بحج وعمرة وجب عليه ذلك باتفاق العلماء ، ولو نذر أن يأتى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم أو المسجد الأقصى لصلاة أو اعتكاف وجب الوفاء بهذا النذر عند مالك والشافعى فى أحد قوليه وأحمد . ولم يجب عليه عند أبى حنيفة لأنه لايجب عنده بالنذر إلا ماكان من جنسه واجب بالشرع . وأما الجمهور فيوجبون الوفاء بكل طاعة لما ثبت فى صحيح البخارى عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه » .

والسفر إلى المسجدين طاعة فلذا وجب الوفاء به . وأما السفر إلى بقعة غير المساجد الثلاثة فلم يوجب أحد من العلماء السفر إليها إذا نذره ، حتى نص العلماء على أنه لايسافر إلى مسجد قباء لأنه ليس من الثلاثة ، مع أن مسجد قباء تستحب زيارته لمن كان بالمدينة لأن ذلك ليس بشد رحل كما فى الحديث الصحيح : « من تطهر فى بيته ثم أتى مسجد قباء لايريد إلا الصلاة فيه كان كعمرة » . وهذا الحديث رواه أهل السنن كالنسائى وابن ماجه والترمذى وحسنه ، وقالوا لأن السفر إلى قبور الأنبياء والصالحين بدعة لم يفعلها أحد من الصحابة ولا التابعين ولا أمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا استحب ذلك أحد من أئمة المسلمين ، فمن اعتقد ذلك عبادة وفعلها فهو مخالف للسنة ولإجماع

الأئمة . وهـذا مما ذكره أبو عبد الله بن بطة[1] فى (الإبانة الصغرى) من البدع المخالفة للسنة) .

إلى أن يقول الإمام موضحاً أكثر :

(وأول من وضع هذه الأحاديث فى السفر لزيارة المشاهد التى على القبور أهل البدع والروافض ونحوهم الذين يعطلون المساجد ويعظمون المشاهد التى يُشرَك فيها ويكذب فيها ويبتدع فيها دين لم ينزل الله به سلطاناً ، فإن الكتاب والسنة إنما فيهما ذكر المساجد دون المشاهد ، كما قال تعالى : ـ الأعراف ٢٩ ـ (قل أمر ربى بالقسط ، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين) . وقال : ـ الجن ١٨ ـ (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً) . وقال : ـ التوبة ١٨ ـ (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) . وقال : ـ البقرة ١٨٧ ـ (ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد) . وقال : ـ البقرة ١١٤ ـ (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه) . وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإنى أنهاكم عن ذلك » اهـ .

هذا ، ولعل مانقلناه من بعض أقوال الإمام فى هذه المسألة يلقى الضوء على سلامة مقصده وما أراد الإرشاد إليه فى حدود التشريع الربانى . بعد هـذا نكتفى بما قاله ابن الألوسى فى كتابه [جلاء العينين] عن ذلك .

(إن شيخ الإسلام رحمه الله تعالى لم يحرم للقبور على الوجه المشروع فى شئ من كتبه ، ولم ينه عنها ، ولم يكرهها ، بل استحبها وحض عليها ، ومصنفاته ومناسكه طافحة بذكر استحباب زيارة قبر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وسائر القبور) .

ولكن خصوم الإمام ابن تيمية المناوئين له ، يرون فى شرحه ورأيه فى رأيه فى هذه المسألة ـ مايعتقدون بأنه إهدار لمقامات الأنبياء والصالحين . فما سكتوا عنه إلا وقد استعدوا عليه الملك ، بواسطة أعوانه ، فاستجاب لشكاواهم ، وأصدر أمره بسجن الإمام

---

(١) اسمه عبيد الله بن محمد العكبرى : محدث وفقيه ، ولد سنة ٣٠٤ هـ ، وتوفى سنة ٣٨٧ هـ ـ ومن مؤلفاته / : (المناسك ، والسنن ، والإبانة عن شريعة الفرق الناجية ومجانبة الفرق المذمومة) .

سنة ٧٢٦ هـ — فى قلعة دمشق ، وقد لازمه هنا شقيقه الآخر زين الدين عبد الرحمن ، يؤنسه ويقوم بشئونه ، بتصريح من الملك الذى كان أشعرى المذهب . فليس عجيباً أن يتصرف هذا التصرف الأحمق ومندفعاً أيضاً بتأثير من خصوم الإمام ، حتى إنه استجاب للتصديق كذلك على أوامر بسجن فريق من أصحاب الإمام العلماء وتعزيرهم بعض الوقت، وفيهم تلميذه النابغة ابن قيم الجوزية الذى بقى فى السجن مدة طويلة ، بينما جرى إطلاق الآخرين .

ولقد كان الإمام شديد العناية بتلميذه ابن القيم هذا ، لما لمسه فيه من ذكاء وقاد وفهم للعلوم الدينية فى أصولها وانتهاجه مسلك السلف الصالح ، فأصبح مثله يجاهد البدع ومخالفى الدين بالطرق المتعددة . ويصيبه هو أيضاً أذى الخصوم والاعتقال ، وقد اشترك مع أستاذه الشيخ ابن تيمية فى وضع كتاب [القياس فى الشرع الإسلامى] وإثبات أنه لم يرد فى الإسلام نص يخالف الصحيح .

ولعل من أروع ما نستشهد به من أقوال العلامة ابن القيم أن نقتطف أبياتاً من كتابه الشعرى [المنظومة النونية المسماة بالكافية الشافية فى الانتصار للفرقة الناجية] وقد أجمل فيها عقيدته السلفية ورده على المذهبيين من الفرق الضالة . ومنها يقول :

(والآخرون أولوا الحديث كأحمد　　ومحمد وأئمة الإيمان
قالوا بأن الله حقاً لم يزل　　متكلماً بمشيئة وبيان
إن الكلام هو الكمال فكيف يخـ　　ـلوا عنه فى أزل بلا إمكان)

ويقول فيها أيضاً يخاطب تلك الفرق :

(أفسدتمُ المعقولَ والمنقول والـ　　ـمسموع من لغة بكل لسان
أيصح وصف الشيء بالمشتق لا　　مسلوب معناه لذى الأذهان)

إلى أن يقول :

(فلئن زعمتم أن ذاك تسلسلٌ　　قلنا صدقتم وهو ذو إمكان
كتسلسل التأثير فى مستقبل　　هل بين ذينك قط من فرقان
والله ما افترقا لذى عقل ولا　　نقل ولا نظر ولا برهان)

نعود للإمام ابن تيمية فى سجنه لنراه لم يضعف ولم يهن عزمه ، وقد تلقى ماقضى عليه به بالرضى والحمد لله . بل لقد كان فرحاً لوجوده بالسجن ، فنسمعه يقول آنئذ:

(أنا كنت منتظراً لذلك ، وهذا فيه خير كثير ومصلحة كبيرة) .

ولكننا نحن نتساءل : أين هو هذا الخير أو هذه المصلحة ؟ والعالم التقى — رجل الدين المكافح لنصرة شرائعه . الداعى لتنقيتها من الشوائب — بين جدران السجن ؟ ؟

إلا أن هذا التساؤل يقف فى شبه اقتناع عندما نستمع للإمام — يقول : — كما روى المؤرخ ابن رجب[1] — .

(قد فتح الله علىّ فى هذا الحصن فى هذه المدة من معانى القرآن ، ومن أصول العلم ، بأشياء كان كثير من العلماء يتمنونها ، وندمت على تضييع أكثر أوقاتى فى غير معانى القرآن) .

هذا كلام حق لعالم ثقة ، عاش حياته لخدمة العلم ونشره والصراع فى سبيله بكل ما أوتى من جهود ومن مقوّمات . وقد تلا عند دخوله السجن إليه هـذه الآية الكريمة : (فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب) .

ثم إنه يقول — حيث هو — كما يروى تلميذه ابن القيم ، معتزاً بنفسه الكبيرة وبإرادته المؤمنة :

(ماذا يصنع أعدائى بى ؟ أنا جنتى وبستانى فى صدرى ، فهى معى لاتفارقنى ، أنا حبسى خلوة ، وقتلى شهادة ، وإخراجى من بلدى سياحة) .

يا للرجل العظيم . لاشئ يمكن أن يصرفه أو يبعده وقتاً عما هو يقظٌ له ، قائم به ، متخصص فيه ، حتى التسلط والاعتقال . كان العلم هو كل شئ له فى حياته : رجاؤه وعمله ، سمعه وبصره ، قلبه ووجدانه ، الحق وفيضه المعرفة وجلالها ، الأخلاق وعظمتها. وعنهم تنبع الحكمة (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً) أجل — فالإمام ابن تيمية : شيخ الإسلام الغزير العلم ، الرحب الصدر ، الواسع الأفق ، الرفيع الخلق ، حكيم فى كل علومه لامراء

---

(١) هو الحافظ زين الدين أبى الفرج عبد الرحمن الحنبلى — توفى سنة ٧٩٥ هـ .

إذ أنه استكمل كل علم طرقه بوعى الرائد الشغوف ، كما أكمل كل بحث عالجه بإفاضة حتى وفاه حقه من جميع جوانبه . فما عرضت له مسألة إلا وقد شملها بفكره وتصريفه بحيث لايترك فيها موضعاً يجب الحديث فيه أو يحسن تكميله برأيه الثاقب .

مثال ذلك ماكتبه الإمام للشيخ أبى الفتح نصر المنبجى، الذى أصبح خصما لدوداً له — فى مسألة مذهب وحدة الوجود . ونأخذ هنا مقتطفات مماكتبه من حقائق نيرة — كدليل على مواجهة شيخنا العظيم للمواقف دون تخوف أو حرج . قال الإمام فى رسالته :

(وقد بلغنى أن بعض الناس ذكر عند خدمتكم الكلام فى مذهب الاتحادية ، وكنت قد كتبت إلى خدمتكم كتاباً اقتضى الحال من غير قصد أن أشرت فيه إشارة لطيفة إلى هؤلاء ، ولم يكن القصد به والله أحداً بعينه ، وإنما الشيخ هو مجمع المؤمنين ، فعلينا أن نعينه فى الدين والدنيا بما هو اللائق به ، وأما هؤلاء الاتحادية فقد أرسل إلىّ الداعى من طلب كشف حقيقة أمرهم ، وقد كتبت فى ذلك كتاباً ربما يرسل إلى الشيخ : وقد كتب سيدنا الشيخ عماد الدين فى ذلك رسائل، والله تعالى يعلم وكفى به عليما ، لولا أنى أرى دفع ضرر هؤلاء عن أهل طريق الله تعالى السالكين إليه من أعظم الواجباب ، وهو شبيه بدفع التتار عن المؤمنين — لم يكن للمؤمنين بالله تعالى ورسوله حاجة إلى أن يكشف أسرار الطريق ، وتهتك أستارها ، ولكن الشيخ أحسن الله تعالى إليه يعلم أن مقصود الدعوة النبوية ، بل المقصود بخلق الخلق وإنزال الكتب وإرسال الرسل، أن يكون الدين كله لله ، هو دعوة الخلائق إلى خالقهم بما قال تعالى : (إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً) ، وقال سبحانه : (قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى) ، وقال تعالى : (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله الذى له مافى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور) . وهؤلاء موّهوا على السالكين التوحيد الذى أنزل الله تعالى به الكتب وبعث به الرسل — بالاتحاد الذى سموه توحيداً ، وحقيقته تعطيل الصانع وجحود الخالق . وإنما كنت قديماً ممن يحسن الظن بابن العربى وتعظيمه ، لما رأيت فى كتبه من الفوائد مثل كلامه فى كثير من : [الفتوحات ، والكنه ،

والمحكم المربوط ، والدرة الفاخرة ، ومطالع النجوم] ونحو ذلك . ولم يكن بعد اطلعنا على حقيقة مقصوده ، ولم نطالع [الفصوص] ونحوه) .

إلى أن يقول الإمام مفسرا أقوال أولئك الملحدين :

(وأما الحلول المطلق ، وهو أن الله تعالى بذاته حالّ فى كل شىء ، فهذه تحكيه أهل السنة والسلف من قدماء الجهمية ، وكانوا يكفرونهم بذلك ، وأما ماجاء به هؤلاء من الاتحاد العام ، فما علمت أحداً سبقهم إليه إلا من أنكر وجود الصانع ، مثل فرعون والقرامطة : وذلك أن حقيقة أمرهم أنهم يرون أن عين وجود الحق هو عين وجود الخلق ، وأن وجود ذات الله خالق السموات والأرض هى نفس وجود المخلوقات ، فلا يتصور عندهم أن يكون الله تعالى خلق غيره ، ولا أنه رب العالمين ، ولا أنه غنىّ وما سواه فقير ، ولكن تفرعوا على ثلاثة طرق . وأكثر من ينظر فى كلامهم لايفهم حقيقة أمرهم ، لأنّه مبهم) .

وبعد أن يبين الإمام ماهى هذه الطرق الثلاث — يقول :

(وكنت أخاطب بكشف أمرهم لبعض الفضلاء الضالين ، وأقول : إن حقيقة أمرهم هو حقيقة قول فرعون المنكر لوجود الخالق الصانع ، حتى حدثنى بعضٌ عن كثير من كبرائهم أنهم يعترفون ويقولون : نحن على قول فرعون ، وهذه المعانى كلها هى قول صاحب (الفصوص) . والله تعالى أعلم بما مات عليه الرجل ، والله يغفر لجميع المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، الأحياء منهم والأموات . (ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربّنا إنك رءوف رحيم) : والمقصود — أن حقيقة ماتضمنه كتاب (الفصوص) إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه جاء به وهو ما إذا فهم المسلم بالاضطرار أن جميع الأنبياء والمرسلين وجميع الأنبياء والصالحين ، بل جميع عوامل أهل الملل من اليهود والنصارى والصابئين يبرءون إلى الله تعالى من بعض هذا القول ، فكيف منه كله ؟ ونعلم أن المشركين عباد الأوثان ، والكفار أهل الكتاب يعترفون بوجود الصانع الخالق البارىء المصور ، الذى خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، ربهم ورب آبائهم الأولين ، رب المشرق

والمغرب . ولا يقول أحد منهم إنه عين المخلوقات ، ولا نفس المصنوعات ، كما يقوله هؤلاء ، حتى أنهم يقولون : لو زالت السموات والأرض زالت حقيقة الله) .

إلى أن يقول الإمام :

(وهذا يقوله قوم من الاتحادية ، ولكن أكثرهم جهال لايفرقون بين الاتحاد العام المطلق ، الذى يذهب إليه الفاجر التلمسانى وذووه ، وبين الاتحاد المعين الذى يذهب إليه النصارى والغالية) اهـ .

وهكذا كان الإمام ابن تيمية يكشف أضاليل أصحاب هذا المذهب المغالى فى الكفريات ، ويستعرضهم واحداً بعد الآخر ، وقد استاء الشيخ المنبجى لهذه الصراحة الزائدة ، وكان ماكان من مواقفه التنكرية ضد الإمام وسعيه مع الساعين إلى الإساءة له وسجنه .

ولكن الإمام كان يتخذ من السجن مزية ، فيزداد إقباله على كتاب الله تعالى يدرسه ، ويتضح له منه ماكان يأسف على صرف الوقت فى غير دراسته .

وممن كتبوا عن الإمام وأرخوا أحداثه وأفضاله : العلامة البزّار الذى وضع عنه كتابه [الأعلام العلية من مناقب ابن تيمية] . والعلامة مرعى بن يوسف الكرمى — ألف عنه [الكواكب الدرية فى مناقب ابن تيمية] ، وفيه يقول : (قد كثر أئمة الإسلام من الثناء على هذا الإمام ، كالحافظ المزِّى ، وابن دقيق العيد ، وأبى حيان النحوى ، والحافظ ابن رجب ، والحافظ ابن سيد الناس ، والحافظ الزملكانى ، وغيرهم من الأئمة الأعلام)

وقد قال العلامة كمال الدين الزملكانى فى شخصية الإمام العلمية — على الرغم مما كان بينهما من تنافس — :

(كان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جالسوه استفادوا فى مذاهبهم منه أشياء . ولايعرف أنه ناظر أحداً فانقطع معه ، ولا تكلم فى علم من العلوم سواء كان فى علم الشرع وغيره ، إلا فاق فيه أهله ، واجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها) .

ذلك هو رجل الدين العظيم . شيخ الإسلام — كما تواضعوا وقالوا عنه — الإمام ابن تيمية . وقد انتصر فى صراعه مع الحياة ، ومع الناس ، ومن كل تلك المسببات

التى وقفت فى طريقه لتعيق سيره أو لتحد من خطواته الصلبة الماضية فى طريق النور والحق والفضيلة .

كان صراعه من أجل مبدإ عظيم . بل هو أجل وأعظم مبدأ للإنسان : يأتى إلى هذه الحياة أعزلاً ، ثم يتزود من الحقيقة المشرقة فى نفسه بدين الله العلى الحكيم ، ويجد ذاته فى الخضمّ الحائر المتضارب . فلا يقف مكتوف اليدين ، ولديه من السلاح مايمكنه من أن يخوض معارك الحق والضمير ، ويرتفع بعقيدته عن مستوى الأحداث : عقيدة الدين الذى رضيه لنا الإله القدير سبحانه — بعد أن أكمله لنا وأتم نعمته علينا — جل شأنه وعز مقامه .

يقول الدكتور محمد رشاد سالم — المعاصر — فى تقديمه المطول لكتاب الإمام [منهاج السنة النبوية] فى طبعته الحديثة(١) :

(ولا تقتصر أهمية مؤلفات ابن تيمية على مابها من علم غزير وآراء ناضجة ونظرات صائبة ، ولكنها تعد فوق ذلك كله سجلا حافلا يضم معلومات شتى لها أعظم القيمة ؛ وابن تيمية — كما نعلم — من رجال القرن الثامن الهجرى ، ويمكننى القول بأنه قد استوعب أهم ما ألف وكتب قبل عصره من العلوم المختلفة ، ثم نقل إلينا خلاصة ماعلمه ضمن مؤلفاته ، وكان هذا النقل عن طريق الإشارة إلى الآراء المختلفة والتعليق عليها أحياناً . ولذلك فكثيراً مانجد ضمن مؤلفاته صفحات كاملة منقولة من كتب أخرى قد تكون مفقودة أو مازالت مخطوطة فى كثير من الأحيان) .

هذا ، وقد اختار الأستاذ صاحب هذا التقديم مذهب الإمام ابن تيمية ، حيث اتخذه موضوع الرسالة التى كتبها باسم [موافقة العقل والنقل عند ابن تيمية] ونال بها شهادة الدكتوراه من جامعة كمبردج بانجلترا .

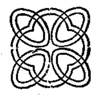
ولقد عنى بتراث الإمام — حتى المستشرقون ، نذكر منهم : مستر هنرى لاوست — الذى درسه واتخذ من آرائه فى المجتمع والسياسة موضوع أحد رسالتين تقدم بها فى باريس

(١) ظهرت هذه الطبعة المستقلة سنة ١٣٨٢ هـ ، وقد أشار الدكتور المذكور فى مقدمته إلى أن مؤلفات الإمام ستظهر على ثلاثة أقسام : مؤلفاته ، وتراجمه ، ودراسات عنه .

لنيل شهادة الدكتوراه ، ثم إنه قام بترجمة مقتطفات — اختارها من كتب الإمام إلى اللغة الفرنسية .

وإننا لن نفى حق الإمام مهما قلنا ، وقد كان صراعه الجبار يدوى أثره فى كل آفاق المعمورة ، بل ويمتد إلى مابعده من أجيال . ولهذا كان نصره — نصر القائد البطل فى ميدانه البناء لعزة الدين الإسلامى ونصرة شعائره الأصيلة . وأصبح الإمام مضرب المثل فى جهاد العالم المتمكن والفقيه المجتهد الذى لايبارى .

إنه ليعتبر من أكبر مجددى النهضة الإسلامية ، وباعثى تراثها الروحى الشامخ . مضى فى مقدمة الخالدين . عليه رحمة الله تعالى ورضوانه .



نفحات من تراثه

كان لابد ، ونحن نترجم لعالم علامة وشيخ كبير من شيوخ الإسلام - كالإمام ابن تيمية ، أن نفرد صفحات خاصة بألوان مختلفة من تراثه القيم الذى قل أن ينتج مثله عالم أو مفكر أو أديب .

وإتماماً للفائدة فى كتابنا - فإننا نقتطف من هذا التراث الخالد - مانعتقد أنه قد يفى بالغرض من بين كتب الإمام العديدة من أبحاثه المتنوعة التى تهم كل دارس وطالب معرفة ورائد ثقافة .

ففى مطلع كتابه [قاعدة شريفة فى المعجزات والكرامات] يقول عن هذا الموضوع ماينير الطريق أمام كل مسلم :

(وإن كان اسم (المعجزة) يعم كل خارق للعادة فى اللغة وعرف الأئمة المتقدمين كالإمام أحمد بن حنبل وغيره - ويسمونها : الآيات - لكن كثير من المتأخرين يفرق فى اللفظ بينهما ، فيجعل (المعجزة) للنبى ، و (الكرامة) للولى ، وجماعهما الأمر الخارق للعادة .

فنقول : صفات الكمال ترجع إلى (ثلاثة) : العلم ، والقدرة ، والغنى . وإن شئت أن تقول : العلم ، والقدرة . والقدرة إما على الفعل وهو التأثير ، وإما على الترك وهو الغنى ، والأول أجود . وهذه الثلاثة لاتصلح على وجه الكمال إلا لله وحده ، فإنه الذى أحاط بكل شئ علماً ، وهو على كل شئ قدير ، وهو غنى عن العالمين . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبرأ من دعوى هذه الثلاثة بقوله : (قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول لكم إنى ملك ، إن أتبع إلا مايوحى إلىّ) . وكذلك قال نوح عليه السلام. فهذا قول أولى العزم ، وأول رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض . وهذا خاتم الرسل وخاتم أولى العزم كلاهما يتبرأ من ذلك . وهذا لأنهم يطالبون الرسول صلى الله عليه وسلم تارة بعلم الغيب كقوله تعالى : (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين)و(يسألونك عن الساعة أيان مرساها ؟ قل إنما علمها عند ربى) .

وتارة بالتأثير ، كقوله : (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلا : — إلى قوله — : قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا ؟) :

وتارة يعيبون عليه الحاجة البشرية ، كقوله : (وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ؟ لولا أنزل عليه ملك فيكون معه نذيراً ، أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ؟) . فأمره أن يخبر أنه لايعلم الغيب ، ولا يملك خزائن الله ، ولا هو ملَك غنى عن الأكل والمال ، إن هو إلا متبع لما أوحى إليه ، واتباع ما أوحى الله هو الدين ، وهو طاعة الله ، وعبادته علماً وعملا بالباطن والظاهر وإنما ينال من تلك الثلاثة بقدر مايعطيه الله تعالى فيعلم منه ما علمه إياه ، ويقدر منه على ما أقدره الله عليه ، ويستغنى عما أغناه الله عنه من الأمور المخالفة للعادة المضطردة أو لعادة غالب الناس) .

وحول هذا المعنى يقول الإمام بشرح أوفى — فى فصل آخر من نفس الكتاب :

(الخارق كشفاً كان أو تأثيرا إن حصل به فائدة مطلوبة فى الدين كان من الأعمال الصالحة المأمور بها ديناً وشرعاً ، إما واجب وإما مستحب ، وإن حصل به أمرٌ مباح كان من نعم الله الدنيوية التى تقتضى شكراً ، وإن كان على وجه يتضمن ماهو منهى عنه نهى تحريم أو نهى تنزيه كان سبباً للعذاب أو البغض ، كقصة الذى أوتى الآيات فانسلخ منها : بلعام بن باعوراء[1] ، لكن قد يكون صاحبها معذوراً لاجتهاد أو تقليد أو نقص عقل أو علم أو غلبة حال أو عجز أو ضرورة ؛ فيكون من جنس برح العابد .

و (النهى) قد يعود إلى سبب الخارق وقد يعود مقصوده ، فالأول مثل أن يدعو الله دعاء منهياً عنه اعتداء عليه . وقد قال تعالى : (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لايحب

---

(١) بلعام — هو الذى أرسله (بلك) ملك مؤاب ، ليلعن بنى إسرائيل ، وقد حدث له ماجعل دابته تؤنبه ، فتحول إلى أن يباركهم بدلا من لعنهم .

المعتدين) : ومثل الأعمال المنهى عنها إذا أورثت كشفاً أو تأثيراً . والثانى أن يدعو على غيره بما لايستحقه أو يدعو للظالم بالإعانة ، ويعينه بتهمته : كخفراء العدو وأعوان الظلمة من ذوى الأحوال ، فإن كان ـ صاحبه من عقلاء المجانين والمغلوبين غلبة بحيث يعذرون ، والناقصون نقصاً لايلامون عليه كانوا برحيَّة . وقد بينت فى غير هذا الموضع مايعذرون فيه ، وإن كانوا عالمين قادرين كانوا بلعاميّة ، فإن من أتى بخارق على وجه منهىٍّ عنه أو لمقصود منهىّ عنه . فإما أن يكون معذوراً معفوا عنه كبرح ، أو يكون متعمّداً للكذب كبلعام .

فتلخص أن الخارق (ثلاثة أقسام) : محمود فى الدين ، ومذموم فى الدين ، ومباح لا محمود ولا مذموم فى الدين ، فإن كان المباح فيه منفعة كان نعمة ، وإن لم يكن فيه منفعة كان كسائر المباحات التى لامنفعة فيها كاللعب والعبث .

قال أبو على الجوزجانى[1] : (كن طالباً للاستقامة لاطالباً للكرامة . فإنّ نفسك منجبلة على طلب الكرامة ، وربك يطلب منك الاستقامة) . قال الشيخ السهروردى[2] فى عوارفه : وهذا الذى ذكره أصلٌ عظيم كبير فى الباب ، وسر غفل عن حقيقته كثير من أهل السلوك والطلاب . وذلك أن المجتهدين والمتعبدين سمعوا عن سلف الصالحين المتقدمين وما منحوا به من الكرامات وخوارق العادات فأبداً نفوسهم لاتزال تتطلع إلى شئ من ذلك . ولعل أحدهم يبقى منكسر القلب متهماً لنفسه فى صحة عمله حيث لم يكاشف بشئ من ذلك ، ولو علموا سر ذلك لهان عليهم الأمر ، فيعلم أن الله يفتح على بعض المجاهدين الصادقين من ذلك باباً . والحكمة فيه أن يزداد بما يرى من خوارق العادات وآثار القدرة تفننّا ، فيقوى عزمه على هذا الزهد فى الدنيا ، والخروج من دواعى الهوى . وقد يكون بعض عباده يكاشف بصدق اليقين ، ويرفع عن قلبه الحجاب ، ومن كوشف بصدق اليقين فلو كوشف هذا المرزوق صدق اليقين بشئ من ذلك لازداد

(١) هو إبراهيم بن يعقوب ـ توفى سنة ٢٥٩ هـ .

(٢) العلامة السهروردى ـ هو شهاب الدين عمر بن محمد بن عبد الله ، توفى سنة ٦٣٠ هـ ـ عن ٩٣ عاما ـ واسم كتابه المذكور هنا : [عوارف المعارف] .

يقيناً : فلا تقتضى الحكمة كشف القدرة بخوارق العادات لهذا الموضع استغناء به ، وتقتضى الحكمة كشف ذلك لآخر — لموضع حاجته ، وكان هذا الثانى يكون أتم استعداداً وأهلية من الأول . فسبيل الصادق مطالبة النفس بالاستقامة ، فهى كلّ الكرامة . ثم إذا وقع فى طريقه شئ خارق كان كأن لم يقع ، فما يبالى ولا ينقص بذلك . وإنما ينقص بالإخلال بواجب حق الاستقامة) .

وفى موضوع هذه المُثل الرفيعة والدعوة إليها ، نستمع إلى الإمام يقول فى موضع آخر من حديثه حول التوبة والاستغفار ، وما يجب على المؤمن معرفته عنهما — قال :

(وأيضاً فما يستغفر ويتاب منه ما فى النفس من الأمور التى لوْ قالها أو فعلَها عُذِّب . قال تعالى : (إن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ، فيغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء) . فهو يغفر لمن يرجع عما فى نفسه ، فلم يتكلم به ، ولم يعمل : كالذى همّ بالسيئة ولم يعملها ، وإن تركها لله كتبت له حسنة . وهذا مما يستغفر منه ويتوب ، فإن الاستغفار والتوبة من كل ما كان سبباً للذم والعقاب ، وإن كان لم يحصل العقاب ، ولا الذم . فإنه يفضى إليه ، فيتوب من ذلك : أى يرجع عنه ، حتى لا يفضى إلى شر ، فيستغفر الله منه : أى يطلب منه أن يغفر له ، فلا يشقيه به ، فإنه وإن لم يعاقب عليه فقد ينقص به . فالذى يهم بالسيئات وإن كان لا يكتب عليه سيئة ، لكنه اشتغل بها عما كان ينفعه ، فينقص بها عمن لم يفعلها ، واشتغل بما ينفعه عنها . وقد بسطنا فى غير هذا الموضع : أن فعل الإنسان وقوله — إمّا له وإمّا عليه — لا يخلو من هذا أو هذا — فهو يستغفر الله ويتوب مما عليه . وقد يظن ظنون سوء باطلة ، وإن لم يتكلم بها ، فإذا تبين له فيها استغفر الله وتاب) .

ثم يقول الإمام قبل ختامه لهذا الفصل :

(وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد قال عن أهل القرى المعذبين : (وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم) . وأما قوله : (اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا) فقد قيل : إن الذنوب هى الصغائر ، والإسراف هو الكبائر .

والتحقيق أن (الذنوب) اسم جنس ، و (الإسراف) تعدى الحد ، ومجاوزة القصد ، كما فى لفظ الإثم والعدوان ، فالذنوب كالإثم ، والإسراف كالعدوان ، كما فى قوله : (غير باغ ولا عاد) ومجاوزة قدر الحاجة ، فالذنوب مثل اتباع الهوى بغير هدى من الله . فهذا كله ذنب ، كالذى يرضى لنفسه ، فهو متبع لهواه ، و (الإسراف) كالذى يغضب لله ، فيعاقب بأكثر مما أمر الله . والآية فى سياق قتال المشركين) .

إلى أن يقول الإمام مستكملا :

(والاستغفار يمحو مابقى من عثراته (أى عثرات الشرك) ، ويمحو الذنب الذى هو من شعب الشرك ، فإن الذنوب كلها من شعب الشرك . فالتوحيد يذهب أصل الشرك ، والاستغفار يمحو فروعه ، فأبلغ الثناء قول : لاإله إلا الله ، وأبلغ الدعاء قول : أستغفر الله . فأمره بالتوحيد والاستغفار لنفسه ، ولإخوانه من المؤمنين . وإياك والنظر فى كتب أهل الفلسفة الذين يزعمون فيها أنه كلما قوى نور الحق وبرهانه فى القلوب خفى عن المعرفة ، كما يبهر ضوء الشمس عيون الخفافيش بالنهار . فاحذر مثل هؤلاء وعليك بصحبة أتباع الرسل المؤيدين بنور الهدى وبراهين الإيمان ، أصحاب البصائر فى الشبهات والشهوات ، الفارقين بين الواردات الرحمانية والشيطانية ، العالمين العاملين : (أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون) .

والتوبة من أعظم الحسنات ، والحسنات كلها مشروط فيها الإخلاص لله . وموافقة أمره باتباع رسوله ، والاستغفار من أكبر الحسنات ، وبابه واسع . فمن أحسّ بتقصير فى قوله ، أو عمله ، أو حاله أو رزقه ، أو تقلّب قلبه : فعليه بالتوحيد والاستغفار ، ففيهما الشفاء إذا كانا بصدق وإخلاص) .

وننتقل إلى كتاب تعليمى آخر للإمام دعاه [الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان] يوضح فيه الكثير من المسائل فى هذا الباب . وهو يقول :

(وأفضل أولياء الله هم الأنبياء ، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم ، وأفضل المرسلين أولو العزم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وعليهم وسلم ، قال تعالى : (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى

وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) . وقال تعالى : (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ليسأل الصادقين عن صدقهم ، وأعد للكافرين عذاباً أليما) . وأفضل أولى العزم محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وإمام المتقين ، وسيد ولد آدم ، وإمام الأنبياء إذا اجتمعوا ، وخطيبهم إذا وفدوا ، صاحب المقام المحمود الذى يغبطه الأولون والآخرون وصاحب لواء الحمد ، وصاحب الحوض المورود ، وشفيع الخلائق يوم القيامة وصاحب الوسيلة والفضيلة ، الذى بعثه بأفضل كتبه وشرع له أفضل شرائع دينه ، وجعل أمته خير أمّة أخرجت للناس ، وجمع له ولأمّته من الفضائل والمحاسن مافرقه فيمن قبلهم ، وهم آخر الأمم خلقاً ، وأول الأمم بعثاً ، كما قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ، فهذا يومهم الذى اختلفوا فيه » يعنى يوم الجمعة « فهدانا الله له : الناس تَبَعٌ فيه ، غداً لليهود وبعد غد للنصارى » . وقال صلى الله عليه وسلم : « أنا أول من تنشقّ عنه عنه الأرض » . وقال صلى الله عليه وسلم : « آتى باب الجنة فأستفتح ، فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول : أنا محمد ، فيقول : بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك » .

وفضائله صلى الله عليه وسلم وفضائل أمته كثيرة ، ومن حين بعثه الله جعله الله الفارق بين أوليائه وبين أعدائه ، فلا يكون ولياً لله إلا من آمن به وبما جاء به ، واتّبعه باطناً وظاهراً ، ومن ادعى محبة الله وولايته وهو لم يتبعه فليس من أولياء الله ، بل من خالفه كان من أعداء الله وأولياء الشيطان ، وقال تعالى : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) . وقال الحسن البصرى رحمه الله : ادعى قومٌ أنهم يحبون الله فأنزل الله هذه الآية محنة لهم ، وقد بين الله فيها أن من اتبع الرسول فإن الله يحبه ، ومن ادعى محبة الله ولم يتبع الرسول صلى الله عليه وسلم فليس من أولياء الله ولا يكونون من أولياء الله ؛ فاليهود والنصارى يدعون أنهم أولياء الله وأحباؤه . قال تعالى : (قل فلم يعذبكم بذنوبكم ؟ بل أنتم بشر ممن خلق) الآية . وقال تعالى : (وقالوا لن يدخل الجنة إلاّ من كان هوداً أو نصارى ، تلك أمانيهم) إلى قوله : (ولا هم يحزنون) .

إلى أن يقول الإمام عن معجزات النبى عليه الصلاة والسلام ، وبعض كرامات صحابته — فى نهاية كتابه هذا :

(وكرامات أولياء الله إنما حصلت ببركة اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم فهى فى الحقيقة تدخل فى معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم ، مثل انشقاق القمر ، وتسبيح الحصى فى كفّه ، وإتيان الشجر إليه ، وحنين الجذع إليه ، وإخباره ليلة المعراج بصفة بيت المقدس ، وإخباره بما كان وما يكون ، وإتيانه بالكتاب العزيز ، وتكثير الطعام والشراب مرات كثيرة ، كما أشبع فى الخندق العسكر من قدر طعام وهو لم ينقص ، فى حديث أم سلمة المشهور ، وروَى العسكر فى غزوة خيْبر من مزادة ماء ولم تنقص ، وملأ أوعية العسكر عام تبوك من طعام قليل ولم ينقص وهم نحو ثلاثين ألفاً ، ونبع الماء من بين أصابعه مرات متعددة حتى كفى الناس الذين كانوا معه ، كما كانوا فى غزوة الحديبية نحو ألف وأربعمائة أو خمسمائة . ورده لعين أبى قتادة حين سالت على خده فرجعت أحسن عينيه ، ولما أرسل محمد بن مسلمة لقتل كعب بن الأشرف فوقع وانكسرت رجله فمسحها فبرئت ، وأطعم من شواء مائة وثلاثين رجلا كلا منهم حز له قطعة وجعل منها قطعتين فأكلوا منها جميعهم ، ثم فضل فضلة ، ودين عبد الله أبى جابر لليهودى وهو ثلاثون وسقاً . قال جابر : فأمر صاحب الدين أن يأخذ التمر جميعه بالذى كان له فلم يقبل ، فمشى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال لجابر : جدَّ له ، فوفاه الثلاثين وسقاً وفضل سبعة عشر وسقاً ، ومثل هذا كثير قد جمعت نحو ألف معجزة . وكرامات الصحابة والتابعين بعدهم وسائر الصالحين كثيرة جداً : مثل ما كان (أسيد بن حضير) يقرأ سورة الكهف فنزل من السماء مثل الظلة فيها أمثال السرج وهى الملائكة نزلت لقراءته ، وكانت الملائكة تسلم على عمران بن حصين ، وكان سلمان وأبو الدرداء يأكلان فى صفحة فسبحت الصفحة أو سبّح من فيها ، وعباد بن بشر وأسيد بن حضير خرجا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ليلة مظلمة فأضاء لهما نور مثل طرف السوط ، فلما اقتربا افترق الضوء معهما . رواه البخارى وغيره . وقصة (الصّدّيق) فى الصحيحين لما ذهب بثلاثة أضياف معه إلى بيته وجعل لا يأكل لقمة إلاّ ربا من أسفلها أكثر منها ، فشبعوا

وصارت أكثر مما هى قبل ذلك ، فنظر إليها أبو بكر وامرأته فإذا هى أكثر مما كانت ، فرفعها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء إليه أقوام كثيرون فأكلوا منها وشبعوا .

و (خبيب بن عدى)[١] كان أسيراً عند المشركين بمكة شرفها الله تعالى ، وكان يؤتى بعنب يأكله وليس بمكة عنب .

و (عامر بن فهيرة) قتل شهيدا فالتمسوا جسده فلم يقدروا عليه وكان لما قتل رفع فرآه عامر بن الطفيل قد رفع ، وقال عروة : فيرون الملائكة رفعته .

وخرجت (أم أيمن) مهاجرة وليس معها زاد ولا ماء فكادت تموت من العطش فلما كان وقت الفطر وكانت صائمة سمعت حسّا على رأسها فرفعته فإذا دلو معلق فشربت منه حتى رويت وما عطشت بقية عمرها .

وسفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أخبر الأسد بأنه رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمشى معه الأسد حتى أوصله مقصده .

و (البراء بن مالك) كان إذا أقسم على الله تعالى أبر قسمه ، وكان فى الحرب إذا اشتد على المسلمين فى الجهاد يقولون : يابراء . أقسم على ربك ، فيقول : يارب ، أقسمت عليك لما منحتنا أكتافهم ، فيهزم العدو ، فلما كان يوم (القادسية) قال : أقسمت عليك يارب لما منحتنا أكتافهم وجعلتنى أول شهيد ، فمنحوا أكتافهم ، وقتل البراء شهيداً .

و (خالد بن الوليد[٢]) حاصر حصناً منيعاً فقالوا لا نسلم حتى تشرب السم ، فشربه فلم يضره .

و (سعد بن أبى وقاص[٣]) كان مستجاب الدعوة مادعا قط إلا استجيب له ، وهو الذى هزم جنود كسرى وفتح العراق .

و (عمر بن الخطاب) لما أرسل جيشاً أمّر عليهم رجلا يسمى (سارية) فبينما عمر يخطب فجعل يصيح على المنبر : ياسارية الجبل ، ياسارية الجبل ، فقدم رسول الجيش ، فسأل فقال : يا أمير المؤمنين لقينا عدواً فهزمونا فإذا بصائح : ياسارية الجبل ، ياسارية الجبل ، فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم الله .

---

(١) ابن عدى الأنصارى — توفى شهيدا فى السنة الثانية للهجرة الشريفة .
(٢) سيف الله الذى قاد الجيوش وانتصر فى كل المواقع ، توفى سنة ٢٧ هـ .
(٣) سعد — الصحابى المعروف — وقد توفى سنة ٥٩ هـ .

ولما عذبت (الزبيرة) على الإسلام فى الله فأبت إلاّ الإسلام ، وذهب بصرها ، قال المشركون : أصاب بصرها اللات والعزى ، قالت : كلاّ والله ، فرد الله عليها بصرها .

ودعا (سعيد بن زيد[1]) على أروى بنت الحكم فأعمى بصرها لما كذبت عليه فقال : اللهم إن كانت كاذبة فأعمى بصرها ، واقتلها فى أرضها ، فعميت ووقعت فى حفرة من أرضها فماتت .

و (العلاء بن الحضرمى) كان عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم على البحرين وكان يقول فى دعائه : يا عليم ، يا حليم ، يا علىّ ، يا عظيم ، فاستجاب له ، ودعا الله بأن يسقوا ويتوضأوا لمّا عدموا الماء والإسقاء لما بعدهم ، فأجيب ، ودعا الله لما اعترضهم البحر ولم يقدروا على المرور بخيولهم ، فمروا كلهم على الماء ما ابتلت سروج خيولهم ، ودعا الله أن لا يروا جسده إذا مات ، فلم يجدوه فى اللحد) .

واستطرد الإمام فى ذكر العديد من كرامات أولياء الرحمن ، ثم تناول أيضاً أفعال أولياء الشيطان الخرافية وعقائدهم الجاهلية . وهو فى كلّ ذلك يدلنا على صالح الأعمال الناجحة ، ويحذر الناس من الوقوع فى شرك أولئك القوم الضالين الذين قال فيهم الله سبحانه وتعالى : (ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) .

ويقول الإمام يرد على أسئلة حول السماع والتطريب — فى فتاواه :

(أصل هذه المسألة : أن يفرق بين السماع الذى ينتفع به فى الدين ، وبين ما يرخّص فيه رفعاً للحرج ، بين سماع المتقرّبين ، وبين سماع المتلاعبين ، فأمّا السماع الذى شرعه الله تعالى لعباده ، وكان سلف الأمة من الصحابة والتابعين ، وتابعيهم يجمعون عليه لصلاح قلوبهم ، وزكاة نفوسهم — فهو سماع آيات الله تعالى ، وهو سماع النبيين والمؤمنين ، وأهل العلم ، وأهل المعرفة .

---

(١) سعيد — أحد المبشرين بالجنة ، توفى بالمدينة سنة ٥١ هـ ، عن ٧٣ عاما .

قال الله تعالى : لما ذكر من ذكره من الأنبياء في قوله : (أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ، وممن حملنا مع نوح ، ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ، وممن هدينا واجتبينا ، إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكيًّا) .

وقال : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ، وعلى ربهم يتوكلون) .

إلى أن يقول الإمام مستكملا بعض جوانب هذا البحث :

(وبالجملة فقد عرف بالاضطرار من دين الإسلام : أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يشرع لصالحي أمته وعبادهم وزهادهم أن يجتمعوا على استماع الأبيات الملحنة ، مع ضرب بالكف أو ضرب بالقضيب ، أو الدف . كما لم يبح لأحد أن يخرج عن متابعته ، واتباع ماجاء به من الكتاب والحكمة ، لا في باطن الأمر ، ولا في ظاهره ، ولا لعامي ولا لخاصي ، ولكن رخص النبي صلى الله عليه وسلم في أنواع من اللهو في العرس ونحوه . كما رخص للنساء يضربن بالدف في الأعراس والأفراح . وأمّا الرجال على عهده ، فلم يكن أحد منهم يضرب بدف ، ولا يصفق بكف ؛ بل قد ثبت عنه في الصحيح أنه قال : « التصفيق للنساء والتسبيح للرجال » بل ولعن المتشبهات من النساء بالرجال ، والمتشبهين من الرجال بالنساء) .

ولما كان الغناء والضرب بالدف والكف من عمل النساء ، كان السلف يسمّون من يفعل ذلك من الرجال مخنثاً ، ويسمون الرجال المغنين مخانيثاً ، وهذا مشهور في كلامهم . ومن هذا الباب حديث عائشة رضي الله عنها لما دخل عليها أبوها رضي الله عنه — في أيام العيد ، وعندها جاريتان من الأنصار تغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بعاث . فقال أبو بكر رضي الله عنه : « أبمزمار الشيطان في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم معرضاً بوجهه عنهما ، مقبلا بوجهه الكريم إلى الحائط . فقال : دعهما يا أبا بكر ، فإن لكل قوم عيداً ، وهذا عيدنا أهل الإسلام » . ففي هذا الحديث بيان : أن هذا لم يكن من عادة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الاجتماع عليه ، ولهذا سماه الصّديق مزمار الشيطان ، والنبي صلى الله عليه وسلم أقرّ الجواري عليه معلّلا

ذلك بأنه يوم عيد ، والصغار يُرخص لهم فى اللعب فى الأعياد ، كما جاء فى الحديث « ليعلم المشركون أن فى ديننا فسحة) وكان لعائشة لعب تلعب بهن ويجئن صواحباتها من صغار النسوة يلعبن معها ، وليس فى حديث الجاريتين أن النبى صلى الله عليه وسلم استمع إلى ذلك . والأمر والنهى إنما يتعلق بقصد الاستماع — كما فى الرؤية فإنه إنما يتعلق بالاستماع ، لا بما يحصل منها بغير الاختيار . وكذلك فى اشتمام الطيب إنما ينهى المحرم عن قصد الشم ، فأما إذا شم مالم يقصده فإنه لاشئ عليه . وكذلك فى مباشرة المحرمات — كالحواس الخمس : من السمع والبصر والشم والذوق واللمس ، إنما يتعلق الأمر والنهى من ذلك بما للعبد فيه قصد وعمل ، وأما ما يحصل بغير اختياره فلا أمر فيه ولا نهى . وهذا مما وجه به الحديث الذى فى السنن عن ابن عمر « أنه كان مع النبى صلى الله عليه وسلم فسمع صوت زمارة راع ، فعدل عن الطريق ، وقال : هل تسمع ؟ هل تسمع ؟ حتى انقطع الصوت » اه .

ثم نستكمل من هذا الباب الذى تحدث فيه الإمام وأطال — مايعطينا فكرة موجزة عن ذلك من جميع وجوهه — قال :

(ولهذا كان المكاء والتصدية يدعو إلى الفواحش والظلم ، ويصد عن حقيقة ذكر الله تعالى والصلاة كما يفعل الخمر ، والسلف يسمونه تغبيراً ، لأن التغبير هو الضرب بالقضيب على جلد من الجلود ، وهو ما يغبر صوت الإنسان على التلحين ، فقد يضم إلى صوت الإنسان: إما بالتصفيق بأحد اليدين على الأخرى ، وإما بالضرب بقضيب على فخذ وجلد ، وإما الضرب باليد على أختها ، أو غيرها على دفّ أو طبل كناقوس النصارى ، والنفخ فى صفارة كبوق اليهود . فمن فعل هذه الملاهى على وجه الديانة والتقرّب فلا ريب فى ضلالته وجهله[1] . وأمّا إذا فعلها على وجه التمتع والتلعب فمذهب الأئمة الأربعة أن آلات اللهو كلها حرام ، فقد ثبت فى صحيح البخارى وغيره (أن النبى صلى الله عليه وسلم أخبر أنه سيكون من أمته من يستحل الحر والحرير ، والخمر

---

(١) يقصد الامام غلاة الصوفية الذين يقيمون الأذكار ويحيونها بالطبل والزمر — بل وبالرقص أيضاً ، مما يتنافى كليا مع كرامة الدين وحرمته .

والمعازف . وذكر أنهم يمسخون قردة وخنازير). و (المعازف) هي الملاهي — كما ذكر ذلك أهل اللغة . جمع معزفة وهي الآلة التي يعزف بها : أي يصوّت بها . ولم يذكر أحد من أتباع الأئمة في آلات اللهو نزاعا . إلا أن بعض المتأخرين من أصحاب الشافعي ذكر في اليراع وجهين ، بخلاف الأوتار ونحوها ، فإنهم لم يذكروا فيها نزاعا . وأما العراقيون الذين هم أعلم بمذهبه وأتبع له ، فلم يذكروا نزاعا لا في هذا ، ولا في هذا ، بل صنف أفضلهم في وقته — أبو الطيب الطبري[1] شيخ ابن إسحاق الشيرازي[2] في ذلك مصنفا معروفا ، ولكن تكلموا في الغناء المجرد عن آلات اللهو : هل هو حرام ؟ أم مكروه ؟ أم مباح ؟ وذكر أصحاب أحمد لهم في ذلك ثلاثة أقوال ، وذكروا عن الشافعي قولين ، ولم يذكروا عن أبي حنيفة ومالك في ذلك نزاعا ...) .

تلك هي خلاصة القول في مسألة السماع — كما أخذناها عن الإمام . وإذا اتجهنا إلى موضوع آخر من فتاواه الكثيرة ، نستخلص جزءا من أحاديثه — نراه يتكلم عن المؤاخاة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فيقول :

(وأما (المؤاخاة) فإن النبي صلى الله عليه وسلم آخى بين المهاجرين والأنصار ، لما قدم المدينة ، كما آخى بين سلمان الفارسي وبين أبي الدرداء ، وبين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع ، وكانوا يتوارثون بتلك المؤاخاة ، حتى أنزل الله تعالى : (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله) — فصاروا يتوارثون بالقرابة . وفي ذلك أنزل الله تعالى : (والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم) — وهذا هو المخالفة . واختلف العلماء هل التوارث بمثل ذلك عند عدم القرابة والولاء محكم أو منسوخ ؟ على قولين : (أحدهما) : أن ذلك منسوخ ، وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد في أشهر الروايتين عنه ، ولما ثبت في صحيح مسلم عنه أنه — أي النبي صلى الله عليه وسلم — قال : « لا حلف في الإسلام ، وما كان من حلف في الجاهلية فلم يزده الإسلام إلا شدة » .

و (الثاني) أن ذلك محكم وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد في الرواية الأخرى — عنه) .

---

(١) الطبري : طاهر بن عبد الله — شيخ الشافعية — وقد ولد سنة ٣٤٨ هـ ، وتوفي سنة ٤٥٠ هـ

(٢) الشيرازي — هو إبراهيم بن علي — توفي سنة ٤٧٦ هـ .

وفى رد للإمام على سؤال عن حقيقة الحمد والشكر — قال :

(الحمد يتضمن المدح ، والثناء على المحمود بذكر محاسنه ، سواء كان الإحسان إلى الحامد ، أو لم يكن ، والشكر لايكون إلا على إحسان المشكور إلى الشاكر ، فمن هذا الوجه الحمد أعم من الشكر ، لأنه يكون على المحاسن والإحسان — فإن الله تعالى يحمد على ماله من الأسماء الحسنى ، والمثل الأعلى ، وما خلقه فى الآخرة والأولى ، ولهذا قال تعالى : (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور) . وقال : (الحمد لله فاطر السموات والأرض ، جاعل الملائكة رسلا ، أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، يزيد فى الخلق مايشاء) .

وأما (الشكر) فإنه لايكون إلا على الإنعام ، فهو أخص من الحمد من هذا الوجه ، لكنه يكون بالقلب واليد واللسان ، كما قيل :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة : يدى ، ولسانى ، والضمير المحجَّبا

ولهذا قال تعالى : (اعملوا آل داود شكرا) . و(الحمد) إنما يكون بالقلب واللسان، فمن هذا الوجه الشكر أعم من جهة أنواعه ، والحمد أعم من جهة أسبابه ، ومن هذا الحديث : « الحمد لله رأس الشكر ، فمن لم يحمد الله لم يشكره » وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ، ويشرب الشربة فيحمده عليها » .

أما عن الزهد فيجيب الإمام عن سؤال جاءه فى ذلك وشرعيته — قال فى بحثه الطويل :

(الزهد المشروع هو ترك كل شىء لاينفع فى الدار الآخرة ، وثقة القلب بما عند الله) . كما فى الحديث الذى فى الترمذى : « ليس الزهد فى الدنيا بتحريم الحلال ، ولا إضاعة المال ، ولكن الزهد أن تكون بما فى يد الله أوثق بما فى يدك ، وأن تكون فى ثواب المعصية إذا أصبت أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك » ، لأن الله تعالى يقول : (لكيلا تأسوا على مافاتكم ولاتفرحوا بما آتاكم) . فهذا صفة القلب . أما فى (الظاهر) فترك الفضول التى لايستعان بها على طاعة الله من مطعم وملبس ومال وغير ذلك ، كما قال الإمام أحمد: إنما هو طعام دون طعام ، ولباس دون لباس ، وصبر أيام قلائل) .

ويستطرد الإمام فى حديثه عن الزهد والورع فى مكان آخر قائلا :

فتلخَّص أن (الزهد) من باب عدم الرغبة والإرادة فى المزهود فيه . والورع من باب وجود النفرة والكراهية للمتورع عنه : وانتفاء الإرادة ، إنما يصلح فيما فيه مضرة خالصة أو راجحة ، فأما إذا فرض مالا منفعة فيه ولا مضرة ، أو منفعته ومضرته سواء من كل وجه ، فهذا لايصلح أن يراد ، ولا يصلح أن يكره ، فيصلح فيه الزهد ، ولا يصلح فيه الورع ، فظهر بذلك أن كل مايصلح فيه الورع يصلح الزهد ، من غير عكس ، وهذا بين ، فإن ماصلح أن يكره وينفر عنه صلح أن لايراد ولا يرغب فيه ، فإن عدم الإرادة أولى من وجود الكراهة ، ووجود الكراهة مستلزم عدم الإرادة من غير عكس . وليس كل ماصلح أن لايراد يصلح أن يكره ، بل قد يعرض من الأمور مالا تصلح إرادته ولا كراهته ، ولا حبه ولا بغضه ولا الأمر به ، ولا النهى عنه .

وبهذا يتبين أن الواجبات والمستحبات لايصلح فيها زهد ولا ورع ، وأما المحرمات والمكروهات فيصلح فيها الزهد والورع . وأما المباحات فيصلح فيها الزهد دون الورع ، وهذا القدر ظاهر تعرفه بأدنى تأمّل . وإنّما الشأن فيما إذا تعارض فى الفعل . هل هو مأمور به ؟ أو منهى عنه ؟ أو مباح ؟ وفيما إذا اقترن بما جنسه مباح ما يجعله مأمورا به أو منهيا عنه ، أو اقترن بالمأمور به مايجعله منهيا عنه وبالعكس . فعند اجتماع المصالح والمفاسد ، والمنافع والمضار ، وتعارضها ، يحتاج إلى الفرقان) .

بعد ذلك نقلب فى صفحات كتاب (الرسالة التدمرية) أو (تحقيق الإثبات للأسماء والصفات ، وبيان حقيقة الجمع بين الشرع والقدر) — كما سماه الإمام — فنقرأ له رأيه فى مبحث عن الروح وحقائقها وما قيل عنها . وفى أحد جوانبه يقول الإمام :

(إن الروح التى فينا — فإنها قد وصفت بصفات ثبوتية وسلبية ، وقد أخبرت النصوص أنها تعرج وتصعد من سماء إلى سماء ، وأنها تقبض من البدن وتسل منه كما تسلّ الشعرة من العجينة . والناس مضطربون فيها ، فمنهم طوائف من أهل الكلام يجعلونها جزءا من البدن ، أو صفة من صفاته ، كقول بعضهم : إنها النفس أو الريح التى تتردد فى البدن ، وقول بعضهم : إنها الحياة أو المزاج ، أو نفس البدن . ومنهم طوائف من أهل الفلسفة

يصفونها بما يصفون به واجب الوجود عندهم ، وهى أمور لايتّصف بها إلاّ ممتنع الوجود، فيقولون : لا هى داخلة فى البدن ولا هى خارجة ، ولا مباينة له ولا مداخلة له ؛ ولا متحركة ولا ساكنة ، ولا تصعد ولا تهبط ، ولا هى جسم ولا عرض .

وقد يقولون : إنها لاتدرك الأمور المعيّنة والحقائق الموجودة فى الخارج ، وإنما تدرك الأمور الكلية المطلقة . وقد يقولون : إنها لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا مباينة له ولا مداخلة ، وربما قالوا : ليست داخلة فى أجسام العالم ولا خارجة عنها ، تفسيرهم للجسم بما لايقبل الإشارة الحسية التى تلحقها بالمعدوم والممتنع . وإذا قيل لهم : إثبات هذا ممتنع فى ضرورة العقل ، قالوا : بل هذا ممكن بدليل أن الكليات ممكنة موجودة وهى غير مشار إليها ، وقد أغفلوا عن كون الكليات لاتوجد كلية إلا فى الأذهان لا فى العيان ، فيعتمدون فيما يقولونه فى المبدأ والمعاد على مثل هذا الخيال الذى لايخفى فساده على غالب الجهال ؛ واضطراب النفاة والمثبتة فى الروح كثير ؛ وسبب ذلك أن الروح — التى تسمى بالنفس الناطقة عند الفلاسفة — ليست هى من جنس هذا البدن ، ولا من جنس العناصر والمولدات منها ، بل هى من جنس آخر مخالف لهذه الأجناس ، فصار هؤلاء لايعرفونها إلا بالمسلوب التى توجب مخالفتها للأجسام المشهودة ، وأولئك يجعلونها من جنس الأجسام المشهودة — وكلا القولين خطأ ؛ وإطلاق القول عليها بأنها جسم أو ليست بجسم يحتاج إلى تفصيل . فإن لفظ الجسم للناس فيه أقوال متعددة إصطلاحية غير معناه اللغوى .

فإن أهل اللغة يقولون : الجسم هو الجسد والبدن ، وبهذا الاعتبار فالروح ليست جسما ، ولهذا يقولون : الروح والجسم ، كما قال تعالى : (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وإن يقولوا تسمع لقولهم) وقال تعالى : (زاده بسطة فى العلم والجسم) . وأما أهل الكلام : فمنهم من يقول : الجسم هو الموجود ، ومنهم من يقول : هو القائم بنفسه ، ومنهم من يقول : هو المركب من الجواهر المفردة ، ومنهم من يقول : هو المركب من المادة والصورة ، وكل هؤلاء يقولون : إنه مشار إليه إشارة حسية ، ومنهم من يقول : ليس مركبا من هذا ولا من هذا ، بل هو مما يشار إليه ، ويقال : إنه هنا أو هناك ، فعلى هذا إن كانت

الروح مما يشار إليها ويتبعها بصر الميت — كما قال صلى الله عليه وسلم : «إن الروح إذا خرجت تبعها البصر» و (أنها تقبض ويعرج بها إلى السماء) — كانت الروح جسما بهذا الاصطلاح .

والمقصود أن الروح إذا كانت موجودة حية ، عالمة قادرة ، سميعة بصيرة تصعد وتنزل ، وتذهب وتجيء ، ونحو ذلك من الصفات ، والعقول قاصرة عن تكييفها وتحديدها . لأنهم لم يشاهدوا لها نظيرا . والشيء إنما تدرك حقيقته بمشاهدته ، أو مشاهدة نظيره . فإذا كانت الروح متصفة بهذه الصفات مع عدم مماثلتها لما يشاهد من المخلوقات : فالخالق أولى بمباينته لمخلوقاته مع اتصافه بما يستحقه من أسمائه وصفاته ، وأهل العقول هم أعجز عن أن يحدّوه أو يكيفوه منهم عن أن يحدّوا الروح أو يكيفوها . فإن كان من نفى صفات الروح جاحدا معطلا لها ، ومن مثلها بما يشاهده من المخلوقات جاهلا ممثلا لها بغير شكلها ، وهي مع ذلك ثابتة بحقيقة الإثبات ، مستحقة لما لها من الصفات : فالخالق — سبحانه وتعالى — أولى أن يكون من نفى صفاته جاحدا معطلا ، ومن قاسه بخلقه جاهلا به ممثلا ، وهو سبحانه وتعالى — ثابت بحقيقة الإثبات ، مستحق لما له من الأسماء والصفات) .

هذا وكان الإمام ابن تيمية قد كتب كتابه (الوصية الكبرى) إلى الشيخ العارف القدوة أبي البركات عدى بن مسافر بن إسماعيل الأموى : شيخ الطائفية العدوية ، المتوفى سنة ٥٥٤ هـ عن سبعين عاما .

وفي الوصية هذه يقول الإمام عنه :

(والشيخ عدى قدس الله روحه كان من أفاضل عباد الله الصالحين وأكابر المشائخ المتبعين ، وله من الأحوال الزكية والمناقب العلميّة مايعرفه أهل المعرفة بذلك . وله في الأمة حديث مشهور ولسان صدق مذكور ، وعقيدته المحفوظة عنه لم يخرج فيها عن عقيدة من تقدمه من المشائخ الذين سلك سبيلهم ، كالشيخ الإمام الصالح (أبي الفرج عبد الواحد بن محمد ابن على الأنصارى الشيرازى ثم الدمشقي) وكشيخ الإسلام (الهكارى[1]) ونحوهما) .

---

(١) هو الفقيه الأمير ضياء الدين عيسى الهكارى — كان ملازما للسلطان صلاح الدين الأيوبي ، وقد توفى سنة ٥٨٥ .

ثم يتحدث الإمام عن الغلو فى تعظيم بعض المشائخ ، ويرشد إلى مايجب عمله تجاه بعض العادات الدخيلة — ويقول :

(فكل من غلا فى حىّ أو فى رجل كمثل على (بن أبى طالب) — رضى الله عنه — أو (عدى) أو نحوه ، أو فى من يعتقد فيه الصلاح ، كالحلاج[1] أو الحاكم الذى كان بمصر ، أو يونس القمى[2] ونحوهم ، وجعل فيه نوعا من الإلهية مثل أن يقول : كل رزق لايرزقنيه الشيخ فلان ما أريده ، أو يقول إذا ذبح شاة :

باسم سيدى ، أو يعبده بالسجود له أو لغيره ، أو يدعوه من دون الله تعالى ، مثل أن يقول : ياسيدى فلان اغفر لى أو ارحمنى أو انصرنى أو ارزقنى أو أغثنى أو أجرنى ، أو توكلت عليك ، أو أنت حسبى ، أو أنا فى حسبك ، أو نحو هذه الأقوال والأفعال ، التى هى من خصائص الربوبية التى لاتصلح إلا لله تعالى ، فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه ، فإن تاب وإلا قتل . فإن الله إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب لنعبد الله وحده لاشريك له ولا نجعل مع الله إلهاً آخر) .

إلى أن يقول الإمام فى وصيته :

(والسنة فى زيارة قبور المسلمين نظير الصلاة عليهم قبل الدفن . قال الله تعالى فى كتابه عن المنافقين : (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره) .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقولوا : « السلام عليكم أهل دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، يرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين . نسأل الله لنا ولكم العافية ، اللهم لاتحرمنا أجرهم ، ولا تفتنّا بعدهم واغفر لنا ولهم » — وذلك أن من أكبر عبادة الأوثان كان التعظيم للقبور بالعبادة ونحوها ، قال الله تعالى فى كتابه : (وقالوا : لاتذرن آلهتكم ولاتذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا) . قال طائفة من السلف : كانت هذه أسماء قوم صالحين ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم وعبدوها .

---

(١) الحلاج : هو الحسين بن منصور — توفى سنة ٣٠٩ هـ .

(٢) توفى يونس بن عبد الرحمن القمى سنة ٢٠٨ هـ — وهو من الإمامية المشبهة ، وإليه تنسب فرقة اليونسية .

ولهذا اتفق العلماء على أن من سلّم على النبي صلى الله عليه وسلم عند قبره أنه لا يتمسح بحجرته ولا يقبلها ، لأن التقبيل والاستلام إنما يكون لأركان بيت الله الحرام ، فلا يشبه بيت المخلوق ببيت الخالق . وكذلك الطواف والصلاة والاجتماع للعبادات إنما تقصد فى بيوت الله وهى المساجد التى أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه . فلا تقصد بيوت المخلوقين فتتخذ عيدا ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « لاتتخذوا بيتى عيدا » كل هذا لتحقيق التوحيد الذى هو أصل الدين ورأسه الذى لايقبل الله عملاً إلا به ، ويغفر لصاحبه ولايغفر لمن تركه ، وكما قال تعالى : (إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيما) . ولهذا كانت كلمة التوحيد أفضل الكلام وأعظمه ، فأعظم آية فى القرآن آية الكرسى : (الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، لاتأخذه سنة ولا نوم) . وقال صلى الله عليه وسلم : « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة » . والإله : الذى يألهه القلب عبادة له ، واستعانة ، ورجاء له ، وخشية وإجلالا وإكراما) .

وللإمام ابن تيمية — مناظرة فى كتابه العقيدة الواسطية — كما عرفنا — وقد اختصر هو هذه المناظرة . وحرى بنا أن نورد هنا هذا المختصر كاملا ، لما له من النفع الجزيل ، وإعطائنا صورة وافية من هذا اللون من المناظرات العلمية التى تكررت فى حياة الإمام . قال إمام نائب السلطنة الأفرم ، لما سأله عن اعتقاده — وكان الإمام قد أحضر عقيدته الواسطية — وإليها يشير فى مبدإ كلامه :

(هذه كتبتها من نحو سبع سنين ، قبل مجىء التتار إلى الشام ، فقرئت فى المجلس . وكان سبب كتابتها أن بعض قضاة واسط من أهل الخير والدين شكى ما الناس فيه ببلادهم فى دولة التتر — من غلبة الجهل والظلم ، ودروس الدين والعلم . وسألنى أن أكتب له (عقيدة) ، فقلت له : قد كتب الناس عقائد أهل السنة ، فألح فى السؤال ، وقال : ما أحب إلا عقيدة تكتبها أنت . فكتبت له هذه العقيدة — وأنا قاعد بعد العصر ، فأشار الأمير لكاتبه — فقرأها على الحاضرين حرفا حرفا ، فاعترض بعضهم على قولى فيها : ومن الإيمان بالله — الإيمان بما وصف به نفسه ، ووصفه به رسوله : من غير تحريف

ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل . ومقصوده أن هذا ينفى التأويل الذى صرف اللفظ عن ظاهره : إما وجوبا وإما جوازا . فقلت : إنى عدلت عن لفظ التأويل إلى لفظ التحريف ، لأن التحريف اسم جاء القرآن بذمه ، وأنا تحريت فى هذه العقيدة اتباع الكتاب والسنة ، فنفيت ماذمه الله من التحريف ، ولم أذكر فيها لفظ التأويل ، لأنه لفظ له عدة معان ، كما بينته فى موضعه من القواعد . فإن معنى لفظ التأويل فى كتاب الله غير لفظ التأويل فى اصطلاح المتأخرين من أهل الأصول والفقه . وغير معنى لفظ التأويل فى اصطلاح كثير من أهل التفسير والسلف . وقلت لهم ذكرت فى النفى التمثيل ، ولم أذكر التشبيه ، لأن التمثيل نفاه الله بنص كتابه حيث قال : (ليس كمثله شيء) . وأخذوا يذكرون نفى التشبيه والتجسيم ، ويطنبون فى هذا ، ويعرضون بما ينسبه بعض الناس إلينا من ذلك . فقلت : قولى من غير تكييف ولا تمثيل ينفى كل باطل ، وإنما اخترت هذين الإسمين : لأن التكييف مأثور نفيه عن السلف — كما قال ربيعة ، ومالك ، وابن عيينة ، وغيرهم المقالة التى تلقاها العلماء بالقبول : الاستواء معلوم والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، فاتفق هؤلاء السلف على أن الكيف غير معلوم لنا ، فنفيت ذلك اتباعا لسلف الأمة . وهو أيضا منفى بالنص ، فإن تأويل آيات الصفات يدخل فيها حقيقة الموصوف . وحقيقة صفاته غير معلومة ، وهذا من التأويل الذى لايعلمه إلا الله ، كما قررت ذلك من قاعدة مفردة ذكرتها فى (التأويل والمعنى) والفرق بين علمنا بمعنى الكلام وبين علمنا بتأويله . وكذلك التمثيل منفى بالنص والإجماع القديم مع دلالة العقل على نفيه ، ونفى التكييف . إذ كنه البارى غير معلوم للبشر . وذكرت فى ضمن ذلك كلام الخطابى [1] الذى نقل أنه مذهب السلف : وهو (إجراء آيات الصفات ، وأحاديثها على ظاهرها مع نفى الكيفية والتشبيه عنها ، إذ الكلام فى الصفات فرع الكلام فى الذات يحتذى حذوه ويتبع فيه مثاله ، فإذا كان إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات تكييف ، وكذلك إثبات الصفات إثبات وجود لا إثبات تكييف) .

---

(١) هو أبو سليمان أحمد بن محمد البستى الخطابى ، أديب وفقيه — توفى سنة ٣٨٨ ﻫ .

فقال أحد كبراء المخالفين : فحينئذ يجوز أن يقال هو جسم ، لا كالأجسام . فقلت له أنا وبعض الفضلاء — إنما قيل إنه يوصف الله بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسوله ، وليس فى الكتاب والسنة أن الله جسم حتى يلزم هذا ، وأول من قال إن الله جسم : هشام بن الحكم الرافضى[1] .

وأما قولنا : فهم الوسط فى فرق الأمة كما أن الأمّة هى الوسط فى الأمم . فهم وسط فى باب صفات الله بين أهل التعطيل الجهمية ، وأهل التمثيل المشبهة . فقيل لى : أنت صنّفت اعتقاد الإمام أحمد ، وأرادوا قطع النزاع لكونه مذهباً متبوعاً . فقلت : ماخرجت إلا عقيدة السلف الصالح جميعهم ، ليس للإمام أحمد اختصاص بهذا . وقلت : قد أمهلت من خالفنى فى شىء منها ثلاث سنين ، فإن جاء بحرف واحد عن القرون الثلاثة يخالف ماذكرته من الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية والأشعرية ، وأهل الحديث وغيرهم . ثم طلب المنازع الكلام فى مسألة : (الحرف والصوت) فقلت : هذا الذى يحكى عن أحمد وأصحابه أن صوت القارئين ومداد المصاحف قديم أزلى كذب مفترى ، لم يقل ذلك أحمد ، ولا أحد من علماء المسلمين . وأخرجت كراساً — وفيه ماذكره أبو بكر الخلال فى (كتاب السنة) عن الإمام أحمد ، وما جمعه صاحبه أبو بكر المروزى من كلام أحمد ، وكلام أئمة زمانه فى أن من قال : لفظى بالقرآن مخلوق فهو جهمى ، ومن قال : غير مخلوق فهو مبتدع . قلت فكيف بمن يقول : لفظى أزلى ؟ فكيف بمن يقول صوتى قديم ؟ . فقال المنازع : إنه انتسب إلى أحمد أناس من الحشوية والمشبهة ونحو هذا الكلام . فقلت : المشبهة والمجسمة فى غير أصحاب الإمام أحمد أكثر منهم فيهم : فهؤلاء أصناف الأكراد كلهم شافعية ، وفيهم من التشبيه والتجسيم مالا يوجد فى صنف آخر ، وأهل جيلان فيهم شافعية وحنبلية ، أما الحنبلية المحضة فليس فيهم من ذلك مافى غيرهم ، والكرامية المجسمة كلهم حنفية . وقلت له : من فى أصحابنا حشوى بالمعنى الذى تريده ؟ الأثرم ، أبو داود المروزى ، الخلال ، أبو بكر عبد العزيز ، أبو الحسن التميمى ،

---

(١) توفى هشام هذا سنة ١٨٧ هـ — وهو من موالى بنى شيبان .

ابن حامد ، القاضى أبو يعلى ، أبو الخطاب ، ابن عقيل [١] .

ورفعت صوتى وقلت : سمّهم قل لى من منهم ؟ أيكذب ابن الخطيب وافترائه على الناس فى مذاهبهم تبطل الشريعة ، وتندرس معالم الدين كما نقل هو وغيره عنهم أنهم يقولون : القرآن القديم هو أصوات القارئين ، ومداد الكاتبين ، وأن الصوت والمداد قديم أزلى : من قال هذا ؟ قل لى . وكما نقل عنهم .

ولما جاءت (مسألة القرآن) وأنه كلام الله غير مخلوق ، منه بدىء وإليه يعود : نازع بعضهم فى كونه منه بدَا وإليه يعود ، وطلبوا تفسير ذلك ، فقلت : أما هذا القول : فهو المأثور والثابت عن السلف . مثل مانقله عمرو بن دينار — قال أدركت الناس منذ سبعين سنة يقولون الله الخالق وما سواه مخلوق ، فإن كلام الله غير مخلوق منه بدا وإليه يعود . ومعنى أنّه بدا أى هو المتكلم به ، وهو الذى أنزله من لدنه ، ليس هو كما تقوله الجهمية إنه خلق فى الهواء أو غيره ، وبدا من غيره . وأما إليه يعود : فإنه يسرى به فى آخر الزمان من المصاحف والصدور فلا يبقى فى الصدور منه كلمة ، ولا فى المصاحف منه حرف ، ووافق على ذلك غالب الحاضرين . فقلت : هكذا قال النبى صلى الله عليه وسلم . « ما تقرب العباد إلى الله بمثل ماخرج منه » : يعنى القرآن . وقال خباب ابن الأرت [٢] : ياهنتاه تقرب إلى الله بما استطعت ، فلن تقرب إلى الله لشىء أحب إليه مما خرج منه . وقلت : وأن الله تكلم به حقيقة ، وأن هذا القرآن الذى أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم هو كلام الله حقيقة ، لا كلام غيره ولا يجوز إطلاق القول بأنه حكاية عن كلام الله أو عبارة ، بل إذا قرأ الناس القرآن ، أو كتبوه فى المصاحف

---

(١) ابن عقيل — هو أبو الوفاء على بن عقيل ، توفى سنة ٥١٣ ه . وأبو الخطاب — هو محفوظ بن أحمد الكلوذانى ، توفى سنة ٥١٠ ه . والقاضى أبو يعلى — هو محمد الحسين بن محمد بن الفراء ، وتوفى سنة ٤٥٨ ه . وأن حامد — هو أبو عبد الله الحسن بن حامد البغدادى — إمام الحنابلة فى العراق ، توفى سنة ٤٠٣ ه . وأبو الحسن التميمى — هو عبد العزيز بن الحارث المتوفى سنة ٣٧١ ه . وأبو بكر عبد العزيز بن جعفر بن أحمد ، توفى سنة ٣٦٣ ه . أما بقية الأسماء الثلاثة فلم نجد فى المراجع التى أمامنا تراجم عنها .

(٢) خباب بن الأرت بن جندلة التميمى صحابى — توفى بالكوفة عن ٧٣ عاما . سنة ٣٧ ه .

لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله حقيقة إلى من قاله مبتدئا ، لا إلى من قاله مؤديا . فامتعض بعضهم من إثبات كونه كلام الله حقيقة ، بعد تسليمه أن الله تكلم به حقيقة ، ثم إنه سلم ذلك لما بيّن له أن المجاز يصح نفيه ، وهذا لا يصح نفيه ، وأن أقوال المتقدمين المأثورة عنهم ، وشعر الشعراء المضاف إليهم هو كلامهم حقيقة . ولما ذكرت فيها أن الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئا لا إلى من قاله مبلغا استحسنوا هذا الكلام وعظموه . وذكرت ما أجمع عليه سلف الأمة من أنه سبحانه فوق العرش ، وأنه معنا حقّ على حقيقته ، ولا يحتاج إلى تحريف ، ولكن يصان عن الظنون الكاذبة ، وليس معنى قوله : (وهو معكم أينما كنتم) أنّه مختلط بالخلق ، فإن هذا لا توجبه اللغة ، وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة ، وخلاف ما فطر الله عليه الخلق ، بل القمر آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته ، وهو موضوع فى السماء ، وهو مع المسافر أينما كان . ولما ذكرت : أن جميع أسماء الله التى يسمى بها المخلوق — كلفظ (الوجود) : الذى هو مقول بالحقيقة على الواجب والممكن : تنازع كبيران : هل هو مقول بالاشتراك ، أو بالتواطىء ؟ فقال أحدهما : هو متواطىء . وقال الآخر : هو مشترك لئلاّ يلزم التركيب . وقال هذا : قد ذكر فخر الدين أن هذا النزاع مبنى على أن وجوده هل هو عين ماهيّته أم لا ؟ فمن قال : إن وجود كل شىء عين ماهيته قال إنه مقول بالتواطىء . فأخذ الأول يرجح قول من يقول : إن الوجود زائد على الماهية لينصر أنه مقول بالتواطىء . فقال الثانى : مذهب الأشعرى وأهل السنة أن وجوده عين ماهيته ، فأنكر الأول ذلك . فقلت : أما متكلمو أهل السنة فعندهم أن وجود كل شىء عين ماهيته ، وأما القول الآخر : فهو قول المعتزلة : إن وجود كل شىء قدر زائد على ماهيته . وكلّ منهما أصاب من وجه . فإن الصّواب أن هذه الأسماء مقولة بالتواطىء . كما قد قررته فى غير هذا الموضع . وأما بناء ذلك على كون وجود الشىء عين ماهيته ، أو ليس (عين وجود ماهيته) فهو من الغلط المضاف إلى ابن الخطيب [1] ، فإنا وإن قلنا إن وجود الشىء

---

(١) ابن الخطيب — فخر الدين عبد الله بن عمر بن الحسين الرازى ، وقد توفى سنة ٦٠٦ هـ .

عين ماهيته : لايجب أن يكون الاسم مقولا عليه ، وعلى غيره بالاشتراك اللفظى فقط ، كما فى جميع أسماء الأجناس : فإن إسم السواد مقول على هذا السواد وهذا السواد بالتواطىء، وليس عين هذا السواد هو عين هذا السواد ، إذ الإسم دال على القدر المشترك بينهما وهو المطلق الكلى ، لكنه لايوجد مطلقا بشرط الإطلاق إلاّ فى الذهن . ولا يلزم من ذلك نفى القدر المشترك بين الأعيان الموجودة فى الخارج ، فإنه على ذلك تنتفى (الأسماء المتواطئة) وهى جمهور الأسماء الموجودة فى اللغات وهى (أسماء الأجناس اللغوية) وهو الإسم المعلق على الشيء وما أشبهه — سواء كان اسم عين أو اسم صفة ، جامدا أو مشتقا ، وسواء كان جنساً منطقياً ، أو فقهياً ، أو لم يكن . بل إسم الجنس فى اللغة تدخل فيه الأجناس والأصناف والأنواع ، ونحو ذلك . وكلها أسماء متواطئة ، وأعيان مسمياتها فى الخارج متميزة . قال الذهبى : ثم وقع الاتفاق على أن هذا معتقد سلفى جيد) اهـ .

بعد هذا المطاف الطويل بعض الشيء — فى حديث الإمام المختصر من مناظرته فى (العقيدة الواسطية) التى يقول عن سبب تأليفه لها بأن الشيخ رضى الدين الواسطى — من أصحاب الإمام الشافعى — وكان قاضيا بأرض واسط فى ذلك العصر ، وشكى له — أى للإمام ابن تيمية — ما الناس فيه بتلك البلاد وفى دولة التتار من غلبة الجهل والظلم ، وسأله أن يكتب له عقيدة تكون عمدة له ولأهل بيته .

بعد هذا نستمع إلى جواب قصير للإمام على سؤال : ماعمل أهل الجنة ؟ وما عمل أهل النار ؟ — قال :

(ومن أعمال أهل الجنة : صدق الحديث ، وأداء الأمانة ، والوفاء بالعهد ، وبر الوالدين وصلة الأرحام ، والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين والمملوك من الآدميين والبهائم . ومن أعمال أهل الجنة : الإخلاص لله والتوكل عليه والمحبة له ولرسوله ، وخشية الله ورجاء رحمته ، والإنابة إليه ، والصبر على حكمه والشكر لنعمه . ومن أعمال أهل الجنة : قراءة القرآن وذكر الله ودعاؤه ومسألته والرغبة إليه .. ومن أعمال أهل الجنة : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والجهاد فى سبيل الله للكفار والمنافقين . ومن أعمال أهل الجنة : أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك ، فإن الله

أعد الجنة للمتقين — الذين ينفقون فى السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين . ومن أعمال أهل الجنة : العدل فى جميع الأمور ، وعلى جميع الخلق حتى الكفار . وأمثال هذه الأعمال .

وأما أعمال أهل النار : فمثل الإشراك بالله والتكذيب بالرسل والكفر والحسد ، والجبن عن الجهاد ، والبخل ، واختلاف السر والعلانية ، واليأس من روح الله ، والأمن من مكر الله ، والجزع عند المصائب ، والفخر والبطر عند النعم ، وترك فرائض الله واعتداء حدوده ، وانتهاك حرماته ، وخوف المخلوق دون الخالق ، والعمل رياء وسمعة ، ومخالفة الكتاب والسنة ، وطاعة المخلوق فى معصية الخالق ، والتعصب بالباطل ، والاستهزاء بآيات الله وجحد الحق ، والكتمان لما يجب إظهاره من علم وشهادة . ومن عمل أهل النار : السحر وعقوق الوالدين وقتل النفس التى حرم الله بغير الحق ، وأكل مال اليتيم وأكل الربا ، والفرار من الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات .

وتفصيل الجملتين لايمكن ، لكن (أعمال أهل الجنة) كلها تدخل فى طاعة الله ورسوله ، و (أعمال أهل النار) كلها تدخل فى معصية الله ورسوله ، (ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ، ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها ، وله عذاب مهين) .

وللإمام ابن تيمية فى أبحاثه النقدية اتجاهات إصلاحية ، وإزالة الشكوك التى يقع فيها بعض المذهبيين ، وشرح نظريات الدين فى كل القضايا الفكرية والدينية . وهنا نقتطف نبذا من كتابه فى (الرد على المنطقيين) المسمى أيضاً : (نصيحة أهل الإيمان فى الرد على منطق اليونان) .

قال الإمام فى إيضاح :

(وكلامنا هنا فى بيان ضلال هؤلاء المتفلسفة الذين يبنون ضلالهم بضلال غيرهم فيتعلقون بالكذب فى المنقولات وبالجهل فى المعقولات ، كقولهم : إن أرسطو وزير ذى القرنين يقال له الاسكندر . وهذا من جهلهم ، فإن الاسكندر الذى وزر له أرسطو هو ابن فيلبس المقدونى . الذى يؤرخ له تاريخ الروم المعروف عند اليهود والنصارى ،

وهو إنما ذهب إلى أرض القدس، لم يصل إلى السد عند من يعرف أخباره، وكان مشركاً يعبد الأصنام .

وكذلك أرسطو وقومه كانوا مشركين يعبدون الأصنام ، وذو القرنين كان موحداً مؤمناً بالله ، وكان متقدماً على هذا ، ومن يسميه الاسكندر يقول : هو الاسكندر ابن دارا . ولهذا كان هؤلاء المتفلسفة إنما راجوا على أبعد الناس عن العقل والدين (كالقرامطة والباطنية) الذين ركبوا مذهبهم من فلسفة اليونان ودين المجوس وأظهروا الرفض، وكجهال المتصوفة وأهل الكلام ، وإنما ينفقون فى دولة جاهلية بعيدة عن العلم والإيمان إما كفارا وإما منافقين ، كما نفق من نفق منهم على المنافقين الملاحدة . ثم نفق على المشركين الترك . وكذلك إنما ينفقون دائماً على أعداء الله ورسوله من الكفار والمنافقين . وكلامنا الآن فيما احتجوا به على أنه لابد فى الدليل من متقدمين لا أكثر ولا أقل ، وقد علم ضعفه . ثم إنهم لما علموا أن الدليل قد يحتاج إلى مقدمات وقد تكفى فيه مقدمة واحدة ، قالوا : إنه ربما أدرج فى القياس قول زائد : أى مقدمة ثالثة زائدة على مقدمتين لغرض فاسد أو صحيح كبيان المقدمتين، ويسمونه المركب . قالوا : ومضمونه أقيسة متعددة — سيقت لبيان أكثر من مطلوب واحد إلاّ أن المطلوب منها — بالذات ليس إلا واحدا . قالوا : وربما حذفت إحدى المقدمات إما للعلم بها أو لغرض فاسد ، وقسموا المركّب إلى مفصول وموصول . فيقال : هذا اعتراض منكم بأن من المطالب مايحتاج إلى مقدمات هو فى معنى أقيسة متعددة . فيقال لكم : إذا ادعيتم أن الذى لابد منه إنما هو قياس واحد مشتمل على مقدمتين ، وأن مازاد على ذلك هو فى معنى أقيسة ، كل قياس لبيان مقدمة من المقدمات . فقولوا إن الذى لابد منه هو مقدمة واحدة . وأن مازاد على تلك المقدمة من المقدمات . فإنما هو بيان لتلك المقدمة . وهذا أقرب إلى المعقول . فإنه إذا لم يعلم بثبوت الصفة للموصوف أو ثبوت الحكم للمحكوم عليه ، وهو ثبوت الخبر للمبتدأ ، أو المحمول للموضوع إلاّ بوسط بينهما هو الدليل ، فالذى لابد منه هو مقدمة واحدة وما زاد على ذلك فقد يحتاج إليه وقد لايحتاج إليه) .

إلى أن قال الإمام موضحاً أكثر :

(وما زال نظار المسلمين يعيبون طريق أهل المنطق ، ويبينون مافيها من العى واللكنة وقصور العقل وعجز النطق ، ويبينون أنها إلى إفساد المنطق العقلى واللسانى أقرب منها إلى تقويم ذلك . ولا يرضون أن يسلكوها فى نظرهم ومناظراتهم ، لا مع من يوالونه ولا مع من يعادونه ، وإنما كثر استعمالها من زمن (أبى حامد) . فإنه أدخل مقدمة من المنطق اليونانى فى أول كتابه (المستصفى) وزعم أنه لايثق بعلمه إلا من عرف هذا المنطق ، وصنف فيه (معيار العلم) و (محك النظر) ، وصنف كتابا سماه (القسطاط المستقيم) ذكر فيه خمس موازين : (الثلاث الحمليات ، والشرطى المتصل والشرطى المنفصل) . وغير عباراتها إلى أمثلة أخذها من كلام المسلمين وذكر أنه خاطب بذلك بعض أهل التعليم ، وصنف كتابا فى تهافتهم [1] وبين كفرهم بسبب مسألة قدم العالم وإنكار العلم بالجزئيات وإنكار المعاد ، وبين فى آخر كتبه ، أن طريقهم فاسدة ، لاتوصل إلى يقين ، وذمها أكثر مما ذم طريقة المتكلمين ، وكان أولا يذكر فى كتبه كثيرا من كلامهم : إما بعباراتهم ، وإما بعبارة أخرى ، ثم فى آخر أمره بالغ فى ذمهم ، وبين طريقهم متضمّنة من الجهل والكفر مايوجب ذمها وفسادها أعظم من طريق المتكلمين ، ومات وهو مشتغل بالبخارى ومسلم . والمنطق الذى كان يقول فيه مايقول ، حصل له مقصوده . ولا أزال عنه ما كان فيه من الشكّ والحيرة ، ولم يغن عنه شيئا . ولكن بسبب ماوقع منه فى أثناء عمره وغير ذلك ، صار كثير من النظار يدخلون المنطق اليونانى فى علومهم ، حتى صار من يسلك طريق هؤلاء من المتأخّرين يظن أنّه لاطريق إلا هذا ، وأن ما ادعوه من الحد والبرهان هو أمر صحيح مسلم عند العقلاء ولا يعلم أنه مازال العقلاء والفضلاء من المسلمين فى ذلك مصنّفات متعددة ، وجمهور المسلمين يعيبون عيبا مجملا لما يرونه من آثاره ولوازمه الدالة على مافى أهله مما يناقض العلم والإيمان ويفضى بهم الحال إلى أنواع من الجهل والكفر والضلال) اهـ .

---

(١) هو (تهافت الفلاسفة) فى تناقضهم وعدم توصلهم أو إيجادهم للأدلة المقنعة على ما يقررونه من آراء واتجاهات — قد تتنافى مع الدين الحنيف — ونراه يقرر عن الفلاسفة بأنهم مخالفون لجميع المسلمين، وهو إذ يحاججهم شخصيا أو بالجدل أو بالأدلة النقلية من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة ومن كلام الأعلام الثقات .

ونختم هذه النفحات الزاكيات من تراث الإمام ابن تيمية ــ بمقتطفات من رده على ماجاء فى الفصل الأول من كتاب (منهاج الندامة [1]) ــ كما دعاه ــ لابن المطهر الحلّى ، والفصل بعنوان : (فى نقل المذاهب فى هذه المسألة) ــ يعنى الإمامة . وفيه يتهم الحلىّ أهل السنة والجماعة بأقوال كاذبة لاتصدر إلا عن حقد المنحرفين . أليس ناسبها من كبار الرافضة المخالفين لكتاب الله تعالى وسنة رسوله ــ عليه الصلاة والسلام ــ ؟ ولا يعنينا أن ننقل هذا الفصل الذى كتبه رافضى مضلّل ، فإنّ فى نقض كلام الإمام ابن تيمية له ، مايشفى الغليل ويدحض افتراءات العابثين وحماقاتهم المضلّلة : يقول الإمام ابن تيمية فى رده الجامع من كتابه [منهاج السنة النبوية] :

(قلت : فهذا النقل لمذهب أهل السنة والرافضة فيه من الكذب والتحريف ماسنذكر بعضه . والكلام عليه من وجوه : أحدها : أن إدخال مسائل القدر والتعديل والتجوير فى هذا الباب باطلٌ من الجانبين ، إذ كل من القولين قد قال فيه طوائف من أهل السنة والشيعة . فالشيعة فيهم طوائف تثبت القدر وتنكر مسائل التعديل والتجوير ، والذين يقرون بخلافة أبى بكر وعمر وعثمان فيهم طوائف تقول بما ذكره من التعديل والتجوير كالمعتزلة وغيرهم . ومعلوم أن المعتزلة هى أصل هذا القول ، وأن شيوخ الرافضة كالمفيد والموسوى والطوسى والكراجكى وغيرهم ، إنما أخذوا ذلك من المعتزلة ، وإلا فالشيعة القدماء لايوجد فى كلامهم شئٌ من هذا وإن كان ماذكره فى ذلك ليس متعلقا بمذهب الإمامية ــ بل قد يوافقهم على قولهم فى القدر . وقد تقول بما ذكره فى القدر طوائف لاتوافقهم على الإمامة ــ كأن ذكر هذا فى مسألة الإمامة بمنزلة سائر مسائل النزاع التى وافقوا فيها بعض المسلمين : كمسائل فتنة القبر ، ومنكر ونكير ،

---

(١) قال عنه المؤرخ ابن كثير : (وقد خبط فيه فى المعقول والمنقول ولم يدر كيف يتوجه إذ خرج عن الاستقامة . وقد انتدب الرد عليه فى ذلك الشيخ أبو العباس أحمد بن تيمية فى مجلدات أتى فيها بأشياء حسنة ، وهو كتاب حافل سماه (منهاج السنة) . . ونشير هنا إلى أن ابن مطهر الحلى كان قد ألف كتابه ذلك للملك الجايتو خدابنده — من أحفاد جنكيز خان — وكان تولى الحكم بعد وفاة أخيه الملك غازان سنة ٧٠٣ هـ وقد تشيع سنة ٧٠٩ هـ ، وفرض مذهب الشيعة على البلاد من العراق وخراسان) .

والحوض والميزان ، والشفاعة وخروج أهل الكبائر من النار ، وأمثال ذلك من المسائل التى لاتتعلق بالإمامة ، بل هى مسائل مستقلة بنفسها ، وبمنزلة المسائل العلميّة كمسائل الخلاف التى صنّفها الموسوى وغيره من شيوخ الإمامية : فتبين أن إدخال مسائل القدر فى مسألة الإمامية إما جهل وإما تجاهل :

الوجه الثانى : أن يقال : مانقله عن الإمامية لم ينقله على وجهه ، فإن من تمام قول الإمامية الذى حكاه — وهو قول من وافق المعتزلة فى توحيدهم وعدلهم من متأخرى الشيعة — أن الله لم يخلق شيئا من أفعال الحيوان ، لا الملائكة ولا الأنبياء ولا غيرهم ، بل هذه الحوادث التى تحدث وتحدث بغير قدرته ولا خلقه . ومن قولهم أيضاً : إن الله لايقدر أن يهدى ضالا ، ولا يقدر أن يضل مهتديا ، ولا يحتاج أحدٌ من الخلق أن يهديه الله ، بل الله قد هداهم هدى البيان . وأمّا الاهتداء فهذا يهتدى بنفسه لا بمعونة الله له ، ومن قولهم : إن هدى الله للمؤمنين والكفار سواء ، ليس له على المؤمنين نعمة فى الدين أعظم من نعمته على الكافرين ، بل قد هدى على بن أبى طالب كما هدى أبا جهل ، بمنزلة الأب الذى يعطى أحد ابنيه دراهم ويعطى الآخر مثلها ، لكن هذا أنفقها فى طاعة الله ، وهذا فى معصيته ، فليس للأب من الإنعام على هذا فى دينه ، أكثر مما له من الإنعام على الآخر . ومن أقوالهم : إنه يشاء الله مالا يكون ويكون مالا يشاء .

فإن قيل : فيهم من يقول : إنه يخص بعضهم ممن علم منه أنه إذا خصّه بمزيد لطف من عنده اهتدى بذلك ، وإلا فلا . قيل فهذا هو حقيقة قول أهل السنة المثبتين للقدر . فإنهم يقولون : كل من خصّه الله بهدايته إياه صار مهتديا ، ومن لم يخصّه بذلك لم يصر مهتديا ، فالتخصيص والاهتداء متلازمان عند أهل السنة . فإن قيل : بل قد يخصه بما لايوجب الاهتداء ، كما قال تعالى: (ولو علم فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) . قيل : هذا التخصيص حق ، لكن دعوى : لاتخصيص إلا هذا غلط — كما سيأتى — بل كل مايستلزم الاهتداء هو من التخصيص . وفى الجملة فالقوم لايثبتون لله مشيئة عامة ، ولا قدرة تامة ، ولا خلقا متناولا لكل حادث . وهذا القول أخذوه عن المعتزلة ، وهم أئمتهم فيه ، ولهذا كانت الشيعة فيه على قولين .

الوجه الثالث : أنّ قوله : (أنه نصب أولياء معصومين لئلا يخلق الله العالم من لطفه ورحمته) . إن أراد بقوله : إنه نصب أولياء ، أنه مكنهم وأعطاهم القدرة على سياسة الناس حتى ينتفع الناس بسياستهم ، فهذا كذب واضح : وهم لايقولون ذلك ، بل يقولون : إن الأئمة مقهورون مظلومون عاجزون ليس لهم سلطان ولاقدرة ولا مكنة ، ويعلمون أن الله لم يمكنهم ولم يملكهم ، فلم يؤتهم ولاية ولا ملكا كما أتى المؤمنين والصالحين ، ولا كما آتى الكفار والفجار . فإنه سبحانه وتعالى قد آتى الملك لمن آتاه من الأنبياء . كما قال تعالى فى داود : (وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء) — سورة البقرة : ٢٥١ — . وقال تعالى : (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيما) — سورة النساء : ٥٤ — . وقال تعالى : (وقال الملك ائتونى به) — سورة يوسف : ٥٤ — . وقال تعالى : (وكان وراءهم ملكٌ يأخذ كلّ سفينة غصبا) — سورة الكهف : ٧٩ — . وقال تعالى : (ألم تر إلى الذى حاجّ إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك) — سورة البقرة : ٢٥٨ — . فقد آتى الله الملك لبعض الكفار كما آتاه لبعض الأنبياء .

ومن بعد على عليه السلام والحسين لم يؤت الله الملك لأحد من هؤلاء كما أوتيه الأنبياء والصالحون ، ولا كما أوتيه غيرهم من الملوك : فبطل أن يكون الله نصب هؤلاء المعصومين على هذا الوجه . فإن قيل : المراد بنصبهم أنه أوجب على الخلق طاعتهم ، فإن أطاعوهم هدوهم ، ولكن الخلق عصوهم .

فيقال : فلم يحصل بمجرد ذلك فى العالم لا لطف ولا رحمة ، إنما حصل تكذيب الناس لهم ومعصيتهم إياهم . وأيضاً فالمؤمنون بالمنتظر لم ينتفعوا به ولا حصل لهم به لطفٌ ولا مصلحة مع كونهم يحبّونه ويوالونه ، فعلم أنّه لم يحصل به لطف ولا مصلحة ، لا لمن أقر بإمامته ، ولا لمن جحدها . فبطل مايذكرون أنّ العالم لم يحصل فيه بهذا المنتظر شيء من ذلك ، لا لمن آمن به ولا لمن كفر به . بخلاف الرسول والنبى الذى بعثه الله وكذبه قوم ، فإنه انتفع به من آمن به وأطاعه ، فكان رحمة فى حقّ المؤمن به المطيع له ، أما العاصى فهو المفرط .

وهذا المنتظر لم ينتفع به لا مؤمن ولا كافر . أما سائر الاثنى عشر — سوى على — فكانت المنفعة بأخذهم كالمنفعة بأمثاله من أهل العلم والدين ، من جنس تعليم العلم والتحديث والإفتاء ونحو ذلك ، أما المنفعة المطلوبة من الأئمة ذوى السلطان والسيف ، فلم تحصل لواحد منهم ، فتبين أن ماذكره من اللطف والمصلحة بالأئمة تلبيس محض وكذب :

الوجه الرابع : أن قوله عن أهل السنة : أنهم لم يثبتوا العدل والحكمة ، وجوّزوا عليه فعل القبيح والإخلال بالواجب : نقل باطلٌ عنهم من وجهين: أحدهما : أن كثيرا من أهل السنة الذين يقولون فى الخلافة بالنص على علىّ ولا بإمامة الاثنى عشر ، يثبتون ماذكره من العدل والحكمة على الوجه الذى قاله هو — وشيوخه عن هؤلاء أخذوا ذلك كالمعتزلة وغيرهم ، ممن وافقهم متأخرو الرافضة على القدر . فنقله عن جميع أهل السنة — الذين هم فى اصطلاحه واصطلاح العامة من سوى الشيعة — هذا القول كذب بين منه .

الوجه الثانى : أن سائر أهل السنة الذين يقرون بالقدر ليس فيهم من يقول : إن الله تعالى ليس بعدل ، ولا من يقول : إنه ليس بحكيم ، ولا فيهم من يقول : إنه يجوز أن يترك واجباً ولا أن يفعل قبيحاً .

فليس فى المسلمين من يتكلم بمثل هذا الكلام الذى أطلقه ، ومن أطلقه كان كافرا مباح الدم باتفاق المسلمين .

ولكن هذه مسألة القدر والنزاع فيها معروف بين المسلمين ، فأما نفاة القدر — كالمعتزلة ونحوهم — فقولهم هو الذى ذهب إليه متأخرو الإمامية . وأما المثبتون للقدر — وهم جمهور الأمة وأئمتها : كالصحابة ، والتابعين لهم بإحسان ، وأهل البيت ، وغيرهم — فهؤلاء تنازعوا فى تفسير عدل الله وحكمته والظلم الذى يجب تنزيهه عنه ، وفى تعليل أفعاله وأحكامه ونحو ذلك :

فقالت طائفة : إن الظلم ممتنع منه غير مقدور ، وهو محال لذاته كالجمع بين النقيضين ، وأن كل ممكن مقدور فليس هو ظلما ، وهؤلاء هم الذين قصدوا الرد عليهم . وهؤلاء يقولون : إنه لو عذب المطيعين ونعم العصاة لم يكن ظالماً . وقالوا : الظلم التصرف فيما

ليس له ، والله تعالى له كل شيء ، أو هو مخالفة الأمر ، والله لا آمر له . وهذا قول كثير من أهل الكلام المثبتين للقدر ، ومن وافقهم من الفقهاء أصحاب الأئمة الأربعة :

وقالت طائفة : بل الظلم مقدور ممكن ، والله سبحانه منزه لايفعله لعدله ، ولهذا مدح نفسه حيث أخبر أنه لايظلم الناس شيئا ، والمدح إنما يكون بترك المقدور عليه لا بترك الممتنع قالوا : وقد قال تعالى : (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما) — سورة طه : ١١٢ — قالوا : الظلم أن يحمل عليه سيئات غيره ، والهضم أن يهضم حسناته . وقال تعالى : (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائمٌ وحصيد ، وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم) — سورة هود : ١٠٠ ، ١٠١ — ، فأخبر أنه لم يظلمهم لما أهلكهم ، بل أهلكهم بذنوبهم . وقال تعالى : (وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لايظلمون) — سورة الزمر : ٦٩ — ، فدل على أن القضاء بينهم بغير القسط ظلم ، والله منزه عنه . وقال تعالى : (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا) — سورة الأنبياء : ٤٧ — ، أى لاتنقص من حسناتها ولا تعاقب بغير سيئاتها ، فدل على أن ذلك ظلم ينزه الله عنه . وقال تعالى : (قال لاتختصموا لدىّ وقد قدمت إليكم بالوعيد . مايبدل القول لدىّ وما أنا بظلام للعبيد) — سورة ق : ٢٨ ، ٢٩ — ، وإنما نزه نفسه عن أمر يقدر عليه لاعن الممتنع لنفسه .

ومثل هذا فى القرآن فى غير موضع ، مما يبين أن الله ينتصف من العباد ويقضى بينهم بالعدل ، وأن القضاء بينهم بغير عدل ظلم ينزه الله عنه ، وأنه لايحمل أحد ذنب غيره . وقال تعالى : (ولا تزر وازرة وزر أخرى) — سورة الأنعام : ١٦٤ — ، فإنّ ذلك ينزه الله عنه ، بل لكلّ نفس ماكسبت وعليها ما اكتسبت . وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى يقول : «ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا » . فقد حرم على نفسه الظلم ، كما كتب على نفسه الرحمة فى قوله تعالى : (كتب ربكم على نفسه الرحمة) — سورة الأنعام : ٥٤ — ، وفى الحديث الصحيح : « لما قضى الله الخلق كتب فى كتاب فهو موضوع عنده فوق العرش : إن رحمتى غلبت غضبى » . والأمر الذى كتبه على نفسه أو حرمه على نفسه لايكون إلا مقدورا له سبحانه ،

فالممتنع لنفسه لايكتبه على نفسه أو لايحرمه على نفسه . وهذا قول أكثر أهل السنة والمثبتين للقدر ، من أهل الحديث والتفسير والفقه والكلام والتصوف ، من أتباع الأئمة الأربعة وغيرهم .

وعلى هذا القول فهؤلاء هم القائلون بعدل الله تعالى وإحسانه ، دون من يقول من القدرية : إن من فعل كبيرة حبط إيمانه . فإنّ هذا نوع من الظلم الذى نزه الله سبحانه نفسه عنه ، وهو القائل : (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) ــ سورة الزلزلة : ٧ ، ٨ — اهـ .

ونكتفى بهذا القدر من العلوم الثرّة النافعة ، والرد المفصل الذى رأيناه بأسلوب علامتنا الجليل الإمام ابن تيمية . جزاه الله عن الإسلام كل خير ، وأعلى مكانه عنده ، وإن للمتقين لحسن مآب .

هذا ولعلنا وفقنا إلى إعطاء صور متنوّعة من كفاح الإمام العلمى ونقاشه وآرائه وفنون أحاديثه الممتعة الموجهة ــ فى هذه النفحات التى اخترناها من تراثه الخالد الذى هو قمين بكل مثقف وعالم أن يتدارسه ويستفيد ويفيد منه فى معظم شئون الفكر والدين والفقه ، إلى جانب التفسير الواضح للعقيدة الصحيحة وللتوحيد الذى وُجدنا من أجله فى هذه الحياة الدنيا . لنتزود من الطيبات والصالحات إلى يوم تشخص فيه القلوب والأبصار ، يوم لايغنى مولى عن مولى شيئا ، ولا فوز إلا لمن أتى الله بقلب سليم .



علومه ومؤلفاته

اشتغل الإمام ابن تيمية بالتأليف فى فنون العلم المتنوعة . من أصول الدين والفقه . إلى التوحيد والتفسير والفتاوى ، إلى نقد أصحاب المذاهب المعارضة لشرائع كتاب الله تعالى وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام . والرد عليهم وعلى معارضيه من علماء الكلام والفلسفة والمنطق والتصوف — الذين خلطوا فى معتقداتهم مما لايقره الدين الإسلامى فى شيء .

قال عنه — أى الإمام — تلميذه المؤرخ ابن الوردى : (ولفرط إمامته فى التفسير وعظمة اطلاعه بيّن خطأ كثيرٍ من أقوال المفسّرين ، ويكتب فى اليوم والليلة — من التفسير أو الفقه ، أو من الأصلين ، أو من الرد على الفلاسفة والأوائل — نحوا من أربعة كراريس ، وما يبعد أن تصانيفه إلى الآن تبلغ خمسمائة مجلد) .

إلا أنّ الأستاذ محمد بن شنب — الكاتب عن الإمام ابن تيمية فى دائرة المعارف الإسلامية ، حين جاء لسرد مؤلفاته ذكر بأنه : (وصل إلينا من الخمسمائة مؤلف التى قيل إنه صنفها هذه الكتب) — وراح يشير إلى أسماء (٦٤) كتابا ورسالة مما سنستعرضه فى هذا الفصل بشيء من الترتيب .

كما وقال الذهبى : (وما أبعد أن تصانيفه إلى الآن تبلغ خمسمائة مجلد) . وقد قال فى موضع آخر : (جمعت مصنفات شيخ الإسلام تقى الدين أبى العباس أحمد بن تيمية ، فوجدتها ألف مصنف ، ثم رأيت له مصنفات أخرى) .

وبتحليلنا لهذا الكلام الذى قد لايبعد عن الصحة ، إذا عرفنا سرعة الإمام فى التصنيف واجتهاده فى أن يكتب الكثير — وقد قرأ من العلوم العديدة ، ومن التراث المختلف الاتجاهات مايدعو إلى ملاحقته بالإيضاح أو الرد أو التوجيه والإصلاح الذى دأب عليه وألزم نفسه به .

وإننا لنستنبط من كثرة مؤلفات الإمام أن معظمها رسائل ومسائل كان يجيب بها على السائلين أو المستفتين ، أو مناظرة أو شرح لموضوع معيّن ، قد لايزيد على عشرة

أو عشرين صفحة مثلا ، وكلها تحسب إجمالا ضمن الكتب الأخرى — ويشملها العدد » ولهذا تعتبر متممة لمجموعة مؤلفاته الكبيرة .

وذلك إلى جانب أنّ ظروف حياة الإمام كانت غير مستقرّة — كما رأينا فى أكثر من موضع . وله من الخصوم مايؤكد بأنهم لابدّ وأخفوا جزءا من كتبه . فليس بعيدا أن يكون العديد من آثاره قد فقد وبشتّى الأسباب .

أما العلامة البزار[1] — صاحب كتاب (الأعلام العلية) فيذكر بأن مؤلفات الإمام تتوف على المائتين ، عدا فتاويه وأجوبته على المسائل التى لاتحصى ، وأضاف بأنّ مادوّن بمصر منها فى باب الفقه سبعة عشر مجلدا ، وأن أصحابه جمعوا أكثر من أربعين ألف مسألة .

وقد أورد العلامة ابن عبد الهادى فى كتابه [العقود الدريّة] بأنه : (كان ابن تيمية كثيراً مايقول: قد كتبت فى كذا وفى كذا ، ويطالب أصحابه برد ما كتب إليه حتى ينقل ، فمن حرصهم عليه لايردّونه ، ومن عجزهم لاينقلونه ، فيذهب ولا يعرف اسمه . وفوق ذلك كله فإنّ حبس ابن تيمية أكثر من مرة أدى إلى تفرق أتباعه وإلى خشيتهم من إظهار مؤلفاته ، فكان بعضهم يبيعها أو يهبها أو يخفيها ، فيتمزق بعضها أو يسرق أو يجحد نتيجة لذلك) . وهكذا كما رأينا — اختلاف الأقوال التى تؤيد ضخامة إنتاج الإمام وكثرة مؤلفاته وتنوعها .

هذا ومع بداية هذا القرن — الرابع عشر الهجرى — بدأت تظهر مؤلفات الإمام ابن تيمية فى طبعات مختلفة من الهند والشام ومصر . ولقد طبع معظم كتبه التى احتفظ لنا بها التاريخ — فى مجلدات تضم عديدا من الرسائل والكتب الصغيرة . فهناك مجلد ضخم باسم [مجموعة الرسائل الكبرى] فى جزءين — طبعا بمصر سنة ١٣٢٣ هـ : الجزء الأول فى ٤٧٥ صفحة ويحتوى على هذه التصانيف :

١ — رسالة الفرقان بين الحق والباطل .

---

(١) هو العلامة عمر بن على موسى بن الخليل البغدادى الأزجى الحنبلى — البزار — (سراج الدين أبو حفص) — فقيه ومؤرخ ، ولد سنة ٦٨٨ هـ ؛ وتوفى سنة ٧٤٩ هـ .

٢ — معارج الوصول إلى معرفة الأصول .

٣ — التبيان فى نزول القرآن .

٤ — الوصية فى الدين والدنيا .

٥ — رسالة النية فى العبادات .

٦ — العرش هل هو كرىّ أم لا ؟

٧ — الوصية ، بما جاء به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم — وبيان فضل أمته على سائر الأمم .

٨ — الإرادة والأمر .

٩ — اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة وهذه الرسالة عرفت فى الأصل باسم [العقيدة الواسطية] وطبعت كثيرا على حدة .

١٠ — المناظرة فى العقيدة الواسطية .

١١ — العقيدة الحموية الكبرى .

١٢ — السؤال عن الاستغاثة برسول الله صلى الله عليه وسلم — هل جائزة أم محرمة والجواب على ذلك .

أما الجزء الثانى — فى ٤٠٥ صفحات ، ويضم هذه الكتب :

١ — رسالة الإكليل فى المشابه والتأويل .

٢ — فى الجواب عن القائل : أكل الحلال متعذر لا يمكن وجوده فى هذا الزمان .

٣ — فى قوله صلى الله عليه وسلم : لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد .

٤ — مراتب الإرادة .

٥ — القضاء والقدر .

٦ — الاحتجاج بالقدر .

٧ — درجات اليقين .

٨ — بيان الهدى والضلال .

٩ — فى سنة الجمعة .

١٠ — تفسير المعوذتين .

١١ — بيان العقود المحرمة .

١٢ — فى معنى القياس .

١٣ — حكم السماع والرقص .

١٤ — الكلام على الفطرة .

١٥ — الكلام على القصاص .

١٦– الكلام على رفع الحنفى يديه فى الصلاة .

١٧– فى مناسك الحجّ .

وفى سنة ١٣٦٨ هـ صدر أيضاً كتاب مفرد باسم [مجموعة رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية] فى ١٥٤ صفحة ، بآخره رسالة لأحد تلامذة الإمام . والكتاب يحتوى على أربعة مصنفات – أحدها مكرر من مجموعة الرسائل السابقة – وهى :

١ – رأس الحسين – رضى الله عنه – بحث حول ما أشيع كذبا عن نقل رأس الإمام الحسين إلى مصر .

٢ – الرد على ابن عربى والصوفية . وهو الكتاب المسمى [الرد الأقوم] على مافى كتاب [فصوص الحكم] .

٣ – العقود المحرّمة – مكرر .　　　٤ – قتال الكفار ووجوبه .

واختتم الكتاب برسالة تلميذ الإمام – الشيخ شهاب الدين أحمد بن مرى وإسمها : «الحث على جمع كتب الشيخ ونشرها » ، وقد أرسل بها إلى علماء الحنابلة بدمشق يعزيهم فى نقد الإمام ، ويستحثهم على العناية بمصنفاته ونشرها .

كذلك صدر مجلد يضمّ كتابين من مؤلفات الإمام : أولها – كتاب : [الجواب الباهر فى زوار المقابر] فى ٩٠ صفحة – وهو إجابة على استفسار من الملك الناصر وسائر الأكابر لمعرفة الحال وما أفتى به فى هذا الموضوع .

والكتاب الثانى [الرد على الإخنائى[1]] فى ٢٣٢ صفحة ، وهو استحباب زيارة خير البريّة الزيارة الشرعية . وقد كتب الإمام هذا الرد على ماجاء حول هذه الزيارة لقاضى القضاة الإخنائى بعد أن ألحّ عليه الكثيرون فى ضرورة إيضاح الحقيقة ورد الافتراءات التى تقوّى بها القاضى المذكور . ولقد عرفنا بعضاً من ذلك فيما نقلناه فى فصل سابق من كلام الإمام ابن تيمية .

ومن كتب الإمام الكبيرة [مجموعة الفتاوى] التى ظهرت فى طبعتها الأولى سنة

---

(١) الإخنائى – هو إبراهيم بن محمد بن أبى بكر – ومن كتبه : « مختصر الأحكام » توفى سنة ٧٧٧ هـ .

١٣٢٦ هـ فى خمسة أجزاء ضخمة تزيد على ألفين وخمسمائة صفحة . وقد تضمنت كل مناظراته وآرائه وأجوبته على كثير من المسائل والفتاوى، ولقد طبع كتابه [الاختيارات العلمية] ملحقا بالجزء الرابع من هذه المجموعة الهائلة .

كذلك كتابه النقدى الضخم [منهاج السنة النبوية] أول ماطبع سنة ١٣٢١ هـ ، وعلى هامشه كتابه الموسوم [بيان موافقة المعقول لصحيح المنقول] .

أما كتبه المعروفة الأخرى ، فنذكر منها ماقد طبع أغلبه :

١ — السياسة الشرعية — فى أمور الدولة . طبع سنة ١٣٧٠ هـ .

٢ — كتاب مجموعة تفسير لست من سور القرآن الكريم، هى: الأعلى، الشمس، الليل ، العلق ، الكافرون ، البينة — طبع فى بمبى بالهند سنة ١٣٧٣ هـ الموافقة لسنة ١٩٥٤م بعد أن صححه وعلق عليه ثم قدمه بالإنجليزية [1] السيد عبد الصمد شرف الدين .

٣ — الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح . طبع فى أربعة أجزاء سنة ١٣٢٢هـ .

٤ — المعجزات والكرامات — طبع سنة ١٣٤٩ هـ .

٥ — نقض المنطق — طبع بمصر سنة ١٣٧٠ هـ ، فى ٢١٠ صفحات .

٦ — الرد على المنطقيين . طبع فى بمبى بالهند سنة ١٣٦٨ هـ ، فى ٥٥٠ صفحة .

٧ — نظرية العقد — وهو كتابه (العقود) طبع سنة ١٣٤٩ هـ .

٨ — مذهب السلف القويم فى تحقيق مسألة كلام الله الكريم . طبع سنة ١٣٤٩هـ فى ١٦٥ صفحة .

٩ — رفع الملام عن الأئمة الأعلام .

١٠ — الواسطة بين الخلق والحق .

١١ — الرسالة البعلبكية .

١٢ — الصراط المستقيم ومجانبة أصحاب الجحيم .

١٣ — رسالة فى حقيقة الصيام .

١٤ — العقيدة التدمرية .

١٥ — العقيدة المراكشية .

١٦ — المسألة النصيرية .

---

(١) وقد ترجمت هذه المقدمة للعربية فى صدر الكتاب .

١٧ — سؤال عن صحة مذهب أهل المدينة .

١٨ — قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة .

١٩ — مسألة الكنائس .

٢٠ — النبوات .

٢١ — الجوامع فى السياسة الإلهية .

٢٢ — كتاب الرد على النصارى .

٢٣ — أربعون حديثا برواية ابن تيمية .

٢٤ — جمع كلمة المسلمين .

٢٥ — الكلام على حقيقة الإسلام والإيمان .

٢٦ — نقد تأسيس الجهمية .

٢٧ — تخجيل أهل الإنجيل .

٢٨ — الصارم المسلول على شاتم الرسول .

٢٩ — نصيحة أهل الإيمان فى الرد على منطق اليونان .

٣٠ — الرسالة المدنية فى المجاز والحقيقة .

٣١ — إيضاح الدلالة فى عموم الرسالة .

٣٢ — رسالة فى سجود القرآن .

٣٣ — رسالة فى سجود السهو .

٣٤ — رسالة فى أوقات النهى والنزاع .

٣٥ — رسالة فى تنوع العبادات .

٣٦ — رسالة العبودية .

٣٧ — رسالة الحسبة فى الإسلام .

٣٨ — رسالة المظالم المشتركة .

٣٩ — رسالة فى زيارة بيت المقدس .

٤٠ — جوامع الكلم الطيب فى الأدعية والأذكار .

٤١ — كتاب الفرق المبين بين الطلاق واليمين .

٤٢ — مسألة الحلف بالطلاق .

٤٣ — مسألة العلو .

٤٤ — الرسالة القبرصية[1] .

٤٥ — تفسير سورة النور .

٤٦ — بغية المرتاد فى الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية .

٤٧ — حقيقة مذهب الاتحاديين — أو وحدة الوجود وبطلانه بالبراهين النقلية والعقلية .

---

(١) كان الإمام قد كتب بهذه الرسالة إلى (سرجوان) ملك قبرص النصرانى — يبين له فضل الإسلام ، ويدعوه لرعاية المسلمين الذين تحت حكمه .

٤٨ ــ تفصيل الإجمال فيما يجب لله من صفات الكمال .

٤٩ ــ قصيدة فى مسألة القضاء والقدر .

هذا وإن أغلب هذه الكتب قد طبع ، سواء منها المفرد أو المجموع .

ولعلّ من جميل المصادفة ، وأنا أبحث فى مؤلفات الإمام ابن تيمية وأنقّب عنها ــ أن أجد مؤخراً طبعة جديدة لم تكتمل بعد ، منسقة ومبوبة تبويباً مناسباً ؛ وهى فى ترتيبها الحديث ، تضم كل آثار الإمام التى رأيناها ، وتعتبر من أوفق ما أخرجه المهتمون بآثاره الجليلة . ذلك أن الشيخ عبد الحق بن قاسم ــ العالم النجدى ــ كان شديد الولع بجمع هذا التراث الخالد ، لما وجد فيه من نفع يعم المسلمين ، فراح يجد فى البحث عن مؤلفات الإمام ــ حتى أنه سافر إلى دمشق فالقاهرة ثم أتم رحلته ابنه السيد محمد[1] . مستقصياً ومتتبعا هذه الآثار ، يجمعها ويعنى بها ويرتبها ويهيئها للطبع ، وقد حصل منها على معظم الموجود منها ــ إن لم يكن كله ــ وانتهج فى إخراجها نهجا لطيفا ، إذ قسمها إلى مجلدات ضخمة عديدة ، بحيث يحتوى كلّ مجلد على مادة من مواد العلم المتنوعة التى ألف فيها الإمام ، وردوده على سائليه فى أمور الفقه والدين[2] .

ولقد عمد الأستاذ محمد بن عبد الرحمن بن قاسم هذا ــ إلى إطلاق اسم (مجموعة فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية) على كل هذه المجلدات التى تحتوى على مجموعات كتب الإمام ورسائله وفتاواه .

وما ظهر من هذه الطبعة يكاد يزيد على ثلاثة أرباع كتب المجموعة . إذ ظهرت منها فيما بين أعوام : ١٣٨١ ، ١٣٨٢ ، ١٣٨٣هـ ، (٣٠) ثلاثين مجلدا . ولم يشر فى المجلد الأخير ــ كغيره ــ عن نوع الجزء الذى يليه . غير أنه يتبين لنا من المقدمة الأولى التى كتبها فى المجلد الأول الشيخ عبد الرحمن بن قاسم ، جملة أسماء المجلدات التى تصدر فى هذه المجموعة ــ أو الموسوعة الشاملة ــ لكتب الإمام ابن تيمية .

---

(١) هو إلى الآن أستاذ فى معهد (الدعوة) بالرياض .

(٢) تطبع هذه المجلدات فى (مطابع الرياض) على نفقة الملك فيصل بن عبد العزيز .

وهنا نذكر أولا أسماء المجلدات الثلاثين التى ظهرت ، ثم نعقب عليها بالأسماء المكتوبة فى المقدمة للمجلدات التى لم تطبع بعد .

المجلد الأول : توحيد الألوهية — فى ٤٠٠ صفحة .

المجلد الثانى : توحيد الربوبية — فى ٥٢٥ صفحة .

المجلد الثالث : مجمل اعتقاد السلف — فى ٤٧٠ صفحة .

المجلد الرابع : مفصل الاعتقاد — فى ٥٨٠ صفحة .

المجلد الخامس : الأسماء والصفات — فى ٦٠٠ صفحة .

المجلد السادس : الأسماء والصفات أيضاً فى ٦٠٠ صفحة .

المجلد السابع : الإيمان — فى ٧٠٠ صفحة .

المجلد الثامن : القدر — فى ٥٦٠ صفحة .

المجلد التاسع : المنطق — فى ٣٣٥ صفحة .

المجلد العاشر : علم السلوك — فى ٧٩٠ صفحة .

المجلد الحادى عشر : التصوف — فى ٧٣٠ صفحة .

المجلد الثانى عشر : القرآن كلام الله حقيقة — فى ٦٢٠ صفحة .

المجلد الثالث عشر : مقدمة التفسير — فى ٤٤٠ صفحة .

المجلد الرابع عشر : التفسير لسورة الإخلاص وسورتى المعوذتين[١] .

المجلد الخامس عشر : التفسير أيضاً[٢] .

المجلد السادس عشر : التفسير أيضاً . المجلد السابع عشر : التفسير أيضاً .

المجلد الثامن عشر : الحديث . المجلد التاسع عشر : أصول الفقه ، الاتباع .

المجلد العشرون : أصول الفقه — التمذهب .

المجلد الحادى والعشرون : الطهارة . المجلد الثانى والعشرون : الصلاة .

---

(١) هذا المجلد والمجلدات التى تليه — لاتقل صفحات كل مجلد عن ٤٠٠ صفحة ويزيد على ٦٠٠ ص .

(٢) تضم هذه المجلدات الثلاثة من ١٥ إلى ١٧ كل ما عنى به الإمام من تفاسير لسور وآيات قرآنية وقد رتبت على مسلسل سور القرآن — وتزيد صفحات المجلدات هذه على (١٢٠٠) صفحة .

المجلد الثالث والعشرون : السّهو إلى الأعذار .

المجلد الرابع والعشرون : الأعذار : — الزكاة .

المجلد الخامس والعشرون: الزكاة فالصوم .

المجلد السادس والعشرون: الحج . المجلد السابع والعشرون : الزيارة .

المجلد الثامن والعشرون : الجهاد . المجلد التاسع والعشرون: البيع إلى الصلح .

المجلد الثلاثون : الصلح إلى الوقف .

أما أسماء باقى المجلدات التى ورد ذكرها مسلسلا فى المقدمة بعد المجلدات الأولى — كما قلنا — ولم نعرف من أمرها شيئا ، فننقلها هنا تعريفاً بها ، وبأمل أن تظهر إلى دنيا النور فى وقت ليس ببعيد .

المجلد الحادى والثلاثون : الوقف إلى النكاح .

المجلد الثانى والثلاثون : النكاح . المجلد الثالث والثلاثون : الطلاق .

المجلد الرابع والثلاثون : الظهار إلى قتال أهل البغى .

المجلد الخامس والثلاثون : قتال أهل البغى إلى الإقرار .

المجلد السادس والثلاثون : ترجمة شيخ الإسلام وذكر مابلغنا من كتبه .

المجلد السابع والثلاثون : فهرس جميع ماجمعنه من فتاويه — مرتبة على ترتيب الكتب فالأبواب .

هى هذه المجلدات السبع التى وردت أسماؤها ولم تطبع بعد .

ويتضح لنا أيضاً من المقدمة الثانية فى المجلد الأول ، والتى كتبها الأستاذ محمد ابن عبد الرحمن بن قاسم — استعراضه لأسماء كتب الإمام التى قال بأنه حصل هو وأبوه عليها ، ونشراها فى هذه المجلدات — التى عرفناها . وزيادة فى الإيضاح نورد أيضاً أسماء هذه الكتب التى ذكرها فى مقدمته — وهى :

[التوسل والوسيلة ، العقيدة التدمرية ، الواسطية ، الحموية ، المدنية ، مجموعة الرسائل والمسائل ، مجموعة الرسائل والمسائل المنبرية ، السياسة الشرعية ، رأس الحسين ، الجواب الباهر ، تفسير سورة سبح ، القواعد النورانية ، نظرية العقد ، مجموع ابن رميح ،

نقض المنطق ، مختصر نصيحة الإخوان عن منطق اليونان ، الماردينيات ، كتاب الإيمان ، شرح حديث أبي ذر ، شرح حديث النزول ، بيان الهدى من الضلال فى أمر الهلال ، الفتاوى المصرية ، مناسك الحج ، أربعون حديثاً ، بعض شذرات البلاتين ، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، مجموعة الرسائل والمسائل وفتاوى شيخ الإسلام ، تفسير سورة الإخلاص ، جواب أهل العلم والإيمان ، من فتاوى شيخ الإسلام ، التحفة العراقية ، مقدمة التفسير ، الصوفية والفقراء ، تفسير سورة النور ، تفضيل مذهب أهل المدينة ، القبرصيّة ، قصيدة القدر ، نقد مراتب الإجماع ، الأفعال الاختيارية ، وفتاوى ونبذ أخر مطبوعة لم تشهر بأسماء) .

ونرجو أن تطبع تلك المجلدات الباقية التى تكوّن بقية هذه الموسوعة العلمية الكبرى من — مجموعة كتب الإمام — لتيسر على الدارسين سبل المراجعة والدراسة إلى هذا التراث العظيم النابض بالحياة . والباقى بقاء الحياة .

ولقد كان هذا التراث ، ولن يزال ، شاغل الأجيال المتعاقبة . ينهل منه الرواد ، ويبحث فيه الدارسون ، وتفيد منه جماهير الأمة على مختلف طبقاتها . وكنا قد عرفنا — فى بعض الفصول السابقة — من الأعلام والأدباء والمفكرين والمؤرخين من عنوا به وتثقفوا عليه ، وكتبوا عن حياة صاحبه المشرقة فى إكبار وإجلال .

ولا ننسى أن نضيف هنا بعض أسماء من هؤلاء الذين تدارسوه واحتفلوا به من المعاصرين — من أمثال : الأستاذ محمد رشيد رضا ، والأستاذ محب الدين الخطيب ، والشيخ طاهر الجزائرى ، والأستاذ محمد عبد الرازق حمزة ، والأستاذ محمد حامد الفقى ، والأستاذ سليمان الصنيع ، والشيخ محمد منير الدمشقى ، والدكتور على سامى النشار . وسواهم من كبار أهل الفضل والعلم والأدب .

وهكذا نرى أننا قد استوفينا مجموعة مؤلفات الإمام ابن تيمية . ولكم هى وافية جامعة لكل العلوم التى درسها وأتقن إنتاجه فيها ، بحيث أصبحت مرجعاً هاماً وقوياً لايستغنى عنه كل عالم ورائد معرفة وباحث عن الحقيقة .

غفر الله للإمام — بقدر ماقدم ، وعفا عنه . إنه كان من الصالحين .

فى ظلال النهاية

لم يكن ينتظر ، ولا يتوقع ، أن يقف الزمن جامداً — برجل مؤمن وداعية مصلح ، له باع طويل فى جهاده بالعلم . حيث أدخله الظلم بين أربعة حيطان ، حتى يودع الدنيا ، وعيناه مجمدان على هذه الحيطان العاتية الصامتة .

إن عالمنا العبقرى الكبير الإمام أحمد بن تيمية الراضى بقضاء ربه ، قد وجد العزاء فى سجنه الأخير — كعادته — من ذات نفسه الطاهرة المطمئنة بأنوار الحق ، إلى أن يصرف كل ساعات حياته الباقية ، ويشغلها فى التأليف العلمى المفيد ، وإيضاح فتاواه ، والتعمق فى معانى القرآن العظيمة ومعجزه الذى لا يدركه إلا أولوا الألباب والذين هداهم ربهم إلى فهم آياته العظمى .

وقد كان ذلك هو الرىّ الذى طلبه الإمام ووجده ، مع تفرغه للعبادة . ثم الانقطاع لها كلية ، بعد أن ازداد طغيان القوم عليه ، وسحبت منه كل الكتب والآلات الكتابية البسيطة التى كان يستخدمها . فحرم حتى من القراءة والكتابة ، الأمر الذى كان يحز فى نفسه وجعله يكتب بالفحم بأنّ — إخراج الكتب من عنده من أعظم النقم — كما روى مؤلف (فوات الوفيات) . وذلك يذكرنا أيضاً بما سبق أن قاله أحد معاصرى الإمام فى صباه — وهو الشيخ إبراهيم الدقّى : (أن (تقى الدين) يؤخذ عنه ويقلد فى العلم ، فإن طال عمره ملأ الأرض علما ، وهو على الحق ، ولا بد أن يعاديه الناس لأنه وارث علم النبوة) .

ولكن أنّى لهذه النقمة أن تطول على عظيم مثله . ولعله قد مرض بسببها ، فلم يعش طويلا بعدها[1] . وما مضى عليه نحو الشهر ، وقد أمضى فيه الثلاثة أسابيع الأخيرة

---

(١) يروى بأن الإمام ترك هذه الأبيات الثلاثة — من خطه فى أواخر أيامه :

(أنا الفقير إلى رب السموات ... أنا المسكين فى مجموع حالاتى
أنا الظلوم لنفسى ، وهى ظالمتى ... والخير ، إن جاءنا ، من عنده ياتى
لا أستطيع لنفسى جلب منفعة ... ولا عن النفس فى دفع المضرات) .

وعلى ذكر : (أنا المسكين) — قال نبينا صلى الله عليه وسلم فى حديث صحيح : « اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين » : خضوعا لله ومسكنة .

— طريحاً على فراشه ، حتى وافاه الأجل المحتوم ، فأسلم الروح — شيخنا — فى سجنه ليلة الاثنين فى العشرين من شهر ذى القعدة سنة ٧٢٨ هـ — الموافقة لسنة ١٣٢٩ م — وكان عمره (٦٧) عاماً هجرياً ، رحمة الله عليه .

وكم كانت فجيعة الناس بالغة لموته الذى أذهل بعضهم ، وروع البعض الآخر . ولقد مشت فى جنازته — كما يقول أكثر من مؤرخ — ما يزيد على المائة ألف بين رجال ونساء .

وقد شيع جثمان الإمام[1] ضحى يوم الإثنين ، فى موكب مهيب ، وصلوا عليه فى الجامع الأموى بعد أداء صلاة الظهر — بإمامة الشيخ محمد تمام ، ثم جرى نقله ، وسط الزحام الشديد والجموع الهادرة ، إلى مقبرة الصوفية بدمشق ، حيث دفن عصراً — بجوار أخيه (شرف الدين عبد الله) الذى كان قد سبقه إلى الآخرة بعدة أعوام . عليهما رحمة الله وغفرانه .

وانطوت بموت الإمام ابن تيمية : صفحة من أنصع صفحات النور والحياة — وأخلدها على الأيام . ذهب إلى خالقه راضياً مرضياً ، وقد أدى أمانة العلم التى حملها ، وأخلص فى الجهاد لرسالته كولىّ من أوليـاء الله المتقين الصالحين الذين لهم حسن المآب ونعم القرار .

وقد تفاضل وأجاد الـكثيرون فى رثاء الإمام ، وتسابقوا فى الإعلان عن فضائله وأمجاده وجميل صنائعه وكريم أفعاله .

ونختار هنا جزءاً يسيراً من شعر ذلك الرثاء المخلص الذى لو جمع كوحدة — لـكون ديواناً خاصاً بما قيل فى وفاة الإمام والبـكاء عليه والإشادة بفضله وآثاره الحميدة .

فمن قصيدة للشيخ محمد العراقى الجزرى ، نستمع لقوله مخاطباً الإمام :

(يا طلق اللسان فى كل فن   فلقد شرفت بك العلياء
إن تـكن مت فالعلوم التى أحـ   ـييت من بعد موتك أحياء)

---

(١) يروى بعض المؤرخين بأن نفراً من تلامذة ومريدى الإمام ابن تيمية — عنوا بآثاره الشخصية واستغلوا بعض مخلفاته من ملابسه وحاجاته ، فباعوها بأثمان عالية ، فمثلا بيع حبل الزئبق الذى كان يلبسه فى عنقه للوقاية من القمل — بمائة وخمسين درهم ، كما بيعت طاقيته بخمسمائة درهما .

أما العلامة عمر بن الوردى فيقول فى قصيدته الطائية من جانب آخر :

(تقى الدين أحمد خير حَبرٍ خروق المعضلات به تخاطُ
توفى وهــو محبوس فريد وليس له إلى الدنيا انبساط
ولو حضروا حين قضى لألفوا ملائـكة النعيم به أحاطوا)

إلى أن يذكر بُعْدَ الإمام عن الأمور الدنيوية فيقول :

(إمامٌ لا ولاية كان يرجو ولا وقْفٌ عليه ولا رباط
ولا جاراكموا فى كسب مال ولم يعهد له بكم اختلاط)

وللشيخ ابن فضل العمرى [١] ــ قصيدة رائية ضافية ، وفيها يقول :

(مثل ابن تيمية فى السجن معتقلٌ والسجن كالغمد ، وهو الصارم الذكر
مثل ابن تيمية شمسٌ تغيب ســدى وما ترقُّ بها الآصال والبكر)

وفيها يقول واصفاً من شجاعة الإمام ، ومواقف العدو فى المعارك :

(وشق فى المرج والأسيام مصلتة طوائفاً كلهــا أو بعضهــا تتر
هذا ، وأعداؤه فى الدار أشجعهم مثل النساء بظلّ الباب مستتر)

ومن صفو القول أن نستذكر أبياتاً من القصيدة المطولة (الحمية الإسلامية فى مذهب ابن تيمية) التى رد بها الشيخ يوسف بن محمد بن مسعود السرمرىّ ــ على ابن السبكى ، كما سبق وعرفنا فى فصل سابق . من هذه القصيدة نقتطف هذه الأبيات الثمانية فى مقام الإمام ابن تيمية :

(ففضله كضياء الشمس مضحية رأد الضحى ظاهر يرى بأشبهه
أبدَى أصول الهدى للناس واضحة كالبدر حين تجلَّى وسط غيهبه
حوى العلوم مجداً فى تطلُّبها إذ غيره المال أضحى جل مطلبه
لم يعلموا علمه من أجل ذا حسدوا والناس أعداء مالا يعلمون به
لم يثنه عنه لادينٌ ولا ورعٌ عموا وصموًا ولجوا فى تأنّبه

---

(١) هو شهاب الدين أبو العباس أحمــد بن فضل الله العمرى ــ من كتبه (مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار) ، توفى سنة ٧٤٨ هـ .

إمام صدق له فى العلم مرتبة شمّا بمعجمه فيها ومعربه
بدت له زينة الدنيا وزهرتها فردها وتمادى فى تجنبه
وغيره بذل الدين المكرم فى تحصيلها وتناهى فى توثبه)

وهناك أربعة أبيات من الشعر للعلامة المزبور ــ قالها فى تحيته للإمام ــ يمدحه ويعبر فيها عن مدى مكانته العليا — وهى :

(لله در تقى الدين أحمد من دعى ابن تيمية ذى الفطنة اللسن
فقد أتى بالذى لايستطاع له دفع بتحريره المنهج الحسن
وأضحت السنة الغراء تزهر من أنوار منهاجه فى واضح السنن
فالله يوسعه برا ويشكر ما أبدى لنا معشر القرآن والسنن)

ومهما قال العلماء والبلغاء ، وأفاض المادحون فى مناقب هذا الإنسان العالم والزعيم الدينى شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية . فلن يوفوه حقه .

ولقد استجاب إلى النداء السماوى ، وانطلق خفيفا إلى رحاب الأبدية ، تنعم روحه بالراحة العظمى فى النعيم الخالد ، وبقى ذكره الجليل خالداً على الدهور والأزمان بما خلف من تراث قل أن يخلف أحد مثله .

وهكذا ينتهى مطاف كل إنسان . ولكن نهاية العظماء — بداية لتاريخهم الطويل الذى يبقى بقاء الحياة عبر الأجيال والعصور :

إنها حياة الإشعاع والانطلاق : حياة الأزل ــ حيث ينتهى مطاف الماديات المجردة . وتنبعث معانى جديدة للروحيات العامة ، وفى كنفها مادة سر البقاء الذى يعايش الزمن حتى لحظاته الأخيرة . لتحيا معاً حياة الخلود اللانهائى فى سمو وجلال كبيرين .. مشاعل على طريق الحق والنور والإيمان . هذى الحياة النورانية التى ولجها علامتنا الأكبر الإمام أحمد بن تيمية ــ بعد صراع ونضال عميقين طويلين فى سبيل أرفع المثل وأسمى الغايات . ولا غرو فهو من أولئك الذين قال فيهم الرب جل وعلا : (إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله) . وقال سبحانه

فى عباده هؤلاء : (أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم) .
صدق الله العظيم .

. . أعظم درجة . ودرجات عند ربهم . هذه المقامات العظمى فى أعلى عليين : هى الفوز الأكبر الذى لامطمع بعده ، ولا رجاء إلا فى أن يدوم برضاء الله ومشيئته تعالى الذى وعدهم الحسنى والبقاء الدائم فى ظل نعمائه المقيمة وجناته الأزلية . بلى . إنه لامطمع ولا رجاء بعد هذا النوال الإلهى — إلا فى رؤية وجه ربنا الرحمن الرحيم الذى له مافى السموات وما فى الأرض . يوم يمن على عباده بهذا العطاء السّخى ، ويفرحون بلقائه كما لم يفرحوا من قبل .

ويسوقنا الكلام فى هذا إلى الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم — فى رؤية الله جل شأنه ، وما يحدث يومها فى ذلك المقام الجليل الرهيب . فقد روى أبو هريرة — رضى الله عنه — فى حديث صحيح — بأنّ الناس قالوا : يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال « : هل تمارون فى القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟ قالوا : لا يارسول الله . قال : فهل تمارون فى الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لا يارسول الله . قال : فإنكم ترونه كذلك يحشر الناس يوم القيامة ، فيقول من كان يعبد شيئاً فليتبع ، فمنهم من يتبع الشمس ، ومنهم من يتبع القمر ، ومنهم من يتبع الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ، فيأتيهم الله فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاء ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله عزّ وجل فيقول أنا ربكم ، فيقولون أنت ربنا ، فيدعوهم ويضرب الصراط بين ظهرانى جهنم ، فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل ، وكلام الرسل يؤمئذ : اللهم سلّم سلّم . وفى جهنم كلاليب مثل شوك السعدان — هل رأيتم شوك السعدان ؟ قالوا : نعم ، قال : فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لايعلم قدر عظمها إلا الله تخطف الناس بأعمالهم فمنهم من يوبق بعمله ، ومنهم من يخردل ثم ينجو ، حتى إذا أراد الله رحمة من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من كان يعبد الله ، فيخرجونهم ويعرفونهم بآثار السجود ، ويحرم الله على النار أن تأكل أثر السجود ، فيخرجونهم من النار ، فكل ابن آدم تأكله النار إلا أثر السجود ،

فيخرجون من النار وقد امتشحوا ، فيصب عليهم ماء الحياة ، فينبتون كما تنبت الحبة فى حميل السيل ، ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد ، ويبقى رجلٌ بين الجنة والنار ، وهو آخر أهل النار دخولا إلى الجنة مقبلا بوجهه قبل النار ، فيقول : يارب اصرف وجهى عن النار قد قشبنى [1] ريحها وأحرقنى ذكاؤها ، فيقول : هل عسيت إن فعل ذلك بك أن تسأل غير ذلك ، فيقول : لا وعزتك . فيعطى الله مايشاء من عهد وميثاق ، فيصرف الله وجهه عن النار ، فإذا أقبل به على الجنة رأى بهجتها سكت ماشاء الله أن يسكت ، ثم قال : يارب قربنى عند باب الجنة ، فيقول الله : أليس قد أعطيت العهود والميثاق أن لاتسأل غير الذى كنت سألت ؟ فيقول : يارب لا أكون أشقى من خلقك ، فيقول : ماعسيت إن أعطيت ذلك أن تسأل غيره ، فيقول : لا وعزتك لا أسأل غير ذلك ، فيعطى ربه ماشاء من عهد وميثاق ، فيقدمه إلى باب الجنة ، فإذا بلغ بابها ، فرأى زهرتها وما فيها من النضرة والسرور ، فيسكت ماشاء الله أن يسكت ، فيقول : يارب أدخلنى الجنة ، فيقول الله عز وجل : ويحك يا ابن آدم ما أعذرك ، أليس قد أعطيت العهد والميثاق أن لاتسأل غير الذى أعطيت ، فيقول : يارب لاتجعلنى أشقى خلقك ، فيضحك الله منه ، ثم يأذن له فى دخول الجنة . فيقول : تمن ، فيتمنى حتى إذا انقطع أمنيته ، قال الله زد من كذا وكذا ، أقبل يذكره ربه ، حتى إذا انتهت به الأمانى قال الله تعالى : لك ذلك ومثله معه . وذكر أبو سعيد الخدرى بأنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قال الله عز وجل : لك ذلك وعشرة أمثاله » اه .

ذلك يناله الإنسان ، وقد أخرجه ربه من العذاب ، فكيف بمن لهم الدرجات العلى ؟ مَنْ يجازىَ بعمله الصالح وبجهده المخلص فى طاعة الله ورسوله ؟ إنه يأخذ نصيبه بمدى إصلاحه فى دنياه وتصريفه العدل لأمور حياته بما وهبه الله من عقل وبصيرة . فلا تزر وازرة وزر أخرى . ولا يحمل عن أىّ كائن من كان مثقال ذرّة ، ولو كان ذا قربى (يوم يفرّ المرء من أخيه وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرىء منهم يومئذ

---

(١) قشبنى — يعنى : أهلكنى وآذانى لفحها — أى النار .

شأن يغنيه) . كما قال عز من قائل ، ونذكر هنا ما كان قد قاله الإمام ابن تيمية عن التماس بعض الناس التقرب من الأنبياء والصالحين ورجائهم طلب المغفرة لهم .

قال الإمام فى ذلك :

(إننا ليس لنا أن نطلب من الأنبياء والصالحين شيئاً بعد موتهم ، وإن كانوا أحياء فى قبورهم ، وإن قدر أنهم يدعون للأحياء ، فليس لأحد أن يطلب منهم ذلك ، ولم يفعل ذلك أحد من السلف ، لأن ذلك ذريعة إلى الشرك ، وعبادتهم من دون الله ، بخلاف الطلب من أحدهم فى حياته ، فإنه لا يفضى إلى الشرك) .

وإذا عطفنا نستزيد من التعريف بمقومات الإمام التعليمية ، نستأنس بما قيل أيضاً عن ثقافته وسعة معارفه .

وقد ورد بعض من هذا فى الكلمة التى كتبها الشيخ عبد الله بن عثمان ــ الشهير بمستجى زادة ــ تعليقاً على أحد النسخ الخطيّة من مؤلف الإمام (منهاج السنة النبوية) ، وسجلت فى أواخر صفحاته . قال الشيخ عبد الله المذكور : (وقد كان مؤلفه رحمه الله تقى الدين بن تيمية صاحب إحاطة واطلاع عظيم على مقالات الفرق الإسلامية وكلماتهم ، وأورد فى هذا الشرح فوائد متعلقة بعلم الكلام ، قلما يوجد أمثالها فى الكتب المشهورة فى الكلام ، لأنه ظفر بكتب القدماء من الفرق الإسلامية ــ وكلماتهم ، وأورد فى هذا الشرح فوائد متعلقة بعلم الكلام ، قلما يوجد أمثالها فى الكتب المشهورة فى الكلام ، لأنه ظفر بكتب القدماء من الفرق الإسلامية التى لم تشتهر ، بل ولم توجد تلك الكتب فى ديارنا ديار الروم ، وأنه رحمه الله تعالى متضلع فى آثار رسول الله وآثار الصحابة والتابعين وأقوال المجتهدين ، ففى هذا الشرح من الفوائد والعوائد مالا يوجد فى غيرها من الكتب ، شكر الله تعالى مساعيه) .

وأتم هذا كلامه فى اتهام الإمام بالقصر فى فهم الفلسفة وأنه وقع فى أوهام وأغلاط فى هذا المجال . غير أن المتتبع لكل ماتناوله الإمام فى هذا الموضوع وما عالجه من فنون الكلام لا يمكن أن يأخذ عليه مأخذاً دقيقاً أو عارضاً ــ كما ذهب إليه معارضوه ومنافسوه .

ولقد تنضرت سيرة هذا الرجل المتكامل (ابن تيمية) : رفعة وأدباً . علماً وتقوى . سمواً وخلقاً . عزاً وفضلا . وكما عاش عظيما . مات عظيما . وظهرت له كرامات الأولياء الصالحين مما حفل بها من كتبوا عن مناقبه ، وعددوا الكثير من أحداث حياته الإنسانية المؤمنة ، وما لمسه الناس من أفضاله بعد وفاته . وظلت زمنا حديث القوم ومثار تعجبهم .

كيف لا ؟ وقد بلغ الإمام المراتب العلية والمكانة السنية . فكان قدوة فى الخير والصلاح ،ومثلا كاملا للشخصية الإسلامية المفتقدة فى كل عصر ومصر .

أجل . كان الإمام صرحاً شامخاً لحمى الدين الحنيف . كان قوة متينة تصد عدوان المغيرين ، وترد كيد الملحدين ، وتدحض حذلقة المذهبيين . كان حصناً مكيناً للتراث الإسلامى الأعظم فى شرائعه السماوية ونظم العدالة لبنى البشر . كان فخر العلماء وسيد الفقهاء . وإمام المجتهدين .

ولقد رأينا فى الفصول السابقة من كتابنا — كيف كانت أعماله تقشع الظلمات ، وكيف كانت مواقفه المشرفة كلها لاتميل ولا تنحرف . لا تمالىء أو تنحاز أو تقبل بأى جانب من جوانب الخروج — ولو قيد أنملة — عن أساس التشريع فى كتاب الله تبارك وتعالى وفى سنة رسوله عليه أفضل الصلاة والسلام . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون . ومن يتق ويؤمن فهو من الفائزين

روى أبو هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن لله ملائكة يطوفون فى الطرق يلتمسون أهل الذكر — فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله عز وجل تنادوا هلموا إلى حاجتكم ، قال : فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ، قال فيسألهم ربهم ، وهو أعلم بهم ، مايقول عبادى ؟ قالوا يقولون يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك ، قال : فيقول : هل رأونى ؟ فيقولون : لا والله مارأوك ، قال فيقول كيف لو رأونى ؟ قال يقولون لو رأوك ، كانوا أشد لك عبادة ، وأشد لك تمجيداً وتحميداً ، وأكثر لك تسبيحاً ، قال : فيقول : فما يسألوننى ؟ قالوا : يسألونك الجنة ، قال : يقول : وهل رأوها ؟ قال : يقولون : لا والله يارب مارأوها ، قال : يقول :

فكيف لو أنهم رأوها ؟ قال: يقولون لو رأوها، كانوا أشد عليها حرصاً وأشدّ لها طلباً وأعظم فيها رغبة ، قال فمم يتعوذون ؟ قال : يقولون من النار ، قال : يقول : وهل رأوها ؟ قال : يقولون لو رأوها كانوا أشد منها فرار ، وأشد لها مخافة ، قال : فيقول : فأشهدكم أنى غفرت لهم ، قال : يقول ملك من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة ، قال : هم الجلساء لايشقى بهم جليسهم » .

هؤلاء أهل الذكر . فكيف بمن هو أرفع شأنا منهم ؟ كيف بحامل لواء التوحيد يجاهد بالقول وبالفعل وبهدى الله الذى استنار به .. فحق عليه أن ينير للآخرين . وأن ينشر العلم الصحيح فى كل ميدان .

وذلك ما أداه عالمنا الجليل الإمام ابن تيمية فى إخلاص وأمانة وتضحية . لقد حمل الأمانة . وأداها على وجهها الأكمل قبل أن يخطو إلى العالم الآخر خطوات النهاية المحتومة ، ليذهب نقى النفس مطمئن الضمير ، على أنه وفى كلّ ماعليه بكل جهد أمكنه الله تعالى منه . وهو يحمده ويثنى على عطاياه التى لاتحصى .

* * *

وينام الإمام ابن تيمية نومته الطويلة . وهو يقظ فى تصانيفه الحية التى لن تبيد . فإنسان قدم مثلما قدم هذا العلامة الكبير لن يفنى .

ولقد أفاض فى الحديث عنه المؤرخون لحياته ، يثنون ويشيدون بمكانته العلمية الكبيرة ، وبجهوده المخلصة للدفاع عن الدين الإسلامى ، وبمؤلفاته القيمة التى تعتبر موسوعة ضخمة فى علوم الدين والفقه والحياة . ومعظمهم أرخ لحياته بطرق متعددة .

ومن هؤلاء المتحدثين الأعلام : عماد الدين الواسطى ، والحافظ بن ناصر الدين ، وفتح الله بن سيد الناس . وسواهم .

وممن ترجم له نذكر المؤرخين الأعلام : — وفيهم من تلاميذه — الحافظ شمس الدين الذهبى — فى أكثر كتبه ، وزين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن رجب — فى طبقاته ، وابن عماد الحنبلى — فى كتابه شذرات الذهب ، وصلاح الدين بن شاكر الكتبى — فى مؤلفه : فوات الوفيات ، والحافظ الكبير عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشى —

فى كتابه : البداية والنهاية ، وابن الوردى فى تاريخه ، وابن خلكان — فى وفيات الأعيان وأنباء الزمان ، وغيرهم . فإننا لانمر بكتاب لمؤرخ إلا ويتعرض للحديث عن الإمام كقائد للأعلام العظام الذين وجهوا تاريخ عصرهم وجهة جديدة ، نحو السمو الروحانية والعقائد السامية السليمة من أى تطرّف أو زيغ أو أى لون من الأفكار الهدامة .

ومن تلاميذ الإمام أيضاً هؤلاء الأعلام : قاضى القضاة شرف الدين أبو العباس أحمد بن الحسين — المشهور (بقاضى الجبل) ، والحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد ابن أحمد بن عبد الهادى المقدسى ، وزين الدين أبو حفص الحرانى ، وشمس الدين أبو عبد الله ابن مفلح ، وغيرهم . رحمهم الله .

ومن المؤلفات القديمة التى وضعت عن الإمام — كتاب : (القول الجلى فى ترجمة الشيخ تقى الدين تيمية الحنبلى) تأليف العلامة الحنفى البخارى ، وكتاب (مجموعة الفتاوى المصرية) للشيخ بدر الدين أبى عبد الله محمد بن على الحنبلى المتوفى سنة ٧٧٧ ﻫ .

وهناك بضعة كتب هاجم فيها أصحابُها — الإمام ابن تيمية ، ليس لغرض علمى ، وإنّما تحاملا عليه وتطاولا على مكانته البارزة . ومن هؤلاء نذكر : الشيخ محمد مهدى الكاظمى القزوينى — فى كتابه (الدرّة المضيئة فى الرد على ابن تيمية) . وتلك ردود لاتستند إلاّ على الأهواء والأغراض الشخصية ، إذ الإمام ابن تيمية أكبر من أن يناله نقد من أناس دونه . وهو ولا شك — الأعلم والأفضل فى الكثير منهم .

أما المؤلفات الحديثة التى كتبت عن حياة الإمام ، وتناولت علومه — وطبعت ، فإننا نذكر منها :

١ — (ابن تيمية بطل الإصلاح الدينى) تأليف الأستاذ محمود مهدى استامبولى ،

٢ — (حياة شيخ الإسلام ابن تيمية) بقلم الأستاذ محمد بهجت البيطار .

— وهما سوريان .

٣ — (ابن تيمية) من وضع الشيخ عبد العزيز المراغى .

٤ — (ابن تيمية السلفى) بقلم الأستاذ محمد خليل هراس .

٥ — (ابن تيمية) من تأليف الشيخ محمد أبو زهرة .

٦ — (ابن تيمية) تأليف الدكتور محمد يوسف موسى .

— وهؤلاء الأربعة الكتاب من مصر .

* * *

تلك لمحات من أثر الإمام فى الرجال — ممن نهجوا سبيل المعرفة ، وتوارثوا العلم ، فكتب لهم به العمل الصالح والذكر الخالد .

وإننا إذ ننهى كتابنا هذا ، نعترف بأن ماقدمناه فى هذا الجهد المتواضع عن علَمنا طيب الذكر وعالمنا العبقرى الإمام أحمد بن تيمية — ماهو إلا غرفة من بحر . وقبس من أنواره العلمية الخالدة . وإن لفى حياته الواسعة العريضة — منابع متعددة صالحة للدراسة والعرض والتحليل . وإن اكتفينا هنا بأجزاء خاطفة منها فلغرض عدم الإطالة التى لها مجال آخر ، وميدان أرحب لمن أراد التوسع فى البحث ومناقشة شعبه المتعددة .

غير أننا أعطينا فى كتابنا الشامل الموجز هذا فى آن — نماذج وافية من سيرة هذا العالم النحرير . وترجمة نرجو أن تحقق الفائدة المنشودة فى دراسة علامتنا الإمام ابن تيمية — رجل الساعة فى عصره ، وشيخ الإسلام الأكبر الذى قدم للدين الإسلامى نفسه وعلمه وجهوده حتى اختاره الله تعالى إلى جواره . عليه رضوان الله ورحمته وبركاته .

المدينة المنورة — عبد السلام هاشم حافظ

سنة ١٣٨٤

عرض موجز

لسيرة الأديب الشاعر الأستاذ السيد عبد السلام هاشم حافظ

من المدينة المنورة

• ولد فى السابع عشر من جمادى الأولى سنة ١٣٤٧ هـ الموافق ٢٢ من أكتوبر سنة ١٩٢٩ م بالمدينة المنورة (الوطن) وينحدر نسبه من السيدة فاطمة الزهراء ابنة رسول الله عليه الصلاة والسلام .

• توفى والده سنة ١٣٤٨ هـ فكفله عمه السيد عبد القادر ، ونشأ فى ظله ببيئة محافظة وتأثر بحياته الدينية . .

• (أدخل الكتّاب) سنة ١٣٥٢ هـ حيث درس القرآن وحفظ نحو نصفه عن ظهر قلب — ومنه انتقل إلى المدرسة التحضيرية سنة ١٣٥٤هـ بالسنة الثانية ومنها إلى الابتدائية (نظام قديم) حيث حصل على الشهادة الابتدائية سنة ٦٠ / ١٣٦١ هـ بتفوق — وكان ذلك النظام يعادل الشهادة الثانوية فى أيامنا . .

• لم يستطع مواصلة الدراسة المدرسية لإصابته آنذاك بمرض القلب الذى أصبح يعرف (بالروماتيزم) واضطرت حالته إلى إجراء عملية جراحية به لتوسعة الصمام الميترالى سنة ١٣٧٧ هـ بالقاهرة ، وله نظام دقيق ساعد على احتجاز صاحبه للتحصيل والعمل الأدبى والإنتاج المتصل مبكراً .

• منذ ذلك التاريخ سنة ١٣٦١ هـ اتجه إلى الاطلاع وإرضاء الهواية التى أصبحت مع الأيام التزاما ومسئولية ، فرسالة فى ميدان المعرفة والفكر .. ومنذ سنة ١٣٦٤ هـ كان يكتب مايمكن أن يعتبر عملا جاداً فى هذا السبيل بعد تجارب عديدة — الشعر والقصة والمقالة ، فالبحوث المختلفة ..

• التحق بالعمل الوظيفى سنة ١٣٧٢ هـ أميناً لمكتبة مشروع توسعة المسجد النبوى، ثم بالوظيفة الحكومية سنة ١٣٧٤ هـ محرراً بقسم المباحث الجنائية بالشرطة فمحققاً بها

القسم التنفيذ — وذلك لمدة خمسة أعوام لظروف الحالة القلبية التى استدعت الراحة والرعاية — فأحيل إلى التقاعد بطلبه ، وتفرغ كلياً لرسالته الأدبية التى حقق بها الكثير ، بالجهد والإصرار وبالإيمان بجدواها .. وهو قد تأثر فى دراسته بالأعلام القدماء : المعرى والمتنبى وأبى تمام وغيرهم ، ومن الأعلام المحدثين : مصطفى الرافعى وجبران والشابى وجوته وغيرهم .

• ظهر له أول أثر أدبى فى كتاب (مذبح الأشواق) الديوان الذى لاقى استقبالا حافلا وإعجاباً كفاتحة خير للنضال المتصل . . ثم تلته المؤلفات العديدة الأخرى بين دواوين الشعر والقصة والأبحاث . . الخ . . وقد اشترك عام ١٣٨٤ هـ فى مسابقة الأعلام التى أقامتها وزارة المعارف ، وفاز بحثه هذا — عن (الإمام ابن تيمية) بالجائزة الثانية .:

• بالنسبة لعمله الصحفى الدورى . . فعلى الرغم من إسهامه المتصل فى نشر إنتاجه فى الصحف والمجلات ، فقد كان يحرر (الصفحة الأدبية) لجريدة (المدينة المنورة) عامى ٨١ و ١٣٨٢ هـ ثم تولى كتابة باب (الحركة الأدبية فى العالم العربى) بمجلة (قافلة الزيت) بين عامى ٨٣ و ١٣٨٤ هـ ، وكان يحرر بعض الأبواب فى مجلات : (الرائد والندوة) وغيرهما ، وعمل سكرتيراً لمجلة (الأدباء) القاهرية أثناء إقامته بمصر .. ثم أخيراً كتب (رسالة المدينة المنورة) لمجلة (المنهل) بضعة شهور ..

• فى أوائل عام ١٣٨٧ هـ افتتح مكتبة عصرية فى وطنه بالمدينة وسماها (دار الصحافة العربية) للنشر والطباعة والتوزيع .

• يقوم الآن إلى جانب إنجازاته الأدبية المختلفة — فى العمل لوضع مؤلف ضخم يكاد يعتبر الأول من نوعه ليس فقط فى البلاد العربية بل وفى العالم أجمع — ذلك هو : (المعلمة العربية للمذاهب العالمية) كمعجم شامل لجميع المذاهب قديمها وحديثها : دينية وفكرية وسياسية ونقدية وأدبية واقتصادية . . الخ ..

• له ثمانية عشر مؤلفاً مطبوعاً حتى الآن ، وسبعة عشر مؤلفاً مخطوطاً تنتظر النشر بتوفيق من الله تعالى .

وتحية نزجيها لهذا الأديب المناضل فى سبيل الكلمة والمعرفة .

القاهرة — متولى نجيب

كتب المؤلف

المؤلفات المطبوعة :

١ ــ مذبح الأشواق ــ ديوان شعر
٢ راهب الفكر ــ « «
٣ ــ الفجر الراقص ــ « «
٤ ــ صواريخ ــ « «
٥ ــ أضواء ونغم ــ « «
٦ ــ المدينة المنورة فى التاريخ ــ ــ دراسة تاريخية
٧ ــ ثورة الجزيرة ــ « «
٨ ــ الرافعى ومىّ ــ « «
٩ ــ حواء عارية ــ « تحليلية
١٠ ــ قلوب كليمة ــ مجموعة قصص
١١ ــ إهرب من المرأة ــ « «
١٢ ــ فاطمة وقصص أخرى ــ « «
١٣ ــ سمراء الحجازية ــ قصة طويلة
١٤ ــ العذراء السجينة ــ « وشعر
١٥ ــ (الأحكام النبوية فى الصناعة الطبية) ــ تحقيق وتقديم وتعليق ــ
١٦ ــ نحو مجتمع أفضل ــ تحت الطبع
١٧ ــ تلميذتى ــ شعر وقصة ــ ــ طبع سنة ١٣٨٨ هـ
١٨ ــ الإمام ابن تيمية ــ دراسة تاريخية

المؤلفات المخطوطة :

١ ــ كيف تكون إنسانا مثالياً ؟
٢ ــ أنوار ذهبية ــ ديوان شعر
٣ ــ ترانيم الصباح ــ « «
٤ ــ وحى الهاجرة ــ « «
٥ ــ قلبى المناضل ــ « «
٦ ــ ألحان الأمل ــ « «
٧ ــ سمراء ــ مأساة شعرية
٨ ــ عودة الفيضان ــ ديوان شعر
٩ ــ الأم ــ قصة طويلة
١٠ ــ من الحياة ــ مجموعة قصص
١١ ــ رجع الصدى ــ « «
١٢ ــ بين عهدين ــ « «
١٣ ــ الحب القدسى ــ مذكرات صبا الشاعر
١٤ ــ فى المحراب (٣ أجزاء) مقالات فى الفكر والحياة
١٥ ــ المعلَمة العربية للمذاهب العالمية (قيد التأليف)
١٦ ــ الأربعون ــ ديوان شعر

أهم مراجع الكتاب

- القرآن الكريم .
- التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح .
- معظم مؤلفات الإمام ابن تيمية .
- طبقات ابن رجب .
- جلاء العينين ــ للآلوسى .
- تاريخ ابن الوردى .
- فوات الوفيات ــ لابن شاكر الكتبى .
- وفيات الأعيان وأنباء الزمان ــ لابن خلكان
- البداية والنهاية ــ لابن كثير

بحمد الله وحسن توفيقه تم طبع كتاب :

الإمام ابن تيمية

مصححاً بمعرفة لجنة التصحيح بشركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

القاهرة فى { ١٨ ربيع ثان سنة ١٣٨٩ هـ
٣ يوليه سنة ١٩٦٩ م

مدير الشركة
محمد محمود الحلبى

ملاحظ المطبعة
رجب أحمد علام

فهرس

[رقم الإيداع بدار الكتب ٢١٦٠ لسنة ١٩٦٩]